حنفى المحلاوى

أماكن مشهورة في حياة محمد

صلى الله عليه وسلم

عالم الكتب



أماكن مشهورة

فى حياة محمد ﷺ

عالم الكتب
نشر • توزيع • طباعة

الإدارة :
١٦ ش جواد حسنى - القاهرة
تليفون : ٣٩٢٤٦٢٦
فاكس : ٣٩٣٩٠٢٧

المكتبة :
٣٨ ش عبد الخالق ثروت - القاهرة
تليفون : ٣٩٢٦٤٠١
ص.ب : ٦٦ محمد فريد
الرمز البريدى : ١١٥١٨

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٢٢ هـ = ٢٠٠٢ م

رقم الإيداع ٢٠٠٢/٣٤٤٠٣
الترقيم الدولى I.S.B.N.
977 - 232 - 298 - 6

الشركة الدولية للطباعة
المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩ - شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر
☎ : ٨٣٣٨٢٤٠ - ٨٣٣٨٢٤٢ - ٨٣٣٨٢٤٤
e-mail: pic@6oct.ie-eg.com

أماكن مشهورة

فى حياة محمد

صلى
الله
عليه
وسلم

حنفى المحلاوى

عالم الكتب

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

صدق الله العظيم

[سورة القلم : ٤]

الفهرس

** بدلاً من الإهداء ٩
** المقدمة ١١
** تمهيد: ١٧
السيرة النبوية وعصر التدوين ١٧
١- في السموات السبع ٢٥
٢- في بيت المقدس ٤٧
٣- في طور سيناء ٦١
٤- في بيت لحم ٧٧
٥- في مكة المكرمة ٨٧
٦- في بلاد الشام ١٥٥
٧- في الطائف ١٦٩
٨- في المدينة المنورة ١٨١
٩- في خيبر ٢١٧
١٠- في تبوك ٢٣٣
* المراجع ٢٤٥
- ملحق الصور ٢٤٩

بدلاً من الإهداء..

إن البلاد والبقاع والمدن كالأشخاص.. لها ملامح ومعالم تميزها، وصفات وخصائص تربطها بالقلوب..وتصلها بالمشاعر والأحاسيس.. وإن من أهمها وأعظمها ما ارتبط بالنبى الكريم محمد عليه الصلاة والسلام، سيد الأولين والآخرين..

حنفى المحلاوى

المقدمة

بسم الله الذى لايضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء.. اللهم ربى أدعوك أن تجعل كلماتى هذه برداً وسلاماً على كل البشر من الذين آمنوا وسوف يؤمنون بالله رباً وبمحمد رسولاً عليه الصلاة والسلام.

ذلك لأنها تقترب كثيراً من سيرة سيد المرسلين وآخر أنبيائه لأهل الأرض.. وهى ليست بالسيرة أو من السيرة فى شىء إلا بالقدر الذى يخدم موضوع هذه الأوراق.. الذى يقوم فى الأساس على فكرة البحث فى دروب التاريخ وأوراقه البيضاء والصفراء عن أهم الأماكن التى ارتبطت بحياة النبى محمد عليه الصلاة والسلام، منذ مولده ومبعثه حتى وفاته.

كما تتبنى الفكرة نفسها.. التحرى والتدقيق فيما ذكر عن هذه الأماكن التى كان لها أكبر الأثر فى حياة النبى الكريم ﷺ وحياة الدعوة الإسلامية كلها.

وكما نعرف جميعاً، فقد اكتشف علماء الاجتماع أن للمكان دوراً بارزاً فى حياة البشر، حيث يتأثر به الإنسان ويؤثر فيه.. فما بالنا ونحن نتحدث عن خير الأنام وسيد البشر محمد عليه الصلاة والسلام.. الذى عاش حياته الطويلة متنقلاً بين عدة أماكن فى أكثر من مدينة وقرية، بل وارتبطت كذلك برحلته إلى السموات العلا، عندما أسرىِ به ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثم عُرج به إلى السماء!.

ولقد أثبتت كل كتب السيرة النبوية الشريفة، أن رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم قد أثر وتأثر كثيراً بكل الأماكن التى عاش فيها سواء وهو طفل صغير أو من بعد مبعثه برسالة الإسلام.. حتى أصبحت إقامته وارتباطاته بتلك الأماكن

تبشر بالخير، ونشر نور الإسلام والتوحيد.. ناهيك عما كان يصيب هذا المكان من بركة تنزل من السماء مصاحبة لتنقلات هذا العبد الصالح محمد بن عبد الله.

* * *

ومما لاحظناه فى سياق الحديث عن الأماكن المشهورة فى حياة النبى الكريم ﷺ أن نظرة الناس إليها داخل مجتمعه قد اختلفت من مرحلة إلى أخرى، إذ اتضح أن حياته عليه الصلاة والسلام وارتباطها بهذه الأماكن قد شهدت فعلاً مرحلتين الأولى بدأت منذ مولده عليه السلام وحتى يوم مبعثه.. أى لفترة امتدت لأربعين عاماً.. وكانت نظرة أهله وأهل عشيرته خلالها لهذه الأماكن وما كان يصيبها من بركة وهدوء وتغييرات طيبة.. على أنها كانت من قبيل السحر وفق معتقداتهم التى كانت سائدة آنذاك والتى قامت أساساً على الغيبيات المرتبطة بعالم الجن.. فهم كانوا قوماً لايعبدون إلا الأصنام التى كانت لا تسمع ولاترى ولا تبصر!

وكان إيمانهم بالله وبقدراته محدوداً للغاية، وفق ما كان يعلمه بعضهم عن الديانات السماوية الأخرى مثل اليهودية والمسيحية، ورغم ذلك فقد عاد فريق كبير من أتباع النبى الكريم ﷺ من أهله وأهل قبيلته إلى الاهتمام بهذه الأماكن بعدما آمنوا به وبرسالته و بالله الواحد الأحد.. وقد ظهر هذا الاهتمام جلياً وكما سوف نرى فى إقامة المساجد والزوايا لعبادة الله وإن كان ذلك قد تم فى مرحلة متأخرة من حياة هذا النبى .. اقتربت كثيراً من بدايات المرحلة الثانية التى شهدت مبعثه الكريم برسالة الإسلام.

هذه المرحلة قد شهدت هى الأخرى أماكن جديدة وسلوك جديد من جانب أتباع النبى الكريم ﷺ الذين آمنوا بالإسلام، وكان معظمهم من أصحاب النظرة المرتبطة بالمرحلة الأولى من حياته عليه السلام.

وحتى من بعد ظهور الإسلام وانتشاره واتساع رقعته فى كل بقاع الأرض.. بدأ فريق كبير من الباحثين والدارسين والمفسرين فى إعادة البحث لدراسة هذه الأماكن وتحديدها بالضبط.. وقد واجهوا صعوبات كبيرة نظراً لتعمد بعض الأجيال التى

عاصرت بدايات الدعوة الإسلامية إهمال الحديث عن هذه الأماكن خشية أن يتخذها البعض كوسيلة للتبرك!!

من ناحية أخرى شغلتهم موضوعات عديدة ارتبطت إلى حد بعيد بدراسة كل ما اقترب من القرآن والسنة، وكانوا فى ذلك على حق تماما. . ولم ينتبه من جاء بعدهم من الأجيال اللاحقة لدراسة هذه الأماكن ودورها فى حياة الدعوة الإسلامية إلا من خلال توظيفها لصالح الدعوة نفسها.

وهذا أيضا شىء طيب. . ولو كانوا أكملوا المسيرة بالحديث المفصل تحديدا عن هذه الأماكن لحققوا مكاسب كثيرة، على الأقل لصالح تاريخ الدعوة الإسلامية داخل أرض الحجاز نفسها.

ولحسن الحظ. . فقد قيد الله بعض عباده من الذين أحبوا النبى الكريم ﷺ وأحبوا سيرته. . لأن يكتبوا عن حياته عليه الصلاة والسلام. . وقد أشاروا فيما كتبوه إلى بعض هذه الأماكن المشهورة، وبالتالى فقد أصبحوا هم المصدر الرئيسى لكل ما كتب فيما بعد عن هذا الموضوع تفصيلا. . ولأننى من أنصار وأحباء الأماكن التى ترتبط بالمشاهير ـ حيث تنطق بما فيها من آثار تقرب إلينا ما كانوا يعيشون فيه من ظروف صعبة أو سهلة ـ فقد عقدت العزم وتوكلت على الله. . على أن يكون موضوع هذه الأوراق هو البحث عن أهم الأماكن المشهورة فى حياة النبى العظيم محمد عليه الصلاة والسلام، سواء فى مكة أو فى المدينة أو فى مصر أو فى القدس الشريف وبيت لحم أو فى بلاد الشام التى زارها وهو لايزال طفلا فى التاسعة من عمره، وكذلك أهم الأماكن التى زارها نبينا الكريم، صلى الله عليه وسلم حتى فى السموات السبع حين أسرى به.

ومن خلال تتبع واع لسيرة النبى الكريم ﷺ وكل ما كتب عن حياته. . اكتشفنا أن حياته الشريفة لم تخرج عن نطاق كل من الحجاز والشام ومصر. . إلا فى زيارته للسماء حتى وصوله إلى سدرة المنتهى.

وسوف نعيش لحظات طيبة مع قبس من نور سيرته عليه الصلاة والسلام. . من خلال إلقاء الأضواء المبهرة على هذه الأماكن المشهورة فى حياته ﷺ

* * *

ومن قبل تحقيق هذه الخطوة رأينا من خلال المقدمة ضرورة إلقاء بعض اللمحات المضيئة على منهجنا، الذى سوف نسير فى ظلاله حتى تكتمل رحلتنا عبر كل الأماكن المشهورة والتى ارتبطت بمسيرة حياة محمد عليه الصلاة والسلام.

ويقوم هذا المنهج فى الأساس، وكما سبق ونوهنا على تحرى دقة ما قيل بشأن هذه الأماكن، من خلال مصادر موثقة تاريخياً وجغرافياً ودينيا حتى نرى ذلك بعد إتمامه بمثابة أطلس صورناه بالكلمات بدلا من الخرائط والرسوم، ويمكن الاستعانة به فى رسم صورة حقيقية لمسار حياة هذا النبى الكريم ﷺ ودور الأماكن التى ارتبط بها فى رسالته السماوية.. ثم كيف أثرت فيه وتأثر بها.

وتبدأ رحلتنا وفق هذا المنهج عبر السموات السبع، التى زارها النبى الكريم، ﷺ أثناء العروج به من رحلة الإسراء، والظروف والدوافع التى أحاطت بهذه والرحلة وبأسبابها، ثم ننتقل معاً بعد ذلك لنطير سوياً إلى القدس الشريف، وهى المدينة المقدسة التى كانت منتهى رحلة الإسراء كما نعلم، مروراً بكل من بيت لحم، ذلك البلد الذى ولد فيه المسيح عليه السلام، وطور سيناء حيث كلم الله موسى تكليماً، وفق ما جاء بحديث الرسول الكريم ﷺ فى شأن الإسراء والمعراج.

ونتوقف كثيرا، وربما أكثر من المرة الأولى أمام محطتنا المهمة حيث مكة المكرمة، والتى تعتبر وفق التسلسل الزمنى والتاريخى لحياة محمد عليه الصلاة والسلام.. أولى هذه المحطات حيث شهدت هذه القرية ودورها وطرقاتها ودروبها وأسواقها وشعابها وجبالها مسيرة الرسول الكريم ﷺ من يوم مولده حتى يوم هجرته ثم يوم عودته فاتحا إياها تنفيذاً لوعد الله فى قوله تعالى: ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ**﴾ [النصر الآية ١]، وقد أقام بها مدة أربعين عاماً وربما عدة أشهر أيضا؛ حيث خرج منها وعاد إليها بعد ثمانى سنوات من الهجرة.

وننتقل بعد ذلك لحديث طيب آخر عن الأماكن المشهورة فى كل من بلاد الشام والطائف، وأهم ما كان بها من أماكن ارتبطت كذلك بمسيرة حياة الرسول الكريم،

ﷺ وبدعوته إلى الإسلام وكيف تحولت معظم هذه الأماكن إلى مساجد يرفع فيها اسم الله، بعد ما كانت من قبل مركزاً للشرك.

ومن مدينة الطائف نطير إلى يثرب، تلك المدينة التى تغير اسمها بعد الإسلام إلى اسم «المدينة المنورة».. وفق اجماع المفسرين والرواة وهو الاسم الجديد، الذى اختاره الله لها على يد رسوله الكريم، صلى الله عليه وسلم.

ولا يتوقف بنا المسير عند هذا الحد وفقط.. بل نواصل الرحلة المباركة، حتى نقف على أطلال خيبر وتبوك، لنعرف ما كان بهما من أماكن مشهورة ارتبطت بالرسول الكريم ﷺ وبرسالة الإسلام.

إنها رحلة ندعو الله تعالى أن تكون طيبة لنا جميعا، بالقدر الذى نحمله فى صدورنا من آمال طيبة وأمنيات بالاستفادة القصوى مما سوف نتلوه عليكم.. وكذلك ما نحمله فى صدورنا من حب لهذا النبى العظيم، صلى الله عليه وسلم.

حنفى المحلاوى

فى منتصف شهر رمضان

تمهيد

السيرة النبوية وعصر التدوين

لسنا فى حاجة إلى التأكيد على ما سبق وأشرنا إليه من قبل فى مقدمة هذه الأوراق، وهو أن اللجوء إلى كتب السيرة النبوية لاستبيان ما بها من معلومات تخص الأماكن التى ارتبطت بحياة رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام، إنما سوف يكون فى حدود الحديث عن هذه الأماكن وبيان دورها الفعال فى مسيرة حياة الدعوة الإسلامية عامة وحياة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم خاصة.

ولقد اكتشفنا أنه على الرغم من أن كتب السيرة النبوية التى وضعها كل من ابن إسحاق وابن هشام رضى الله عنهما، كانت المصدر الرئيسى لتفاصيل حياة محمد عليه الصلاة والسلام، فإن هناك العشرات، بل والمئات من كتب التاريخ الإسلامى التى اقتربت كثيراً من موضوع هذه السيرة، مع إضافة أو حذف الكثير أو القليل منها وفق رؤية هذا المؤلف أو ذاك، ووفقا لأهداف الموضوع الذى تناوله بالكتابة، كما لاحظنا فى السياق نفسه أن هذين المؤرخين الكبيرين ابن إسحاق وابن هشام، قد كتبا أعمالهما عن سيرة النبى الكريم ﷺ بعد مرور أكثر من مائة عام من رحيل صاحب السيرة العطرة، وبالتحديد فى العصر العباسى الأول، وكان الخليفة الأموى العادل عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه.. قد أعطى إشارة البدء لمرحلة هامة من مراحل الثقافة الإسلامية، وهى التى شهدت بدايات التدوين لكل ما هو إسلامى.. بدءا بالحديث النبوى الشريف ومرورا بموضوعات السيرة النبوية، وغيرها من الموضوعات الفقهية والدينية التى تناولها المدونون والمؤلفون آنذاك.

وكان قد سبق هذه المرحلة.. نجاح الخليفة الثالث عثمان بن عفان.. الذى أمر بحفظ القرآن الكريم فى كتاب واحد.. ظل متداولا لفترة طويلة من قبل إدخال علامات الإعراب عليه على يد أبوالأسود الدؤلى، وهى علامات الإعراب التى توجد الآن فى كل المصاحف الشريفة التى بين أيدينا، الآن.

ويرى بعض المؤرخين أن مرحلة تدوين القرآن الكريم وجمعه فى مصحف واحد، قد سبقتها مرحلتان هامتان، الأولى تمت فى عهد الرسول الكريم ﷺ عندما أمر بعض أصحابه من الذين يتقنون الكتابة بتدوين ما كان ينزل عليه من الوحى أولاً بأول.. فى الوقت الذى كان فيه نفر آخر من هؤلاء الصحابة يحفظونه فى صدورهم.

وكان من بين الذين اختارهم رسول الله ﷺ لكتابة الوحى زيد بن ثابت وعلى بن أبى طالب وعثمان بن عفان وعبدالله بن مسعود وأنس ابن مالك وأُبىّ بن كعب ومعاوية بن أبى سفيان والزبير بن العوام وعبدالله بن الأرقم وعبدالله بن رواحة[1].

ثم جاء أوان المرحلة الثانية فى عهد الخليفة أبوبكر الصديق، الذى أمر بجمع القرآن فى صدور الصحابة رضوان الله عليهم بعد موقعة اليمامة التى دارت رحاها بين المسلمين والمرتدين فى السنة الثانية عشرة للهجرة.

وقد أرسل أبى بكر إلى زيد بن ثابت «كاتب النبى» وعهد إليه بإنجاز هذا العمل فكانت الصحف التى دون بها القرآن عند أبى بكر حتى توفاه الله... ثم عند عمر رضى الله عنه طوال حياته ثم عند حفصة بنت عمر، وتم جمع القرآن خلال هذه المرحلة فى سنة واحدة تقريباً هى كل المدة التى عاشها أبوبكر بعد موقعة اليمامة.

* * *

وبعد مرور أكثر من مائة عام بدأ التفكير فى جمع الأحاديث النبوية وتدوينها..

---

(١) دراسات فى القرآن والحديث... د. يوسف خليف.

وذلك بعد ما رأى عمر بن عبد العزيز الخليفة الثامن فى سلسلة خلفاء الدولة الأموية أن حفاظ الحديث يستشهدون فى حركة الفتوحات الإسلامية، وخاف من ذلك أن يضيع الحديث النبوى بضياع حفاظه.

كما أدرك أن نهى النبى ﷺ عن كتابة الحديث إنما كان مقصودا به الحرص على أن يظل نص القرآن سليما وغير مختلط بنص آخر، وقد رأى أن نصوص القرآن الكريم قد استقرت فى نفوس المسلمين، وأن المصحف الذى كُتب منذ أيام الخليفة عثمان بن عفان قد قضى على الخلافات بين المسلمين، إذًا فلم يعد هناك خوف عليه من اختلاطه بالحديث الشريف، فاستباح هذا الخليفة العادل ـ الذى يعتبره المؤرخون خامس الخلفاء الراشدين ـ لنفسه أن يقوم بأول محاولة لجمع الحديث وتدوينه، فأرسل إلى واليه على المدينة أبى بكر بن حزم، آمراً إياهه بأن يجمع الحديث ويكتبه.. وقيل إن ذلك قد حدث فى مستهل القرن الثانى الهجرى.. أو كما يقول القدماء «على رأس المائة الثانية».

وعلى الرغم من هذه المحاولة الجيدة التى كانت فتحاً حقيقياً فى عصر التدوين لكل ما هو مرتبط بالدعوة الإسلامية.. باعتبارها قد كسرت حاجز الحرج الذى كان عالقاً فى نفوس بعض العلماء.إلا أنه قد مرت فترة أخرى غير قصيرة بغد محاولة عمر بن عبدالعزيز هذه.. من دون ظهور محاولات أخرى لاستكمال ما بدأه هذا الخليفة العادل.. حتى أواخر الربع الأول من القرن الثانى الهجرى.. عندما قام محمد بن شهاب الزهرى المتوفى عام ١٢٤هـ بجمع الأحاديث النبوية وتدوينها.

ومنذ ذلك التاريخ زال كل الحرج عن علماء المسلمين، الذين ولوا وجوههم شطر الأحاديث النبوية لجمعها وشرحها، بعد تدوينها بل وتدوين كل ما يتعلق بحياة النبى الكريم ﷺ، وهو ما عُرف باسم «السيرة النبوية».

وكانت الأحاديث النبوية التى تم جمعها هى نفسها المصدر الثانى من مصادرهذه السيرة العطرة.. بعد القرآن الكريم، بالإضافة إلي السنة النبوية المطهرة

بما فيها من أقوال وأفعال وصفات وتقريرات، سجلت كل نشاطه عليه الصلاة والسلام فى جميع ميادين الإصلاح الفردى والجماعى، فكرياً وخلقياً وسياسيا واجتماعيا، دينياً ودنيوياً.

تم تتابعت حركة التدوين للسنة وما يتصل بالرسول الكريم ﷺ من أخبار مهما كان مصدرها، غير مقتصرة على فترة الرسالة، بل تناولت حياته من يوم ولادته، بل ومن قبل ولادته، ثم جاء دور التصنيف لجمع كل ما هو مأثور فى باب معين، ومنه المغازى والسير.. التى كانت تضم مع ذلك جوانب من حياته لا تتصل بها من طريق مباشر[١].

* * *

ويؤكد عديد من المؤرخين ومن أساتذة التاريخ الإسلامى، أن حركة تدوين السيرة النبوية قد نشطت بشكل غير مسبوق أيام الخليفة العباسى المأمون.. وذلك ضمن حركة تدوين واسعة لكل ما هو إسلامى.

وللدكتور محمد حسين هيكل تعليق مهم فى هذا السياق.. يتضح مما كتبه فى مقدمة كتابه «حياة محمد» حيث قال: «... إذ ذاك قام الجامعون بجمع الحديث وتولى كُتاب السيرة كتابتها، فقد عاش الواقدى وابن هشام والمدائنى وكتبوا كتبهم أيام المأمون، وما كان لهم ولا لغيرهم أن ينازعوا الخليفة فى آرائه مخافة ما يحل بهم.. لذلك لم يطبقوا بما يجب من الدقة، هذا المقياس الذى روى عن النبى عليه السلام من وجوب عرض ما يروى عنه على القرآن الكريم، فما وافق القرآن فمن الرسول وما خالفه فليس عنه»[٢]

وفى هذا التعليق إشارة واضحة لدخول الكثير من المرويات غير الدقيقة على سيرة هذا النبى الكريم ﷺ.. خاصة فيما يتعلق بما نُسب إلى الرسول ﷺ من معجزات وأفعال.. تتناقض مع ما جاء بالقرآن الكريم.

---

(١) من مقدمة كتاب مختصر سيرة بن هشام.. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

(٢) حياة محمد.. الدكتور محمد حسين هيكل - طبعة جديدة

و الدكتور هيكل يخصص جزءاً غير كبير من هذه المقدمة لمناقشة هذه المُدخلات وهذه الأفعال التى لم يأت ذكرها فى القرآن الكريم، وتخص النبى الكريم ﷺ وسيرته مؤكدا أن النقد العلمى على الطريقة الحديثة لا يختلف عن هذا القياس الذى أشار إليه الرسول الكريم.

وهذا ما نود أن نطبقه نحن أيضا على كل ما سوف نشير إليه هنا عن الأماكن المشهورة فى حياة النبى الكريم عليه الصلاة والسلام.. وإن كنا سوف نلاقى فى ذلك صعوبات بالغة ولكنها المحاولة.. وعلينا بالدعاء لله أن يوفقنا إلى حيث نريد.

ومن المؤرخين فى عصرنا الحديث الذين تناولوا عصر التدوين وصولاً إلى بدايات كتابة السيرة النبوية.. الأستاذ الدكتور أحمد شلبى أستاذ التاريخ الإسلامى.. الذى أكد فيما أشار إليه فى هذا السياق: أن العصر العباسى الأول، وكان أنسب العصور ملاءمة لقيام نهضة ثقافية إسلامية، بدأت تستقر بعد هدوء حركة التوسع والفتوح التى كانت طابع العصر الأموى.

ومن بين ملامح هذه النهضة ازدهار عصر التدوين فى ثلاثة مجالات ثقافية، جاء على رأسها حركها التصنيف وتنظيم العلوم الإسلامية، وقد مرت مرحلة التصنيف المشار إليها بثلاث مراحل.. بدأت بما أطلقنا عليه نقلاً عن الآخرين «عصر التدوين» الذى اشتمل فقط على تدوين الفكرة أو الحديث النبوى أو نحو ذلك فى صحيفة مستقلة أو مع بعضها البعض، ثم جاءت المرحلة الثانية التى شهدت بدايات العصر العباسى، والتى قامت على فكرة تدوين الأفكار المشابهة أو أحاديث الرسول فى ديوان واحد.

أما المرحلة الثالثة والتى ازدهرت فى عصر الخليفة العباسى السابع عبد الله أبوالعباس الملقب «بالمأمون».. فقد قامت فى الأساس على التصنيف وهو أدق من التدوين.. وهى المرحلة التى ظهرت فيها كتب السيرة النبوية الشريفة، التى نشأت فى أحضان علم التفسير الذى يعد أباً لعلم السيرة[1].

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامى.. د. أحمد شلبى. ج ٣- الخلافة العباسية.

ويعتبر المؤرخ الإسلامى العظيم «محمد بن إسحاق بن يسار بن جبار» المولود فى عام ٨٥هـ، هو رائد كتابة السيرة النبوية.. حيث أخرج أعظم الكتب التى عنيت بسيرة أعظم العظماء فى الدنيا ﷺ وهو كتاب «سيرة ابن اسحاق»، ثم جاء من بعده ابن هشام الذى كتب وفق منهجه كتاباً جديداً عن سيرة النبى الكريم، صلى الله عليه وسلم، أسماه سيرة بن هشام.. وهو المؤرخ العربى المعروف باسم «محمد بن عبد الملك ابن هشام المعافرى».. الذى توفى فى مصر عام ٢١٣ هـ.

* * *

ولقد قام منهج كتابة السيرة النبوية وفق اجماع المؤرخين على سرد نسب النبى ﷺ، وقد تطلب ذلك إشارة إلى أنساب بعض أخبار العرب وأفاضلهم، وذكر أخبارهم فى الجاهلية وعاداتهم وتقاليدهم وعباداتهم، وذكر الأحداث المهمة التى وقعت بينهم كإعادة حفر بئر زمزم على يد عبد المطلب بن هشام، ومولد الرسول الكريم، صلى الله عليه وسلم،ونشأته ومبعثه ومن استجاب لدعوته وآمن برسالته، وما لقيه فى سبيل نشر الدعوة من أذى وتعنت وما قاساه من نصب وإرهاق وماعاناه المؤمنون من إيذاء الكفار لهم، وبعد ذلك توالت أخبار هذا النبى الكريم من خلال سرد قصة حياته وسيرته العطرة، مثل أخبار أزواج النبى،صلى الله عليه وسلم، ثم مرضه ،صلى الله عليه وسلم، وتمريضه فى بيت عائشة رضى الله عنهما، وانتقاله إلى الرفيق الأعلى، واتفاق المسلمين على اختيار الصديق خليفة لرسول الله، وما كان من أمر تجهيز رسول الله ﷺ ودفنه ورثاء حسان بن ثابت له[1].

كما عُنى بكتابة السيرة كثير من الرواة ومن المؤرخين والعلماء، وقد بلغ عددهم فى فترة اذدهار عصر التدوين والتصنيف والكتابة.. حوالى أكثر من عشرة من كُتاب السير المشهورين.. بدءًا من عروة بن الزبير بن العوام المتوفى سنة ٩٣هـ.. وانتهاء بالمؤرخ الكبير محمد بن سعد صاحب «الطبقات» المتوفى عام ٢٣٠هـ.

(١) مقدمة فى علم السيرة.. من كتاب السيرة النبوية لابن إسحاق.. ج (١).

ومروراً بكل من محمد بن إسحاق بن يسار المتوفى عام ١٥١هـ. والواقدى صاحب كتاب المغازى المتوفى عام ٢٠٧هـ. . ثم أبو محمد عبدالملك بن هشام. . الشهير بابن هشام صاحب كتاب السيرة النبوية والمتوفى عام ٢١٣هـ. أضف إلى ذلك وجود فريق آخر من شُراح السيرة من العلماء والمؤرخين، الذين جاءوا بعد هذا الجيل. . وكان على رأسهم السهيلى الذى قام بشرح سيرة بن هشام فى كتابه «الروض الأنف».

* * *

ومما لاحظناه ونحن نقرأ بعناية كل ما كُتب عن النبى الكريم عليه الصلاة والسلام، فيما سمى بعد ذلك بكتب السيرة النبوية أن الاحتفال بالأماكن التى ارتبطت بحياة هذا النبى ﷺ العظيم. . لم يحظ بالاهتمام الواجب، رغم أنها لعبت دوراً كبيراً فى حياته عليه الصلاة والسلام، وحياة ومسيرة الدعوة الإسلامية، وهو ما سوف نوضحه من خلال هذه الأوراق. . إلا فى النادر القليل. . خاصة ما يمس مسيرة الدعوة الإسلامية داخل كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة، رغم أننا عثرنا داخل كتب الحديث الشريف، المنوط بها بيان السنة النبوية الشريفة، أحاديث نبوية كثيرة عظمت من شأن هذه الأماكن. . بل وبينت كذلك أهميتها.

١- فى السموات السبع

كان من الواجب وفق التسلسل الزمنى لمراحل حياة الرسول الكريم ﷺ أن نبدأ رحلتنا عبر هذه الأماكن المشهورة فى حياته عليه السلام، بالحديث عن مكة المكرمة، تلك القرية المعظمة التى شهدت ميلاده، وطفولته وشبابه وفتوته وشهدت أيضا مبعثه. . لكننا وتعظيماً وتقديراً لدور السموات وخالقها رب العالمين. . فقد فضلنا أن تكون وجهتنا كبداية لهذه الحديث من السموات العلا. . التى زارها الرسول الكريم ﷺ فى رحلته عبر الإسراء والمعراج. أو بالأحرى فى رحلة المعراج بالذات، ثم نعقب ذلك بحديث آخر سوف يلحق به ويرتبط ارتباط الأعضاء، وهو حديث ذو شجون عن مدينة القدس الشريف. . تلك البقعة المطهرة من الأرض التى بارك الله حولها. . وشهدت مسراه عليه السلام، مروراً بالحديث عن كل من طور سيناء وبيت لحم. . وهما المكانين اللذين زارهما الرسول الكريم ﷺ تقديراً لميلاد المسيح ونبوءة موسى عليهما السلام.

ولسوف تلاحظون اعتدال ميزان الكتابة. . من بعد بيان الأماكن المشهورة فى هذه البلاد التى زارها الرسول الكريم ﷺ وذلك وفق ما نبغيه من تحقيق ذلك التسلسل التاريخى الطبيعى للأحداث التى شهدها الإسلام، وشهدت كذلك حياة نبينا الكريم منذ مولده عليه السلام حتى يوم وفاته، ثم الأماكن المشهورة التى شهدت بقية مسيرة هذه الحياة الشريفة، سواء من قبل انطلاق الدعوة الإسلامية أو من بعدها.

* * *

ونحن نقر من البداية، وقبل السفر سويا إلى هذه الأماكن المباركة لمعرفة

الكثير عن ملامحها وما قدمته من أدوار مهمة فى حياة الدعوة الإسلامية، أننا من المؤيدين لذلك الفريق من علماء المسلمين ومؤرخيهم، من الذين ذهبوا إلى أن رحلة الإسراء والمعراج قد حدثت بالفعل بالروح والجسد معاً، حيث لاحظنا وجود خلاف كبير بين هؤلاء العلماء خاصة مع بداية القرن الثانى الهجرى وحتى اليوم، حول هذه المسألة، إلى جانب فريق كبير من الفقهاء وكتاب السيرة النبوية، وقد انقسم هؤلاء جميعا إلى فرق ثلاثة.. الأولى يرى أصحابها أن رحلة الإسراء والمعراج حدثت بالروح فقط!، والثانية: يرى أصحابها أنها حدثت بالجسد فقط!، أما الثالثة: صاحبة الرأى الأرجح فيقول أصحابها أنها قد حدثت بالروح والجسد معاً، والدكتور محمد حسين هيكل الذى يؤيد الفرقة الأولى، يقول عن رأيه فى هذه المسألة: إن كل فريق من هذه الفرق الثلاثة يحمل بداخل عقله وصدره الكثير من الأدلة، سواء من القرآن الكريم أو السنة النبوية.

وشيء آخر مهم نود أن نشير إليه، ويتعلق بالموضوع ذاته، وهو أن هذا الخلاف يعتبر فى تصورنا من أهم وأعظم سمات هذا الدين الحنيف، الذى يتسع صدره لاستيعاب كل الخلافات دون توجيه الاتهامات الباطلة ضد هذا الفريق أو ذاك!.

* * *

وحين نعود للحديث عن الأماكن المشهورة والخاصة بالأماكن العلوية المباركة التى زارها رسولنا الكريم ﷺ فى رحلة المعراج، والتى لم تستغرق سوى عدة ساعات، كان لابد لنا من أن نعيش ولو للحظات مع تحديد بسيط لمكان تواجد هذه السموات.. فقد كان الظن السائد أيام الجاهلية أن المقصود بالسموات المعنية والمذكورة فى القرآن الكريم هى السماء الدنيا والتى تطل من فوقنا، والتى بها كل وسائل الإعجاز من كواكب ونجوم وشمس وقمر!.

ولقد جاء العلم الحديث ليبين لنا صدق ما جاء بالقرآن الكريم من أن هذا الكون عالم قائم بذاته، وكل مكان فيه له خصوصية وملامح خلقها رب العالمين لحكمة يراها من دون غيره من عباده.

بل وأن الأرض التى نعيش فوقها والتى تحيط بها بعض أجزاء من السماء.. ما

هى إلا جزء بسيط جداً من هذا الكون العظيم.. وقد ربطنا الله تعالى بما فوقنا فى السماء الدنيا وبما فيها من أدوات لعبت دوراً كبيراً، ولاتزال فى حياتنا الدنيوية.. وهى التى أطلق عليها العلماء «المجموعة الشمسية» التى تقع فيها هذه الأرض، وقد سُميت كذلك لأن الشمس هى محور آداء وحركة هذه المجموعة، والعامل الأساسى للحياة فوق هذه الأرض.

ونحن نقول هنا.. كما قال العلماء من قبل أن السماء الدنيا، لم يُكتشف منها سوى هذه المجموعة وبعض الكواكب الأخرى التى تبعد أو تقترب من الشمس، فما بالنا ببقية ما فى هذه السماء الدنيا.. بل وما فى بقية السموات السبع التى زارها النبى الكريم عليه الصلاة والسلام؟!.

ولسوف نلاحظ حين نستعرض ما جاء على لسان الرسول العظيم عليه الصلاة والسلام فيما يخص هذه الرحلة.. وصفه الجميل لما فى السماء الدنيا من مصابيح وحفظة، وقد رآها وهو فى طريقه إلى القدس الشريف فى رحلة الإسراء وليس فى رحلة المعراج.. وهذا يعنى.. أن السماء الدنيا التى فوقنا وفى جزء منها.. إنما هى فقط التى تحوى هذه النجوم وهذه الكواكب التى نرى بعضها بالعين المجردة فى ظلام الليل، والتى كانت أيضاً خير معين وسند للعرب من أهالى الصحراء.. الذين كانوا يتخذونها نبراساً يمشون فى ضوئه وعلى هداه فى الليل شديد الظلمة!!.

ولدينا دليل آخر على أن ما فوقنا من سماء.. إنما هى بالفعل جزء يسير من السماء الدنيا، والتى هى بالتالى جزء من بنيان السموات السبع العظيمة.. وهو ما حكاه رسولنا الكريم، صلى الله عليه وسلم، من أنه قابل فى هذه السماء الدنيا أبو البشرية آدم عليه السلام.. بل وشاهد فيها بعض مشاهد خاصة مما سوف تقع للبشر بعد قيام الساعة..

وبناء على ذلك فسوف يظل ما رواه النبى ﷺ عن معالم هذه السموات.. هو المعتمد والأصل.. سواء فى مجال العلوم أو فى التاريخ.. إلى

حين يكتشف الإنسان، ملامح هذه السموات.. إن استطاع.

ولقد نبهنا الله تعالى فى كتابه العزيز إلى ذلك بقوله عز وجل فى سورة الرحمن: ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم.. **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ** ﴾ [الرحمن الآية٣٣].

وقد أجمع علماء التفسير على أن كلمة سلطان المقصود بها هنا،.. هو سلطان العلم.. وفى قوله تعالى فى سورة الانشقاق: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم.. **فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (١٦) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (١٧) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (١٨) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ (١٩) فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾ [الانشقاق الآيات ١٦-١٧-١٨-١٩-٢٠].

والمقصود بالطبق هنا الكواكب الأخرى التى من حولنا، سواء ما كان منها فى السماء الدنيا أو فى غيرها من السموات العلا وفق ما يكتشفه العلماء سواء فى السنوات القادمة القريبة أو البعيدة.

ولنا أن نتصور.. الجو العام الذى كان موجوداً أو قائماً.. وقت أن خرج النبى ﷺ.. على قومه.. بعدما أسرى به ثم عرج به إلى السماء. وفى ظل هذا الجهل المتفشى، وفى ظل ذلك الجحود الأسود لكل ما كان يأتى به رسول الله، صلى الله عليه وسلم، مبلغاً عن رب العزة.

ولقد تعمد عليه الصلاة والسلام وفى جرأة عظيمة ـ جرأة قول الحق ـ من دون أن يخاف فى ذلك لومة لائم، أن يحكى لقومه تفاصيل هذه الرحلة رافضاً الأخذ برأى ابنة عمه «أم هانئ» التى خشيت عليه من تكذيب قومه وازدياد إيذائهم له حين يبلغهم بما رآه فى هذه الرحلة، ولقد قوى شوكته وموقفه على ذلك الحق صاحبه أبى بكر الصديق.. الذى أعلن أمام الملأ من قومه.. «إن كان ذلك ما قاله محمد، فقد صدق» وأضاف: «أنصدقه فى خبر السماء ونكذبه فى هذا».

فى حين كان رد فعل الكثير ممن أسلموا إسلاماً ضعيفاً.. مغايراً لذلك بالمرة، إذ تراجعوا عن إسلامهم، وقد كشف الله بهذه الحجة زيف إسلام هؤلاء..

وبالتالى وعرف النبى الكريم ﷺ مدى ضعفهم، ومن ثم عدم الوثوق فيما كانوا يبدونه فى كلماتهم أو فى أفعالهم، خاصة وأن الدعوة الإسلامية كانت فى بدايتها.. كما كانت فى حاجة إلى مواقف رجال ثابتين على الحق.. يمكن الاعتماد عليهم فى نشر دين الله، والتاريخ الإسلامى قد أماط اللثام عن العشرات من هؤلاء المسلمين الأقوياء، الذين زادهم هذا الموقف صلابة على صلابتهم.

* * *

وكما نعرف جميعا.. فقد امتلأت كتب السيرة النبوية بروايات مختلفة عن هذه الزيارة المباركة التى استضاف فيها رب العالمين نبيه وعبده الأمين عليه الصلاة والسلام، وكانت فى الوقت نفسه زيارة عمل بقدر ما كانت زيارة ترويح وترفيه.. نظراً لما كان يمر به الرسول الكريم ﷺ من مشاكل ومصاعب فى أثناء دعوته إلى دين الله، خاصة مع قومه، والتى كان من أقساها على قلبه عليه الصلاة والسلام.. موت عمه أبوطالب قلعته المنيعة ضد بطش قريش، وكذلك موت زوجته السيدة خديجة رضى الله عنها، سنده الأمين داخل منزله وأم أولاده.

ووفق الإجماع فقد سُمى هذا الحدث فى حياة النبى بعام الحُزن.. وقد أراد الله تعالى أن يُذهب عن حبيبه ومصطفاه هذ الحزن وهذا الكرب، مؤكداً على أنه لن يكون وحده أبداً، سواء توفى عمه وزوجته أو لم يتوفاهم الله، وكذلك كانت زيارة النبى الكريم ﷺ إلى السموات العلا.. زيارة عمل كما قلنا من قبل.. إذ أمره رب العالمين بفرض الصلاة عليه وعلى قومه.. وهى الصلاة التى نؤديها جميعا منذ الإعلان عن تفاصيلها خلال هذه الرحلة.. وإلى قيام الساعة إن شاء الله.

ومما لاحظناه ونحن نقرأ كل ما كُتب عن هذه الرحلة المباركة سواء فى المصادر القديمة أو الحديثة.. أن المصدر الوحيد لكل ما قيل من روايات كان هو النبى الكريم عليه الصلاة والسلام، وقد نقلها عنه الكثير من الرواة الثقاة من الذين سمعوا بها، وظلوا ينقلونها إلى أجيالهم الأولى والثانية.. حتى قيد الله جيلاً ثالثاً

قام بتدوينها فى كتب، شملت سواء أحاديث النبى الكريم، صلى الله عليه وسلم، أو شملت كل ما يتعلق بحياته وسيرته الشريفة عليه الصلاة والسلام.

ليس هذا فقط.. بل ووجدنا أيضاً أحاديث نبوية شريفة، أكدها جامعو الأحاديث وأقروا بصحتها وبقوتها، وهى تتناول قوله الشريف عن تلك الرحلة المباركة وعن مشاهداته داخل هذه السموات السبع، بل وعند سدرة المنتهى التى رأى عندها آيات ربه الكبرى.

* * *

ولقد وجدت فى نفسى دافعاً قوياً لأن أبدأ حديث الأماكن المشهورة فى حياة الرسول الكريم ﷺ فيما يخص زيارته للسموات السبع على سبيل الإجمال.. مما رواه المستشرق الفرنسى «إميل درمنجهم».. فى كتابه عن «حياة محمد» Iavia de Mahomed.. وقد ترجم هذه الرواية الدكتور محمد حسنين هيكل حيث قال: «.. فى منتصف ليلة بلغ السكون فيها غاية جلاله، وصمتت فيه طيور الليل وسكتت الضوارى، وانقطع خرير الغدران وصفير الرياح، استيقظ محمد على صوت يصيح به: أيها النائم قم.. فقام فإذا أمامه الملك جبريل وضاء الجبين أبيض الوجه كبياض الثلج مرسلاً شعره الأشقر، واقفا فى ثيابه المزركشة بالدر والذهب، ومن حوله أجنحة من كل الألوان ترعش.

وفى يده دابة عجيبة هى البراق، ولها أجنحة كأجنحة النسر انحنت أمام الرسول ﷺ فاعتلاها وانطلقت به انطلاق السهم فوق جبال مكة ورمال الصحراء متجهة صوب الشمال، وصحبه الملك فى هذه الرحلة، ثم وقف به عند جبل سيناء حيث كلم الله موسى، ثم وقف به مرة أخرى فى بيت لحم حيث ولد عيسى.

وانطلق بعد ذلك فى الهواء، فى حين حاولت أصوات خفية أن تستوقف النبى ﷺ الذى رأى فى إخلاصه لرسالته أن ليس لغير الله أن يستوقفه حيث شاء لدابته، وبلغ بيت المقدس، فقيد محمد دابته وصلى على أطلال هيكل سليمان

ومعه إبراهيم وموسى وعيسى، ثم أُتى بالمعراج فارتكز على صخرة يعقوب وعليها صعد محمد ﷺ سراعاً إلى السموات.

وكانت السماء الأولى من فضة خالصة عُلقت إليها النجوم بسلاسل من ذهب وقد قام على كل منها ملك يحرسها حتى لا تعرج الشياطين إلى علو عليها أو يستمع الجن منها إلى أسرار السماء.

فى هذه السماء ألقى محمد ﷺ التحية على آدم وفيها كانت صور الخلق جميعا تُسبح بحمد ربها.

ولقى محمد عليه السلام فى السموات الست الأخرى نوحاً وهارون وموسى وإبراهيم وداود وسليمان وإدريس ويحيى وعيسى، رأى فيها ملك الموت عزرائيل الذى بلغ من ضخامته أن كان ما بين عينيه مسيرة سبعين ألف يوم.. ومن سلطانه أن كان تحت إمرته مائة ألف فرقة، وكان يسجل فى كتاب ضخم أسماء من يولدون ومن يموتون، ورأى ملك الدمع يبكى من خطايا الناس، وملك النقمة ذا الوجه النحاسى المتصرف فى عنصر النار والجالس على عرش من لهب.

وقد رأى، صلى الله عليه وسلم، كذلك ملكاً ضخماً نصفه من نار ونصفه من ثلج وحوله من الملائكة فرقة لا تفتر عن ذكر الله، وكان فى السماء السابعة مقر أهل العدل وهو ملك أكبر من الأرض كلها.. وله سبعون ألف رأس، فى كل رأس سبعون ألف فم، وكلها تسبح بحمد الله وتقدسه.

وبينما هو يتأمل الخلق إذا به ارتفع إلى قمة سدرة المنتهى، تقوم إلى يمين عشر الرحمن وتُظل ملايين الملايين من الأرواح الملائكية. وبعد أن تخطى فى أقل من لمح البصر بحاراً شاسعة ومناطق ضياء يُغشى، وظلمة قاتمة، وملايين الحجبُ من ظلمات ونار وماء وهواء وفضاء، يفصل بين كل واحد منها وما بعده مسيرة خمسمائة عام.. تخطى حجُب الجمال والكمال والسر والجلال والوحدة، قامت وراءها سبعون ألف فرقة من الملائكة سُجداً لا يتحركون ولا يؤذن لهم فينطقون.

ثم أحس بنفسه يرتفع إلى حيث المولى عز وجل، ثم كان فى حضرة العرش

وكان منه قاب قوسين أو أدنى يشهد الله بعين بصيرته، ويرى أشياء يعجز اللسان عن التعبير عنها وهى تفوق كل ما يحيط به فهم الإنسان.

وفى هذه الرحلة.. وبالقرب من سدرة المنتهى فرضت الصلاة.. التى كانت خمسين صلاة فى كل يوم.. ثم نقصت إلى خمس صلوات، وذهب جبريل بالنبى ﷺ فزار الجنة التى أُعدت للمتقين بعد المبعث، ثم عاد محمد على المعراج إلى الأرض، ففك البراق وامتطاه وعاد به من بيت المقدس إلى مكة على الدابة المجنحة».

* * *

وإذا ما لجأنا لقول المزيد من التفاصيل عن رحلة النبى الكريم ﷺ إلى السموات السبع.. بعد هذا الاجمال، كان لابد لنا من أن نطير إلى آفاق هذه السموات من واقع ما سجله الرسول ﷺ فى عديد من الأحاديث النبوية الشريفة.. وما سجله ونقله عنه عديد من أصحابه ومن السلف الصالح، ومن الذين سجلوا هذه الأحاديث فى كتب الآن نقرؤها.

ولقد وجدنا هذه التفاصيل مروية فى حديث طويل لابن عباس رضى الله عنه عن الرسول ﷺ.. هذا الحديث نشر فى أكثر من مصدر وجاء فى بدايته:

عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال كنت فى بيت أم هانئ بنت أبى طالب رضى الله عنها واسمها فاختة ليلة الاثنين ليلة السابع والعشرين من رجب سنة ثمانى من البعثة.. وكان عندها فاطمة الزهراء رضى الله عنها وعمرها تسع سنين، ولم تكن قد تزوجت من على رضى الله عنه لأنه تزوجها بالمدينة المنورة، وإذا بالباب قد طرقه طارق فخرجت فاطمة لترى من بالباب فرأت شخصاً عليه الحلى والحلل وله جناحان أخضران قد سد بهما المشرق والمغرب، وعلى رأسه تاج مرصع بالدر والجواهر مكتوب على جبهته «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، فقالت فاطمة ما تريد: قال أريد محمداً ﷺ، فرجعت ودخلت على رسول الله، وقالت: يا أبت بالباب شخص قد هالنى وأفزعنى ما رأيت مثله أصلاً قال

لى: أريد محمداً قال: فخرج النبى ﷺ فلما رآه فإذا به جبريل عليه السلام...[1].

* * *

ويحكى لنا ابن عباس من خلال سرده الأمين لبقية ما جاء فى هذا الحديث الشريف تفاصيل رحلة الإسراء إلى بيت المقدس، وما شاهده الرسول الكريم ﷺ فى هذه الرحلة الأرضية.. ثم تفاصيل رحلة المعراج خلال السموات السبع حيث أخذ يفصل لنا ما رآه عليه الصلاة والسلام فى كل سماء على حدة.

وبما أننا قد اعتبرنا زيارة الرسول الكريم ﷺ لهذه السموات السبع من بين أهم وأشهر الأماكن التى ارتبطت بحياته عليه السلام وبمسيرة دعوته الإسلامية، فقد آثرنا أن نشير إلى تفاصيل ما رآه رسول الله ﷺ.. فى كل سماء وفق ما جاء بالحديث الشريف السالف ذكره.

•• فى السماء الأولى:

يقول بن عباس رضى الله عنه فى تكملته لهذا الحديث:

«ثم صعد بى إلى السماء الدنيا فى أسرع وقت وأسرع من طرفة عين وبينها وبين الأرض خمسمائة عام وسمكها مثل ذلك فطرق الباب فقالوا من هذا فقال: جبريل، قالوا: ومن معك، قال: محمد ﷺ قالوا: أو أرسل إليه؟ قال: نعم، قالوا: مرحبا بك وبمن معك فنعم المجئ مجيئكما، ففتحوا لنا الباب ودخلناها، فإذا هى سماء من دخان يقال لها **الرفيعة**، وليس فيها موضع قدم إلا وعليه ملك راكع أو ساجد، ونظرت فإذا فيها نهران عظيمان، فقلت: ما هذان النهران يا جبريل قال: هذا النيل وهذا الفرات عنصرهما، أى أصلهما من الجنة.. وإذا بنهر آخر وعليه قصر من لؤلؤ وزبرجد فضربت يدى فيه فإذا هو مسك أذفر فقلت: ما هذا النهر فقال: هذا الكوثر الذى خبأه الله لك، فنظرت فإذا بملك عظيم الخُلقة وهو راكب على فرس من نور وعليه حُلة من نور، وهو موكل بسبعين ألف ملك،

(١) الإسراء والمعراج للإمام بن عباس.. فى كتاب صدر عن نهضة مصر.

مسومين بأنواع الحُلى والحلل بيد كل واحد منهم حربة من نور وهم جند الله، فإذا عصى فى الأرض أحد ينادون إن الله تعالى قد غضب على فلان ابن فلان فيغضبون عليه.. وإذا استغفر العبد وأناب ينادون: إن الله قد رضى عن فلان ابن فلان فيّرضون عنه».

قلت: يا أخى يا جبريل من هذا الملك العظيم؟ فقال: هذا اسماعيل خازن السماء الدنيا، إدن منه وسلم عليه، فدنوت منه وسلمت عليه فرد علىّ السلام وهنأنى بالكرامة من ربى عز وجل، وقال: أبشر يا محمد فالخير فيك وفى أمتك إلى يوم القيامة، فقلت لربى الحمد والشكر.

ثم تقدمت أمامه وإذا أنا بملك نصفه من ثلج ونصفه من نار.. فلا النار تذيب الثلج ولا الثلج يطفئ النار.. له ألف رأس، فى كل رأس ألف وجه، فى كل وجه ألف فم، وفى كل فم ألف لسان يسبح الله تعالى بألف لغة لايشبه بعضها بعضا. ومن جملة تسبيحه أنه يقول «سبحان من ألف بين الثلج والنار، يا من ألفت بين الثلج والنار ألف بين قلوب عبادك المؤمنين». والملائكة تقول: «آمين». فقلت من هذا يا أخى يا جبريل؟ فقال: هذا الملك الموكل بأكناف السموات وهو أنصح الملائكة لبنى آدم، ثم اصطفت الملائكة صفوفا فقدمنى جبريل فصليت لله ركعتين على ملة ابراهيم الخليل، ثم صعدنا إلى السماء الثانية فى أسرع من طرفة عين.

•• فى السماء الثانية:

طرق جبريل بابها، فقالوا: من هذا؟ قال: جبريل.. قالوا: من معك قال: محمد، فقالوا: أو أرسل إليه.. قال: نعم، قالوا: مرحبا بك وبمن معك، ففتحوا لنا الباب ودخلنا، فإذا هى سماء من حديد لا وصل فيها ولا فصل يقال لها **الماعون**، ورأيت فيها من الملائكة ركبانا على خيل مسومة متقلدين بالسيوف وبأيديهم الحراب فقلت: من هؤلاء يا جبريل، فقال: هؤلاء

جنـد مـن المـلائكـة خـلـقـهـم الـلـه تـعـالى لـنـصـرة الإسلام إلى يوم القيامة.

ورأيت فيها شابين متشابهين فقال: من هذين يا جبريل؟ قال: أحدهما يحيى بن زكريا والآخر عيسى بن مريم عليهما السلام، إدن منهما وسلم عليهما، فدنوت منهما وسلمت عليهما فردا عليّ السلام.

أما عيسى فإنه وسط الشعر، جميل الوجه، أبيض اللون، مُشرب بحُمرة. وأما يحيى فرأيت على وجهه أثر الخشوع، فسلمت عليه، فرد عليّ السلام وهنأنى بالكرامة من ربى. وقال: أبشر يا محمد فإن الخير فيك وفى أمتك إلى يوم القيامة، فقلت لربى الحمد والشكر.

ثم قدمنى جبريل عليه السلام، وصليت بهما ركعتين على ملة إبراهيم الخليل عليه السلام، ثم صعدنا إلى السماء الثالثة فى أسرع من طرفة عين وبينها وبين السماء الثانية خمسمائة عام وسمكها مثل ذلك.

•• فى السماء الثالثة:

طرق جبريل بابها فقالوا: من هذا؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك قال: محمد، قالوا: مرحبا بك وبمن معك.. ففتحوا الباب، فدخلناها، فـإذا هـى سماء من نحاس يقال لها المزينة ورأيت فيها ملائكة معهم ألوية خضر، فقلـت مـن هؤلاء يا جبريل؟ فقال: هؤلاء ملائكة ليلة القدر، وشهر رمضـان، يـطـلـبـون مجلس الذكر ومجالس الشهداء، والجماعات، ويسلمون عـلـى أهـل صلاة الليل، ورأيت فيهم شيخًا وشابًا فقلت: من هذا يا جبريل، فقال: داود وسليمان عليهما السلام، إدن منهما وسلم عليهما، فدنوت منهما وسلمت عليهما، فردا عليّ السلام وهنآني بالكرامة من ربى، وقالا لى: أبشر يا محمد فالخير فيك وفى أمتك إلى يوم القيامة.

ونظرت فإذا بينهما غلام جالس على كرسى من نور، وقد أشرق النور من

وجهه وصورته كالقمر ليلة البدر فقلت: من هذا الشاب يا أخى يا جبريل؟ قال: هذا يوسف ابن يعقوب فضله الله بالحسن والجمال، كما فضل القمر على جميع الكواكب، فدنوت منه وسلمت عليه، فرد علىّ السلام وهنأنى بالكرامة من ربى عز وجل وقال لى: مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح، واصطفت الملائكة صفوفاً وقدمنى جبريل فصليت بهم ركعتين على ملة إبراهيم الخليل عليه السلام، ثم صعدنا إلى السماء الرابعة فى أسرع من طرفة عين وبينها وبين السماء الثالثة خمسمائة عام وسمكها مثل ذلك.

•• فى السماء الرابعة:

طرق جبريل بابها فقالوا من هذا؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ، قالوا: مرحبا بك وبمن معك، ففتحوا لنا الباب فدخلناها فإذا هى سماء من فضة بيضاء يقال لها **الزاهرة**، رأيت فيها من عجائب ربى عز وجل «أصنافاً» من الملائكة.. رأيت رجلاً على وجهه نور ساطع وله قلب خاشع، فقلت: من هذا يا أخى يا جبريل؟ قال: هذا أخوك إدريس رفعه الله علياً.. إدن منه وسلم عليه.. فدنوت منه وسلمت عليه، فرد علىّ السلام واستغفر الله لى ولأمتى.

ثم رأيت ملكاً عظيم الخِلقَة والمنظر، قد بلغت قدماه تخوم الأرض السابعة ورأسه تحت العرش، وهو جالس على كرسى من نور والملائكة بين يديه وعن يمينه وعن شماله، ينتظرون أمر الله تعالى عز وجل، وعن يمينه لوح، وعن شماله شجرة عظيمة، إلا أنه لم يضحك أبدًا، فقلت: يا أخى يا جبريل من هذا؟! قال جبريل: هذا هادم اللذات ومفرق الجماعات ومخرب البيوت والدور ومعمر القبور، وميتم الأطفال ومرمل النساء ومفجع الأحباب ومغلق الأبواب ومسود الأعتاب وخاطف الشباب، هذا ملك الموت عزرائيل.. فهو ومالك خازن النار لايضحكان أبداً.. إدن منه وسلم عليه، فدنوت منه وسلمت عليه، فلم يرد علىّ

السلام، فقال له: لِمَ لَم ترد السلام على سيد الخلق وحبيب الحق، فلما سمع كلام جبريل وثب قائمًا ورد السلام وهنأنى بالكرامة من ربى وقال: أبشر يا محمد فإن الخير فيك وفى أمتك إلى يوم القيامة.

فقلت: يا أخى يا عزرائيل هذا مقامك؟ قال: نعم منذ خلقنى ربى إلى قيام الساعة، فقلت كيف تقبض الأرواح وأنت فى مكانك هذا؟! قال: إن الله أمكننى من ذلك وسخر لى من الملائكة خمسة آلاف أفرقهم فى الأرض، فإذا بلغ العبد أجله واستوفى رزقه، وانقضت مدة حياته، أرسلت إليه أربعين ملكًا يعالجون روحه فينزعونها من العروق والعصب واللحم والدم، ويقبضونها من رؤوس أظافره حتى تصل إلى الركب، ثم يريحون الميت ساعة، ثم يجذبونها إلى السُرة، ثم يريحونه ساعة، ثم يجذبونها إلى الحلقوم فتقع فى الغرغرة فأتناولها وأسلها كما تسل الشعرة من العجين.. فإذا انفصلت من الجسد جمدت العينان وشخصتا لأنهما يتبعان الروح فأقبضها بإحدى حربتى هاتين، وإذا بيده حربة من نور وحربة سخط، فالروح الطيبة يقبضها بحربة النور ويرسلها إلى عليين، والروح الخبيثة يقبضها بحربة السُخط ويرسلها إلى سجين، وهى صخرة سوداء مدلهمة تحت الأرض السابعة السفلى، فيها أرواح الكفار والفجار.

قلت: وكيف تعرف حَضر أجل العبد أم لم يحضر، قال: يا محمد ما من عبد إلا وله فى السماء بابان.. باب ينزل منه رزقه، وباب يصعد إليه عمله، وهذه الشجرة التى عن يسارى ما عليها ورقة إلا عليها اسم واحد من بنى آدم ذكورًا وإناثًا، فإن قرُب أجل الشخص، اصفرت الورقة التى كُتبت عليها اسمه، وتسقط على الباب الذى ينزل منه رزقه، ويسود اسمه فى اللوح، فأعلم أنه مقبوض، فأنظر إليه نظرة يرتعد منها جسده ويتوعك قلبه من هيبتى فيقع فى الفراش.. فأرسل إليه أربعين ملكًا يعالجون روحه، وذلك قوله تعالى: **﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ﴾** [الأنعام الآية ٦١].

قلت: يا أخى يا عزرائيل أرنى صورتك التى خلقك الله عليها وتقبض فيها

الأرواح، قال: يا حبيبى لا تستطيع النظر إليها، فقلت: أقسمت عليك إلا فعلت، وإذا بالنداء من العلى الأعلى، لاتخالف حبيبى محمدًا. . فعند ذلك تجلى ملك الموت فى الصورة التى يقبض فيها الأرواح، قال النبى ﷺ ، فلما نظر ملك الموت إلىّ وجدت الدنيا بين يديه كالدرهم بين يدى أحدكم يقلبه كيف يشاء فارتعد قلبى ورجف منه، فوضع جبريل يده على صدرى، فرجعت روحى إلىّ وعقلى وقال جبريل: يا محمد ما بعد القبر إلا ظُلمة القبر ووحشته وسؤال منكر ونكير.

قال النبى ﷺ : فودعته وتقدمت أمامى قليلاً، فإذا أنا برجل صبيح الوجه غزير الشعر، فلما رآنى ضحك مبتسماً، فقلت: يا أخى يا جبريل من هذا قال: هذا أبوك ابراهيم الخليل، إدن منه وسلم عليه، فدنوت منه وسلمت عليه، فرد علىّ السلام وهنأنى بالكرامة من ربى وقال: مرحباً بالابن الصالح، أبشر يا محمد فالخير فيك وفى أمتك إلى يوم القيامة، وإن أخاك جبريل يرفعك إلى ربك ليجتبيك ويكرمك.

قلت: ما قعودك هنا؟! فقال: أنظر إلى أعمال أولاد آدم، فما رأيت أجمل ولاأكمل ولا أنور ولا أزهر ولا أحسن ولا أزكى ولا أطهر ممن يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله، فطاب قلبى وحمدت ربى، فقال جبريل: تقدم وصل به وبالملائكة ركعتين، فتقدمت وصليت ركعتين، ثم ارتقينا إلى السماء الخامسة فى أسرع من طرفة عين وبينها وبين السماء الرابعة خمسمائة عام وسمكها مثل ذلك.

•• فى السماء الخامسة:

فطرق جبريل بابها، فقالوا: من هذا؟ قال: جبريل، قالوا: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ ، قالوا: مرحباً بك وبمن معك، ففتحوا لنا الباب فدخلناها، فإذا هى سماء من الذهب الأحمر واسمها المُنيرة، ورأيت فيها من خلق الله عز وجل ملكًا عظيمًا لو أمره الله أن يبتلع السموات السبع فى دفعة واحدة لهان عليه، لعظم خلقته، وهو ينادى: «سيدى ومولاى ما عرف قدرك من عصاك سبحانك ما أحلمك على خلقك».

ورأيت بابا عليه سطران مكتوبان يزهُران ويلمعان: «لا إله إلا الله محمد

رسول الله ﷺ »، فلما قرأتها سقط القفل وانفتح الباب، فنظرت فيه من مشرق السماء الخامسة إلى تخوم الأرض السابعة السفلى، إذا بجهنم مظلمة ممزوجة بغضب الله ودخانها قائم، وإذ بملك عظيم الخلقة مرهب النظر ظاهر الغضب شديد البأس، صعب المراس، بين عينيه عقدة لو أشرف بها على الأرض لمات من فيها عن آخرهم.

قال النبى ﷺ ، قلت: يا أخى يا جبريل من هذا الذى اقشعر منه جلدى ورجف منه فؤادى، فقال: يا حبيب الله هذا مالك، خازن النار، خلقه الله من سخطه وغضبه، ولم يزل منذ خلقه الله، وولاه جهنم لايزداد إلا غضباً على أعدائه، إدن منه وسلم عليه، فدنوت منه وسلمت عليه فلم يرد علىّ السلام، فقال جبريل: لم لا ترد على حبيب الله وسيد العالمين، وهو أعز الخلق على الله ونبى الرحمة؟، فلما سمع مالك ذلك نهض قائماً على قدميه، وقال: الله الله، العذر لك يا حبيب الله، فقلت له: أرنى جهنم، فقال مالك: ليس الأمر لى، وإذا بالنداء من العلى الأعلى.. لا تخالف حبيبى محمدًا.. فعند ذلك كشف عنها الغطاء، فإذا هى سوداء مظلمة ممتزجة بغضب الله، ثم انطبق الباب وعاد كما كان ونظرت إلى السماء الخامسة وما فيها من العجائب، ثم اصطفت الملائكة وتقدمت وصليت بهم ركعتين، ثم ارتقينا إلى السماء السادسة.

•• فى السماء السادسة:

طرق جبريل عليه السلام بابها فقال خزنتها: من هذا؟ قال: جبريل، قالوا: ومن معك؟. قال: محمد، قالوا: مرحباً بك وبمن معك، ففتحوا لنا الباب ودخلناها، فإذا هى سماء من ياقوته.. خضراء اسمها **الخالصة**.

ورأيت فيما من خلقه ربى عز وجل ملكاً عظيمًا جالساً على كرسى من نور فقلت: من هذا يا جبريل، قال: هذا ملك خلقه الله ووكله بأكناف السموات وهو أنصح الملائكة إلى أمتك يدعو لهم بهذا الدعاء: «اللهم ألف قلوب عبادك المؤمنين على طاعتك».

ثم تقدمت وسلمت عليه فرد عليّ السلام، وقال: مرحبا بحبيب رب العالمين، ورأيت رجلاً كهلاً طويل كثير الشعر عليه مدرعة من صوف، أبيض يتوكأ على على عصا يكاد شعره يغطى جسده وله لحية بيضاء على صدره، فقلت: من هذا يا أخى يا جبريل، قال: هذا أخوك موسى بن عمران فضله الله بكلامه وجعله كليمًا له، إدن منه وسلم عليه، فدنوت منه وسلمت عليه، فنظر إلىّ وجعل يقول: يزعم بنو اسرائيل أنى أكرم الخلق على الله، وهذا أكرم منى على ربه.. هذا النبى القرشى الهاشمى العربى الملكى الأبطحى، هذا الحبيب.. هذا الكريم العظيم، هذا محمد الأمين بن عبد الله بن عبد المطلب، ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح والنبى الناصح، ثم دعا لى ولأمتى بالخير والبركة، واصطفت الملائكة صفوفاً، وصليت بهم ركعتين على ملة ابراهيم الخليل، ثم ارتقينا إلى السماء السابعة.

●● فى السماء السابعة وسدرة المنتهى:

ومن قبل أن نستكمل سوياً.. رحلة رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام.. إلى حيث النهاية ـ إلى السماء السابعة ـ أود أن أشير إلى أن هذه السماء وكما سوف يتضح ذلك بعد لحظات من وصفها.. تقترب كثيراً من سدرة المنتهى والتى عندها جنة المأوى.. حيث زارها النبى الكريم، صلى الله عليه وسلم.. كمسك الختام لهذه الرحلة العلوية.

ولسوف تقشعر أبدان المتابعين لنا عبر هذه الأوراق.. حين الوقوف تفصيلاً عما رآه وشاهده الرسول ﷺ مصدقاً لقوله تعالى ﴿**مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ**﴾ [سورة النجم الآية ١١]صدق الله العظيم.

* * *

وأمام باب هذه السماء طرق جبريل ذلك الباب، فقالوا: من هذا؟ قال: جبريل، قالوا: ومن معك؟!.. قال: محمد، قالوا: مرحباً بك وبمن معك، فلنعم المجئ جئتما، ففتحوا لنا الباب ودخلناها، فإذا هى سماء من دُرة بيضاء يقال لها **العجيبة**، وهى العالية، لم أسمع فيها إلا صرير الأقلام، ورأيت فيها

ملائكة ربى عز وجل يقال لهم الروحانيون. قال النبى ﷺ : فالتفت عن يمينى فإذا أنا بشيخ حسن الوجه حسن الثياب، جالس على كرسى من نور مستند ظهره إلى البيت المعمور وهو تلقاء الكعبة شرفها الله تعالى ﷺ قلت: يا أخى يا جبريل من هذا؟ قال: هذا أبوك آدم صلوات الله عليه، إدن منه وسلم عليه، فدنوت منه وسلمت عليه فرد علىّ السلام وهنأنى بالكرامة من ربى عز وجل. وقال: مرحباً بالابن الصالح والنبى الناصح، أبشر يا محمد فالخير كله فيك وفى أمتك إلى يوم القيامة، وإنما يرفعك ربك إليه ليجتبيك ويكرمك.

قال: ورأيت البيت المعمور وفيه قناديل من جواهر وأنوار مصطفة حوله، بعضها من ياقوت أصفر وبعضها من زبرجد أخضر وبعضها من لؤلؤ رطب. وإذا بالملائكة يطوفون حوله، فقمت وطفت معهم سبعاً، وقلت للملائكة: كم لكم تزورون هذا البيت؟ قالوا: من قبل أن يخلق الله أباك آدم بألفى عام.

ويزوره كل يوم مائة ألف ألف وسبعون ألف ألف من الملائكة، لا ترجع النوبة إلى أولهم إلى يوم القيامة. قال النبى ﷺ ، ثم تقدمت أمامى فلم أر أخى جبريل معى، فقلت: يا أخى يا جبريل أفى مثل هذا المكان يفارق الخليل خليله والأخ أخاه، فلم تركتني وتخلفت عنى؟ فنادى جبريل: يعز على أن أتخلف عنك، والذى بعثك بالحق نبيا ما منا إلا وله مقام معلوم، ولو أن أحداً منا تجاوز مقامه لاحترق بالنور، قال: فلما قال لى هذا المقال وضعت يدى على وجهى وأخذتنى الرعدة والخوف، فضمنى جبريل إلى صدره بجناحه، وقال لى: لا تخف ولاتحزن، إنما عرج بك ربك ليجتبيك ويكرمك، ويصطفيك ويعطيك، فلما قال لى هذا المقال خفت عنى كل ما أجده، وإذا بالنداء من قبل الله تعالى: زجوا حبيبى محمداً فى النور.

فأتتنى الملائكة برفرف أخضر كمثل المقعد يحمله أربعة من الملائكة، فوضعوه بين يدى، وقالوا إرق يا محمد، فاستويت، فسار بى كالسهم الذي يخرج من القوس، عندئذ خررت ساجداً لله تعالى وناديت برفيع صوتى: «يا غياث المستغيثين ويا إله العالمين ويا مؤنس المستوحشين، ويارب العرش العظيم. . يا إلهى

وسيدى ومولاى آنس وحدتى فى هذه الساعة، بعبد من عبيدك يكلمنى ويؤنسنى. . »

وإذا بالنداء: يا محمد إلىّ أقبل، فأقبلت، وإذا أنا بملك عظيم الخلقة يكيل الماء بمكيال ويزنه بميزان، فناديت: السلام عليك ورحمة الله وبركاته يا عبد الله، فقال: وعليك السلام يا حبيب الله، فقلت: سألتك بالله لما أخبرتنى: لم سُميت ميكائيل، ولم سمى جبرائيل جبرائيل؟!. . ولما سمى إسرافيل، إسرافيل؟! ولما سمى عزرائيل، عزرائيل.

قال يا حبيب الله: ما الذى رأيت من العجائب حتى تسألنى عن هؤلاء الملائكة؟. قلت: لربى الحمد والشكر، فإنى يا أخى يا ميكائيل أحب إذا رجعت إلى الأرض ألا يسألنى أحد عن أخبار السموات، إلا أخبرته عن قدرة الله تعالى ﷺ قال: صدقت.

وبينما أنا أخاطب الملائكة، وإذا بالنداء من فوق رأسى: الصلاة والسلام عليك يامحمد، الصلاة والسلام عليك يا أحمد، فرفعت رأسى، وإذا أنا بملك عظيم الخلقة أشد بياضاً من الثلج، يتقدمه سبعون ألف ملك على صورته، فعانقنى وقبلنى، وقال: سر يا حبيب الله، يا أكرم الخلق على الله، فسرت مع هؤلاء الملائكة نخترق الحُجب، حتى وصلت إلى حجاب الفردانية بعد حجاب الحضرة الإلهية، وإذا أنا بسبعين ألف ملك قياماً على أرجلهم، وإذا بالنداء من قبل الله تعالى: «ارفعوا الحجب التى بينى وبين حبيبى محمد ﷺ»، فرُفعت حُجب لا يعلمها إلا الله تعالى، فرأيت مائة ألف صف من الملائكة قيامًا لايركعون ومائة ألف صف من الملائكة ركوعاً لايسجدون، ومائة ألف صف سجودًا لا يجلسون ولايرفعون رؤوسهم إلى يوم القيامة.

وبينما أنا أتفكر وقد أخذتنى الهيبة مما رأيت من الجلال والكمال والبهاء والعظمة وهيبة الله تعالى، نوديت: «يا أحمد، أمامك، أمامك: إدن منى». . فخطوت خطوة مسيرة خمسمائة عام.

فقيل يا أحمد: لا تخف ولا تحزن، فسكن قلبى مما كنت أجده، وأخذ ذلك

الرفرف يعلو بى حتى قربنى من حضرة سيدى ومولاى، فأبصرت أمراً عظيمًا لاتناله الأوهام ولا تبلغه الخواطر، سبحانه وتعالى مما لاعين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فدنوت من ربى حتى صرت منه كقاب قوسين أو أدنى، ومُلئت فرحًا وسروراً فأخذنى عند ذلك الثبات والسكون، فظننت أن من فى السموات والأرض قد ماتوا إلا أنا، لا أسمع هناك لا حساً ولا حركة.

ثم رجع إلىّ عقلى وتفكرت فيما أنا فيه من الشرف العظيم، فنوديت : ياأحمد إدن منى. . فقلت: إلهى وسيدى ومولاى أنت السلام ومنك السلام، فنادانى ثانيا، إدن منى، فدنوت منه، فقال: عليك السلام، ثم ألهمنى ربى عز وجل، فقلت: التحيات لله والصلوات والطيبات، فقال الله تعالى: السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته، فقلت: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فقالت الملائكة من ورائنا: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، فقال الله تعالى: وأنا أشهد أن محمداً عبدى ورسولى. فمن أحبك فقد أحببته ومن كذبك فقد باء بغضبى.

ثم هممت بالنزول فنادانى ربى عز وجل: على رسلك يا محمد إنى مفترض عليك وعلى أمتك فريضة من وفى بها دخل الجنة، ومن قصر عنها، فإن شئت غفرت له وإن شئت عذبته، فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة فى كل يوم وليلة، فقلت: سمعنا وأطعنا، ثم نزلت والله يسلم علىّ.

فلم أزل أسير حتى أتيت أخى موسى بن عمران عليه السلام. . فلما رآنى نهض قائماً وقال: مرحباً الصادق الحبيب، أمن عند ربك؟ قلت: نعم، قال: ما أعطاك؟ قلت: أعطانى وأرضانى، قال: فما أعطى أمتك؟ قلت: أعطاهم وأرضاهم وفرض علىّ وعليهم خمسين صلاة فى اليوم والليلة.

قال موسى: فارجع واسأله التخفيف فإن أمتك أمة آخر الزمان، جسدهم ضعيف وعمرهم قصير، لا يطيقون ذلك، فاسأل ربك أن يخفف عنهم، فقلت: يا أخى ومن يخترق تلك الحجب التى اخترقتها؟ قال موسى: إسأله من هنا، فإنه قريب مجيب، قلت: يا رب أمتى ضعفاء لايقدرون على خمسين صلاة، قال:

فحط عنى وعن أمتى خمساً، فرجعت إلى موسى وقلت له، فقال: إرجع إلى ربك واسأله التخفيف فإن أمتك لاتطيق، فلم أزل أسأل ربى عز وجل وموسى يكلمنى حتى وهب لى خمسة وأربعين صلاة، وفرض علىّ وعلى أمتى خمس صلوات، قال موسى: إسأله التخفيف، قلت: يا أخى قد استحييت من ربى، فنادانى ربى: يا محمد إرجع، وقد جعلناها خمساً فى العمل، وخمسين فى الميزان.

ودعت موسى وانصرفت حتى آتيت أخى جبريل عليه السلام، وإذا هو قائم على حاله لم يتقدم ولم يتأخر، فلما رآنى عانقنى وقال: مرحباً يا حبيب رب العالمين. ثم أخذ بيدى وسرنا حتى أتينا الجنة.

وإذا أنا بملك عظيم حسن المنظر والنور يلوح من وجهه، وهو جالس على كرسى من نور وعليه الحلى والحلل، فقلت: يا أخى يا جبريل من هذا؟! قال: هذا رضوان، خازن الجنان، فتقدمت وسلمت عليه، فقال: يا جبريل خذ بيد حبيب الله وآره الجنة، وما أعد الله له ولأمته، فأخذنى وأدخلنى الجنة.

كما أخذ رضوان بيدى وسرنا بين أشجارها، وما فيها من سرر وعيون وحور عين وأبكار وقصور عاليات وخدم وحشم وأنعام ونعيم ومقام وخلود وسعود ودوام وفرح فى جوار الملك العلام، قال: ورأيت أيضا نعيما وملكا كبيراً، ورأيت فيها سبعة أنهر من ماء ولبن وخمر وعسل وسلسبيل ونهر من الرحيق ونهر من التسنيم ونهر الكوثر.

ولم أزل أنزل من سماء إلى سماء، فما مررت على شئ فى السموات، إلا وهو يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله. فلما انتهيت إلى السماء الدنيا، إذا بالليل على حاله لم يتقدم ولم يتأخر. . فركبت وأتيت مكة.

* * *

ومما لاحظناه ونحن نتابع معكم هذه الرحلة المباركة أننا وجدنا العشرات، بل والمئات من الروايات التى تحدثت عن الاسراء والمعراج، والتى ذكرها أولاً عمداء

كتب السيرة النبوية مثل ابن اسحاق وبن هشام، والتى نقلها عنهما الكثير من مؤرخى العصور التالية.

هذه الروايات بها اختلافات كثيرة.. رغم توحد ما بها من مضمون تناول هذه الرحلة، إذ كانت تدور فى فلك تفاصيل ما سبق وأوردناه فوق هذه الأوراق، مع تقديم أو تأخير أو زيادة أو نقصان من دون الإخلال بالمعنى العام الذى قام أساساً على ما وصفه الرسول الكريم ﷺ.

كما لاحظ غيرنا من المؤرخين المنصفين تلك الاختلافات.. وقد أرجعوها إلى تعدد المصادر التى نقل عنها كُتاب السيرة النبوية ما سجلوه فى كتبهم.

ونحن نرى أن هذا الاختلاف هو ظاهرة صحية فى الأساس، وتدل دلالة واضحة على سماحة الإسلام واحتوائه لكل ما يقال بشرط ألا يخالف ما جاءت به العقيدة الإسلامية سواء ما ذكر فى القرآن الكريم.. أو ما جاء بالسُنة النبوية المطهرة، ويكون جوهره العبادات والأوامر والنواهى..

* * *

وكل ما نرجوه ممن يتابعوننا فوق هذه الأوراق.. أن يعيدوا قراءة تفاصيل تلك الرحلة.. مرة أخرى، ولكن هذه المرة بقلوبهم.. بعدما قرأوا تفاصيلها بأعينهم. ذلك لأن القلب هو مفتاح الإنسان نحو التدبر والفهم الإيمانى الصحيح مصداقاً لقول رسولنا الكريم ﷺ فيما معناه.. «إن أصدق الإيمان.. ما وقر فى القلب وصدقه العمل».

ولسوف تكون هذه الإعادة فى القراءة أكثر متعة من السابقة، وتعالوا نجرب، ولن نخسر شيئاً.

٢- فى بيت المقدس

لسنا فى حاجة إلى تأكيد أن كل ما روى عن رحلة الإسراء والمعراج.. سواء فى الأحاديث النبوية الشريفة بإسناد صحيح، أو فى كتابات كل المؤرخين المسلمين، قد جاء مترابطاً ومتلازمًا ومتواترًا.. بحيث لم يكن هناك فصل حتى فى اللغة بين هذين اللفظين «الإسراء والمعراج»، وذلك باعتبارهما رحلة واحدة تمت على مرحلتين.. الأولى: أرضية والثانية علوية.

وما دفعنا نحن إلى إحداث نوع من الفصل بين هذه الرحلة فى أحداثها الأرضية ثم العلوية، وجود مقتضيات فنية بحتة تتعلق بمنهج الكاتب ورؤيته القائمة على ضرورة التبديل والتأخير أو التقديم، وفقاً لمكانة هذا الجزء من الرحلة أو ذاك فوق هذه الأوراق.

من هنا فقد بدأنا الحديث برحلة المعراج.. لأنها ترتبط بالسموات السبع وبخالقها العظيم رب العزة سبحانه، ثم ها نحن نستكمل هذا الحديث من حيث الجزء الأرضى الذى شمل رحلة الرسول الكريم ﷺ إلى بيت المقدس، ذلك المكان الطاهر الذى يوجد به المسجد الأقصى، والذى شهد نهاية رحلة الإسراء.

ولقد سبقنا القرآن الكريم، فى إحداث هذا الفصل بين جزئى هذه الرحلة.. حيث جاء ذكر رحلة الإسراء فى موضع من الآيات والسور الكريمات، وجاء ذكر المعراج فى موضع آخر من هذه الآيات والسور الكريمة.

ففى سورة الإسراء قال الله تعالى فى محكم آياته: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الإسراء الآية ١].

وفى سورة النجم قال الله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم الآيات من ١ إلى ١٨].

* * *

ولما كنا فى الفصل السابق قد أفسحنا المجال لحديث طويل شمل كل تفاصيل ما رآه الرسول الكريمﷺ فى رحلته العلوية إلى السموات السبع.. فقد خصصنا ما هو آت لحديث آخر عن رحلته الأرضية، إلى مدينة القدس، وهى حتى لاننسى تمثل الجزء الأول من هذه الرحلة المباركة أو إن شئنا أسميناها المرحلة الأولى، التى سوف نعيش من خلالها مع أشهر الأماكن التى زارها الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذه المدينة المقدسة، وذلك من خلال ما روى عنه عليه السلام وماذكره بعض المؤرخين المسلمين وكُتاب السيرة النبوية.

ولقد وجدنا اختلافاً كبيراً بين المؤرخين المسلمين، سواء القدامى أو المحدثين فيما يخص السنة التى حدث فيها الإسراء.. كذلك وجدنا الخلاف نفسه، وأشد فيما يخص المكان الذى انطلق منه البراق من مكة المكرمة، على الرغم من أن القرآن الكريم قد حدد هذا المكان صراحة فى قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا﴾ [الإسراء الآية١].

ونحن نود أن ننوه هنا إلى أن هذه الخلافات كانت وستزال هى الصفة الغالبة على معظم أحداث التاريخ الإسلامى.. خاصة فى فترة ما قبل التدوين.. والوصول إلى تحديد دقيق لمعظم هذه الأحداث يعتبر من أكبر الصعوبات، التى تواجه المشتغل فى هذا الحقل العلمى الهام.

وكثير من المؤلفين مثلنا يلجأون إلى ذكر جميع الروايات، التى دارت حولها كل الخلافات المرتبطة بهذا الحدث أو ذاك.

وجاء الإسراء والمعراج ليمثل أكبر حدث تاريخى اختلف فى تحديد توقيته كل العلماء والمؤرخين فى كل العصور، وهناك علماء الدين الأجلاء مثل الشيخ محمد متولى الشعراوى من الذين لا يعلقون أهمية كبيرة على هذه الخلافات، تمسكًا بالجوهر الذى عليه الحدث نفسه، ومغزاه وأهميته فى الوقت ذاته.

ومع ذلك، وفى ضوء كثرة هذه الخلافات فى تحديد توقيت حدوث الإسراء.. من مكة إلى القدس الشريف.. وجدنا نوعاً من التقارب فى هذا التوقيت اتفق عليه معظم المؤرخين.. هذا التقارب يقوم على شواهد وليس على تواريخ: الشاهد الأول هو ما وقع للرسول الكريمﷺ من أحداث مؤسفة واجهها مع قومه، بعد رحيل كل من عمه أبوطالب وزورجته أم المؤمنين السيدة خديجة، وقد أطلقوا على هذا العام عام الحزن..

وأما الشاهد الثانى والذى نؤيده بشكل قطعى، فهو أن حدوث الإسراء كان ما بين مبعثه عليه السلام وهجرته إلى المدينة.. أو بمعنى آخر أكثر تدقيقاً.. أن هذا الحادث الجلل قد وقع فى فترة ما بعد نزول الوحى. ومن قبل هجرة الرسول الكريم إلى المدينة المنورة ربما بسنة أو أكثر.

* * *

وحتى نكون منصفين فى الحكم على هذه الحادثة، تعالوا نستعرض معاً ما قاله الآخرون عن تاريخها.. من واقع ما سجلوه فى كتبهم نقلا عن المسامع واستناداً إلى الشواهد المروية:

قال الإمام النووى فى شرحه لصحيح مسلم نقلاً عن القاضى عياض: «إن الإسراء أقل ما قيل فيه إنه كان بعد مبعثه ﷺ بخمسة عشر شهرا، وقال الحربى: كان ليلة سبع وعشرين من شهر ربيع الآخر قبل الهجرة بسنة، وقال الزهرى: كان

ذلك بعد مبعثه ﷺ بخمس سنين، وقال بن إسحاق: أسرى به، وقد فشا الإسلام بمكة والقبائل كلها.

أما الشوكانى فى فتح القدير : فقد اختلف أيضا فى تاريخ الإسراء، فروى أن ذلك كان قبل الهجرة إلى المدينة بأعوام، ووجه ذلك أن خديجة صلت مع النبى ﷺ وقد ماتت قبل الهجرة بخمس سنين، وقيل ثلاث، وقيل بأربع، كما لم تفرض الصلاة إلا ليلة الإسراء.

ثم اختلفت الرواية عن الزهرى الذى قال بأن الإسراء كان قبل الهجرة بسنة وكذلك الحربى الذى قال: أسرى بالنبى ﷺ ليلة سبع وعشرين من ربيع الأول قبل الهجرة بسنة.

وقال ابن القاسم فى تاريخه: كان الإسراء بعد مبعثه بثمانية عشر شهراً، وقال القرطبى فى المفهم: وأما متى كان الإسراء؟! فأقل ما قيل فيه: إنه كان بعد مبعثه عليه السلام بخمسة عشر شهراً[١].

وقال بن عبد البر: «كان بين الإسراء والهجرة سنة وشهران، وأبوحيان فى البحر: أسرى به ﷺ فى سبع عشرة من ربيع الأول وعمره إحدى وخمسون سنة وتسعة أشهر وثمانية وعشرون يوما. و أن هذا التاريخ يعنى أن الإسراء كان قبل الهجرة بعام واحد، وأنه كان فى أواخر السنة الثانية عشرة من النبوة تقريباً.

وأخيرا ذكر ابى الحسين بن فارس الرازى فى كتاب «أوجز السير لخير البشر»: فلما أتت له إحدى وخمسون سنة وتسعة أشهر، أسرى به من بين زمزم والمقام إلى بيت المقدس[٢].

وحسناً ما فعله الرازى حين ذكر مكان الإسراء فى قوله «ما بين زمزم والمقام».. مخالفاً بذلك كل ما قيل فى هذا الشأن، حيث ذكر غيره كلاماً كثيراً سوف نستعرضه حالا.. لاستكمال ما نرجوه من فائدة، وذلك من قبل الانتقال

(١) السراج والوهاج فى الإسراء والمعراج - تصنيف محمود توفيق عبدالحليم
(٢) أوجز السير لخير البشر لابن الحسين أحمد بن فارس الرازى..

إلى الحديث عن تحديد أهم الأماكن التى زارها الرسول الكريم ﷺ فى مدينة القدس الشريف.

وقد انحصر ذلك المكان الذى قيل إن الإسراء إنطلق منه وفق ما ذكره عديد من المؤرخين وأصحاب الأحاديث النبوية فى مكانين الأول: من بيت أم هانئ بنت أبى طالب.. حيث كان يبيت عندها رسول الله فى هذه الليلة المباركة.. وذكر ذلك ابن عباس رضى الله عنه ونقله عنه قوم آخرون.

والثانى: وفق ظاهر الآية الكريمة هو المسجد الحرام، أى الكعبة المشرفة، وقد أخذ بهذا الرأى الإمام بن إسحاق فى سيرته، عندما قال: وحدثُت عن الحسن البصرى أنه قال: قال رسول الله ﷺ: بينما أنا نائم بالحجر، إذ جاءنى جبريل، فهزنى بقدمه، فجلست، فلم أر شيئا، فعُدت إلى مضجعى، فجاءنى الثانية فهمزنى بقدمه، فجلست فلم أر شيئاً فعدت إلى مضجعى، فجاءنى الثالثة فهمزنى بقدمه، فجلست، فأخذ بعضدى فقمت معه، فخرج بى إلى باب المسجد، فإذا دابة بيضاء بين البغل والحمار، فى فخذيها جناحان يحفز بهما رجليه، يضع يده فى منتهى طرفه، فحملنى عليه، ثم خرج معى لا يفوتنى ولا أفوته[1].

وأيضا نقل الكثيرون عن هذه الرواية.. ولكن الشيخ محمد متولى الشعراوى وجد ضرورة التوفيق بين هذه الآراء جميعاً.. فذكر أن كل الروايات التى تحدثت عن مكان الإسراء.. سواء ما ذكر منها أنه كان نائما بالكعبة أو فى بيته أو فى بيت أم هانئ، فهى صحيحة.. ذلك لأن رؤيا الأنبياء صادقة، وتثبيت الأنبياء قبل المعجزات يأتى من الله سبحانه وتعالى، حتى لا يفاجأ الرسول بالمعجزة[2].

ونحن نؤيد هذا الرأى التوفيقى. باعتبار أن المسجد الحرام يشمل كل ما كان حوله من أماكن كانت موجودة قبل توسعته الحالية.. كما أن بيوت رسول الله

(١) مختصر سيرة بن هشام – ج(١). طبعه المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

(٢) المعجزة الكبرى – الإسراء والمعراج – محمد متولى الشعراوى . .

ﷺ وبيوت أعمامه كانت على مقربة من المسجد الحرام.. بل وكانت تحيط بالكعبة المشرفة.. وبالتالى فإن النص القرآنى صريح.. ولا تعارض بينه وبين كل ما قيل فى كل الروايات السابقة، وهذا ما أكد عليه الرازى أيضا، حين قال: كان الإسراء «ما بين زمزم والمقام».

* * *

ومن خلال متابعة متأنية لكل ما ذكر عن رحلة الإسراء.. وذهاب الرسول الكريم ﷺ إلى مدينة القدس الشريف أو إلى «إيلياء».. كما كانت تسمى فى هذا الزمان.. تبين لنا.. أن تفاصيل هذه الرحلة قد ظلت مرتبطة بالرسول الكريم ﷺ وحتى من بعد رجوعه إلى مكة المكرمة.. إذ إضطر إلى إعادة تفاصيل ما رآه فى هذه المدينة المقدسة، بل وإعادة كل ما رآه منذ خروجه من مكة وحتى رجوعه إليها، مرة ومرات، وقد كان كل ما حكاه بتوفيق الله وتأييده عاملاً أساسيا فى إسلام الكثير من المشركين الذين ظنوا أمام أتباع الرسول الكريم ﷺ أنهم سوف يهزمونه بتلك الحجة.. وقد جادلوه كثيراً فيما رأى وشككوا فيما رواه..؛ ولذلك فقد كانت بذلك رحلة مباركة بكل المعانى.

وسوف نلاحظ من خلال ما رواه كل المؤرخين.. أن الأماكن المشهورة التى زارها رسول الله ﷺ فى هذه المدينة المقدسة.. قد تم تكرار ذكرها فى أكثر من رواية.. وإن كانت تلك التفاصيل قد ذكرت بشكل موسع فى هذا الموقف الصعب الذى واجهه رسول الله..عندما سألوه عن معالم تلك المدينة.. بل ومعالم ذلك الطريق الذى سلكه إليها، إن كان صادقاً فيما كان يرويه على حد قولهم!!.

وبشكل عام فقد وجدنا نوعا من الاتفاق بين كل المؤرخين على أن أشهر الأماكن التى زارها رسول الله ﷺ فى مدينة القدس أو فى مدينة إيلياء الفلسطينية قد انحصرت فى مكانين.. هما المسجد الأقصى والصخرة المباركة.. تلك الصخرة الموجودة حالياً إلى جوار المسجد الأقصى.. والتى بنى فوقها مسجداً فسميت بعد ذلك بمسجد الصخرة.

وقد ذكر المؤرخون أحاديث نبوية كثيرة عن تفاصيل وصول الرسول الكريم ﷺ إلى هذه المدينة، امتلأت بها كل كتب السير النبوية وكل كتب التاريخ الإسلامى،

ومن أشهر تلك الأحاديث النبوية ما ذكره بن إسحاق فى سيرته حيث قال: وكان عبدالله بن مسعود فيما بلغنى يقول: أُتى رسول الله ﷺ بالبراق، وهى الدابة التى كان يُحمل عليها الأنبياء من قبل، تضع حافرها فى موضع منتهى طرفها، فحُمل عليها.. ثم خرج به صاحبه يرى الآيات فيما بين السماء والأرض حتى انتهى إلى بيت المقدس، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى فى نفر من الأنبياء قد جمعوا له فصلى بهم، ثم أُتى بثلاثة آنية من لبن وخمر وماء.. فذكر أنه شرب إناء اللبن، فقال جبريل، هديت وهديت أمتك.

وكانت الصخرة المقدسة.. هى ذلك المكان الذى ربط فيه جبريل عليه السلام.. البراق.. لكى يعود برسول الله ﷺ إلى مكة مرة أخرى بعدما ينتهى من رحلته إلى السموات السبع فى رحلة المعراج.

ويرى كثير من المفسرين والفقهاء.. أن الحكمة فى إسراء النبى ﷺ إلى بيت المقدس بالذات لكى تكون نقطة إنطلاق إلى السماء السابعة، هى أن الله تعالى أراد أن يُرى نبيه الكريم ﷺ القبلة التى صلى إليها مدة.

فالمسجد الأقصى هو أولى قبلة تولى المسلمون إليها فى الصلاة، فله مكانته فى الإسلام، فأراد الله تعالى أن يشرفه بزيارته، وقيل أيضاً: لأنه محل المحشر، فأراد الله تعالى أن تطأه قدمه عليه الصلاة والسلام؛ حتى يسهل على أمته يوم القيامة وقوفهم ببركة أثر قدميه(١).

ولدينا تنويه كان لابد من الإشارة إليه فى هذا السياق.. وهو أن المسجد الحرام الذى انطلقت منه رحلة الإسراء والمعراج، لم يكن مسجداً آنذاك حيث كان مليئاً بالأصنام، وكان فيه ثلاثمائة صنم وتسعة.. كان العرب يعبدونها قبل إسلامهم.. ولم يكن لرسول الله ﷺ أن يقوى فى ظل هذه الهيمنة الكافرة أن يصلى فيه،

وكذلك لم يكن المسجد الأقصى مسجداً آنذاك.. وإنما كان هو والصخرة الشريفة مزبلة مليئة بالقمامة ولا يصلى فيهما أو فيه.. و لما جاء عمر بن الخطاب

(١) السراج الوهاج، مصدر سابق.

رضى الله عنه كنس قمامته وحملها فى ردائه، وألقاها بعيداً عنهما، وكون ربنا عز وجل يسمى المسجد الحرام مسجداً، ولم يكن مسجداً، وأن يسمى المسجد الأقصى مسجداً ولم يكن مسجداً أيضا.. إنما ليدلنا على أن المعجزة قادمة، بل وإنها قائمة(٢). حيث تحول هذين المكانين الطاهرين مع مرور الأيام والسنوات إلى مساجد مشهورة، يذكر فيها اسم الله بالليل والنهار، وذلك مصداقاً لقول الرسول الكريم ﷺ فى هذا الحديث الشريف: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد.. المسجد الحرام، ومسجدى هذا، والمسجد الأقصى».. أخرجه الشيخان وأحمد وأصحاب السنن.

وهذا يعنى صعوبة التعبد فى هذين المكانين الطاهرين من قبل بزوغ نور الإسلام وانتشاره إلى خارج مكة، بل وخارج ربوع الحجاز.. على الرغم من أن أنبياء الله إبراهيم ويعقوب عليهما السلام.. هما اللذان أسسا هذين البيتين الكريمين.

فالمسجد الحرام هو أول بيت وضع للناس بمكة المكرمة، وقد بناه إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام كما نعلم، والمسجد الأقصى هو ثانى مسجد على الأرض حيث بناه النبى يعقوب ثم جدده داود، وأتمه سليمان عليهم السلام.

ففى الصحيحين عن أبى ذر رضى الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن أول مسجد وضع على الأرض فقال: المسجد الحرام، قلت: ثم أى؟، قال: المسجد الأقصى، فقلت: وكم بينهما؟! قال: أربعون عاماً، ثم جُعلت الأرض لك مسجداً فحينما أدركتك الصلاة فصل فيه، فإن الفضل فيه.

* * *

وفى يقينى.. أن أهمية هذين المكانين الطاهرين اللذين زارهما رسول الله، صلى الله عليه، فى رحلة الإسراء.. لن تتضح بالصورة المرجوة.. إلا إذا عايشنا ظروف ونشأة وتاريخ هذه المدينة.. التى شرفها الله بزيارة النبى الكريم عليه

(٢) السراج الوهاج - مصدر سابق

الصلاة والسلام، وذلك من واقع ما سجله عنها كل المؤرخين فى كتبهم، إضافة إلى الوقوف على ما شهدته من تطور عمرانى خاصة فى المنطقة المحيطة بالمسجد الأقصى والصخرة المباركة حتى أصبحا على شكلهما الذى نراه عليه الآن.

* * *

وتاريخ مدينة القدس.. تاريخ ضارب فى القدم.. وأقدم ما يعرف عن هذا المكان الطاهر.. يرجع إلى الألف الرابعة قبل الميلاد.. ففى ذلك الوقت أنشأ الكنعانيون وهم عرب.. مدينة أسموها «يورد سالم»؛ أى منشأة الإله سالم أو شالم.

وظل ذلك الاسم شائعاً، منذ ذلك العهد إلى يومنا هذا.. مع شىء من التغيير، علاوة على أسماء أخرى أطلقت على هذه المدينة فى بعض مراحل تاريخها. قديما وحديثا

وأخص ما يلزمنا الاطلاع عليه بالنسبة لتاريخ مدينة القدس.. هو ما حدث لها فى الحقبة التى سيطر عليها الرومانيون، والتى عُرفت فيها باسم «إيليا كابيتولينا» أى إيلياء العظيمة أو مدينة الله.

وهذه الفترة التاريخية كانت تقريبا هى التى زار خلالها الرسول ﷺ تلك المدينة المقدسة وبالتالى فهى الفترة التاريخية التى شهدت أحداث الإسراء والمعراج، وقد أطلق عليها هذا الاسم، التى عُرفت به داخل جزيرة العرب.. الإمبراطور الرومانى «أدريانوس» فى عام ١٣٥ق.م.. كما جاء ذكرها بنفس هذا الاسم فى كتاب الأمان الذى أعطاه عمر بن الخطاب لأهل بيت المقدس، بعد أن فتحها المسلمون فى السنة الخامسة عشرة للهجرة الموافق ٦٣٦م.

إلا أن هناك فريقاً آخر من المؤرخين الذين يرون أن اسم بيت المقدس كان معروفاً أيضا حتى أثناء رحلة الإسراء والمعراج، واستندوا فى ذلك إلى عديد من الأحاديث النبوية التى ذكرت تلك المدينة المقدسة.. ومنها على سبيل المثال قول

رسول الله ﷺ عن أبى الدرداء عن النبى ﷺ أنه قال: «الصلاة فى بيت المقدس بخمسمائة صلاة». وفى الحديث الشريف الذى روته ميمونة مولاة النبى الكريم ﷺ حيث قالت: «يا رسول الله أفتنا فى بيت المقدس»، وفى حديث الإسراء حيث قال رسول الله ﷺ «لما كذبتنى قريش حين أسرى بى إلى البيت المقدس، نمت فى الحجر، فجلى الله لى بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه» [1].

ولم ينعم هذا البلد الطاهر بالأمان، إلا بعد أن فتحه المسلمون بقيادة عمرو ابن العاص وقيل أبو عبيدة ابن الجراح فى خلافة عمر بن الخطاب، الذى جاء من المدينة إلى الشام لكى يتسلم مفاتيح هذه المدينة بنفسه، وكذلك مفاتيح المسجد الأقصى. وقد جاءت رسل أهل إيلياء يطلبون السلام فسالمهم، وكتب لهم كتاباً أعطاهم فيه الأمان، وقد شهد على هذا الكتاب كل من خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبدالرحمن بن عوف ومعاوية بن أبى سفيان وكُتب وحرر سنة ١٥هـ.

وقد دام حكم المسلمين لهذه المدينة طيلة ١٣ قرناً، خلا قرن واحد تمكن فيه الصليبيون من الاستيلاء على أجزاء من فلسطين وعلى بيت المقدس، وكانت هذه أطول مدة فى تاريخ المدينة المقدسة حيث ذاقت فيها حلاوة الاستقرار، كما أطلقت فيها حرية العبادة لجميع الطوائف، دون استثناء، وعنى المسلمون بالمدينة حيث أقاموا فيها المساجد.. واعتنوا بصفة خاصة بكل من الصخرة والمسجد الأقصى.

ومنذ أن دخل الخليفة عمر بن الخطاب مدينة القدس.. بدأت أنظار المسلمين تتجه للعناية بهذا البلد وبما فيه من مقدسات.. خاصة الصخرة الشريفة التى كان من نصيبها أن ينظفها هذا الخليفة بملابسه، وفى ذلك يقول المؤرخون: كان أول عمل قام به عمر بعد فتحه بيت المقدس أن زار كنيسة القيامة، ثم زار مكان الهيكل، وكان هناك فى حالة خراب، تجمعت فيه الأقذار، فأصبح عبارة عن مزبلة، فراح يزيل التراب ويمسحه بكفيه، وحذا الصحابة الذين كانوا معه حذوه

(١) بيت المقدس فى الإسلام - د. عبدالحليم محمود.

فراحوا ينظفون المكان وبرزت الصخرة.. وأمر عمر بأن يُبنى هنا مسجد، فبنى المسجد، وكان من خشب فى عام ٦٣٧م[١].

* * *

وكانت تلك هى بداية الاهتمام بالأماكن المقدسة التى زارها الرسول ﷺ فى رحلة الإسراء داخل مدينة القدس الشريف، إذ تحولت إلى مساجد تقام فيها الصلاة، ثم توالت بعد ذلك عمليات إعمار وإعادة بناء تلك المساجد وخاصة مسجد الصخرة الذى يطلق عليه أيضا مسجد عمر بن الخطاب، وكذلك المسجد الأقصى.

ففى زمن عبدالملك بن مروان، أحد خلفاء الدولة الأموية.. تم إعادة بناء هذين المسجدين بالحجارة بعد أن استشار المسلمين، ورصد لبنائهما خراج مصر لسبع سنين، وعمد بإدارة العمل إلى اثنين من رجاله، هما: رجاء بن حياة بن جود الكندى أحد العلماء الأعلام فى صدر الإسلام، ويزيد بن سلام من مواليه، وهو من القدس.

وقد شرع البناءون فى بناء مسجد الصخرة، سنة ٦٦هـ - ٦٨٥م، وفرغوا منه سنة ٧٢هـ - ٦٩١م، وهذا هو القول الصحيح على ما دونه عارف العارف فى كتابه عن تاريخ القدس، وإن قال غير ذلك بعض المؤرخين.

وبعد أن أتم عبد الملك بن مروان بناء مسجد الصخرة بنى إلى الجنوب منه وعلى بعد بضع أمتار، المسجد الأقصى، وتم ذلك فى عام ٧٤هـ - ٦٩٣م.. على اتفاق المؤرخين، وهناك من يقول إن الذى بنى المسجد الأقصى لأول مرة هو الوليد بن عبدالملك وليس عبد الملك نفسه.

وقد طرأت عدة تغييرات على كل من هذين المسجدين بفعل الزلازل والعواصف والأمطار، وكان الحكام المسلمين عبر كل العصور يولون اهتماماتهم الخاصة، لإعادة إعمار هذين المسجدين بالذات، وهما الآن أسيران تحت سيطرة

(١) تاريخ القدس - عارف باشا العارف.

الاحتلال اليهودى لمدينة القدس، وفى حاجة إلى فك أسرهما مرة أخرى، مثلما فعل صلاح الدين الأيوبى أيام الصليبيين.

ولقد وجدت داخل نفسى اشتياقاً خاصاً لاستعراض ما فى داخل قبة الصخرة من معالم.. شهدت معراج رسول الله ﷺ بعد أن شهدت إسرائه عليه السلام.. إذ إن هذه الصخرة الآن وما بها من مشاهد رآها رسولنا الكريم ﷺ قد غُطت تحت القبة المبنية فوقها حالياً.

ووفق إجماع المؤرخين الذين زاروها وسجلوا مشاهداتهم عنها.. فإن الصخرة المقصودة هنا هى الصخرة المشرفة، ويوجد أسفلها مغارة ينزل إليها بأحد عشرة درجة، ويسمونها مغارة الأنبياء، وقيل إن إبراهيم عليه السلام قدم إلى هذه الصخرة مع ولده إسماعيل.. وقيل أيضا إن الصخرة المعلقة.. كانت غير ذلك من قبل مقدم رسولنا الكريم ﷺ إليها.. إذ كانت قطعة واحدة من الصخر، شديد القوة، ولكن حين تحرك المعراج بالرسول ﷺ انفصل عنها جزء كبير، فى اتجاه المكان الذى اعتلاه الرسول ﷺ قاصداً السموات العلا.. ولولا إشارة من يد هذا النبى العظيم ﷺ.. لذهبت معه هذه الصخرة اشتياقاً لصحبته، وقد ظلت على وضعها معلقة بين السماء والأرض إلى يومنا هذا، وهى لذلك تسمى أيضا بالصخرة المعلقة!.

* * *

ولقد سبق لنا القول.. بأن معالم مدينة القدس الشريف، التى زارها رسول الله ﷺ فى رحلة الإسراء، قد ظلت عالقة بذهنه عليه السلام حتى من بعد رجوعه إلى مكة المكرمة، بل وكانت فيوضات رب العزة وتجليه بالخير على نبيه مستمرة حيث ألهمه بالتفاصيل المطلوبة، وفق ما طالبه به المشركون حين أعلن عليهم نبأ الإسراء والمعراج..

ولذلك فقد رأينا ومن قبل الانتقال إلى حديث الأماكن الأخرى المشهورة فى حياة النبى الكريم ﷺ ضرورة استعراض ما تم خلال هذا الموقف العصيب، الذى واجه رسولنا صلى الله عليه وسلم، ونحن نعتبره خير استكمال لبقية المعالم التى

رآها عليه الصلاة والسلام فى رحلة الإسراء وفى هذه المدينة الشريفة المقدسة، وكذلك خير ختام لذلك الحديث الشريف الذى رواه ابن عباس رضى الله عنه بإسناد الإمام أحمد.. وفيه تفاصيل رحلة الإسراء والمعراج، حيث قال على لسان رسول الله ﷺ: «... فلما انتهيت إلى السماء الدنيا إذا الليل على حاله لم يتقدم ولم يتأخر فركبت وآتيت مكة شرفها الله تعالى وعظمها ونزلت عن البراق فودعنى جبريل وقال يا محمد إذا أصبحت فحدث قومك بما رأيت من العجائب فى هذه الليلة وبشرهم برحمة الله تعالى، فقلت: يا أخى يا جبريل إنى أخاف أن يكذبونى، فقال جبريل: إن كذبوك صدقك أبوبكر، فلا تبال بمن كذبوك بعده.

قال النبى ﷺ: فنمت على فراشى إلى وقت الصبح ثم قمت فصليت الصبح، ثم خرجت إلى باب المسجد وكان من عادة أبى جهل إذا مر علىّ يقول: بم نُبئت يا محمد البارحة؟!، فمر علىّ وسألنى على حسب عادته، فقلت له: أسرى بى، قال: إلى أين؟! فقلت: إلى بيت المقدس ثم إلى العرش، وخاطبت الحق وخاطبنى وأعطانى وأكرمنى، ورأيت الجنة وما أعد الله لأهلها من النعيم المقيم، ورأيت النار وما أعد الله لأهلها من الزقوم والحميم، قال أبوجهل: يا محمد أكتم هذا الأمر ولا تتكلم به وإلا كذبك الخلق، فقلت له: أأكتم أمراً أنعم الله به علىّ وقد قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى الآية ١١].

قال أبوجهل: يالله العجب من قولك، هل تقدر أن تحدث قومك بما أخبرتنى به؟، فقلت: نعم، فنادى فى أهل مكة شرفها الله تعالى: يا أهل مكة هلموا إلىّ، فاجتمع أهل مكة كلهم، فقام رسول الله ﷺ خطيباً وقال: يا معشر قريش إعلموا أن الله سبحانه وتعالى أسرى بى فى هذه الليلة إلى بيت المقدس، ثم عرج بى إلى السماء السابعة، وشاهدت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ورُفعت إلى العرش، ودُست بساط النور، وخاطبت الحق وخاطبنى، ورأيت الجنة والنار.

وجعلت أصف هذ كله، وأبوبكر الصديق يقول: صدقت يا صفوة الله، ياحبيب الله، فقال أبو جهل: وصفت فأحسنت، فما أريد منك خبر السماء،

ولكن نريد منك خبر بيت المقدس.. كيف هو؟! صفه لنا حتى نعلم أن كلامك حق وقولك صدق، فأطرق النبى ﷺ رأسه إلى الأرض لأنه دخل بيت المقدس بالليل ومر عليه راجعا بالليل ولم ير له علامة ولا إشارة، فأوحى الله إلى جبريل أن اهبط إلى بيت المقدس واقتلعه بأرضه وجباله وتلاله وأوديته وأزقته وشوارعه ومساجده وأبسطه بين يدى حبيبى محمد.

قال: فعند ذلك هبط الأمين جبريل على النبى ﷺ ببيت المقدس.. فجعل النبى ينظر إليه ويصفه مكاناً مكاناً وموضعاً موضعاً حتى أطرقوا جميعا إلى الأرض، وأبوبكر الصديق يقول: «صدقت يا حبيب الله»، ثم قال النبى ﷺ.. لما كنت أنا وأخى جبريل فى الهواء رأيت من بنى مخزوم فلاناً وفلاناً، هم وركب عند جبل الأراك، وقد ضل منهم جمل أورق فناديتهم من الهواء: إن جملكم فى واد النخل، وهم عند طلوع الشمس من الغد يفيدون إليكم، فإذا جاؤكم فاسألوهم.

فلما أصبح ذلك اليوم، وكان الركب بعيداً، ولم يقدروا أن يدركوا مكة عند طلوع الشمس، قال: فأمسك الله فى ذلك اليوم الشمس حتى لحق الركب مكة إكراماً وتصديقاً لكلام سيد الخلق، وحبيب الرحمن ﷺ.

ولما طلعت الشمس دخل الركب مكة، وأخبروا أنه ضل منهم بعير قالوا: وكنا نبحث عنه فنادانا شخص من الهواء، إن البعير فى واد النخل، فأتينا الوادى فوجدناه كما ذكر لنا.

فلما سمع المسلمون ذلك فرحوا فرحاً شديداً وضجوا بالتهليل والتكبير، وخرج رسول الله ﷺ والمسلون حوله، وهو بينهم كالقمر وهم حوله كالنجوم، وأسلم فى ذلك اليوم أربعة آلاف رجل، وضجت الملائكة فى السموات بالتهليل والتكبير، وعاداه أبوجهل وجحده وحسده.. وقال: هذا سحر عظيم منك يا محمد!، وأقبل النبى صلى الله عليه وسلم يحدث أصحابه بما رآه فى السموات والعرش.

٣- فى طور سيناء

فى يقينى أن كل مكان طاهر.. مر به رسول الله ﷺ فى رحلته أثناء إسرائه عليه السلام من مكة إلى القدس الشريف.. إنما كان يمثل دلالات لها معانى قوية ومتعددة.. كان على رأسها أن الله سبحانه وتعالى إنما كان يبشره بفتح هذه البلاد وانتشار الإسلام بها.

وكانت بداية هذ الفتح.. أن خرج الإسلام قوياً من شبه الجزيرة العربية فى اتجاه مصر.. التى كانت بدورها قاعدة انطلاق إسلامية قوية فى اتجاه أفريقيا وبلاد كثيرة أخرى.

وإننا لنعرف جميعا أن أول مسجد أقيم فى الإسلام فى إفريقيا كلها.. كان هو مسجد عمرو بن العاص الموجود حاليا فى مصر القديمة، وربما كانت هذه الدلالات غير غائبة عن الرسول الكريم.. بدليل أنه قد استوصى وأصحابه بمصر وبأهلها خيراً.

ونحن نقول ذلك.. لأنه قد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ، أثناء رحلته من مكة إلى القدس.. على البراق قد مر على طور سيناء.. حيث كلم الله تعالى نبيه موسى عليه السلام.

وفى هذه البقعة الطاهرة.. توقف البراق.. عن طيرانه.. حيث نزل الرسول ﷺ بدوره وبصحبته جبريل عليه السلام.. وصلى بهذه الأرض الطيبة ركعتين لله.

ففى حديث نبوى شريف عن أنس رضى الله عنه قال: «فركبت ومعى جبريل عليه السلام، فسرت، فقال: أنزل فصل، ففعلت، فقال: أتدرى أين صليت؟.. صليت بطيبة، وإليها المهاجر، ثم قال: إنزل فصل فصليت، فقال: أتدرى أين

صليت؟ صليت بطور سيناء.. حيث كلم الله عز وجل موسى عليه السلام، ثم قال: إنزل فصل، فنزلت فصليت، فقال: أتدرى أين صليت؟! صليت فى بيت لحم، حيث ولد عيسى عليه السلام.

ومن واقع متابعة ألفاظ هذا الحديث الشريف.. عرفنا فيما بعد، أى بعدما تحقق وعد الله بانتشار الإسلام.. أن طيبة هذه التى قصدها رسول الله فى رحلة الإسراء.. إنما كانت هى المدينة المنورة التى هاجر إليها الرسول ﷺ وصحبه الكرام، بل وكانت هى المدينة التى عاش بها الرسول الكريم حتى يوم وفاته بها.. بل ودفن جثمانه الشريف بأرضها الطيبة.

ثم كانت أرض طور سيناء.. وهى الأرض التى بارك الله حولها.. حين تحدث فيها لنبيه موسى عليه السلام.. وأمره بحمل رسالة السماء إلى فرعون وإلى بنى إسرائيل، وهى أرض كما نعلم جميعا وفق الإجماع جغرافياً وتاريخياً وعلمياً تعتبر جزءاً عزيزاً من أرض مصر المباركة، والتى زارها كل الأنبياء جميعا بدءاً من إبراهيم عليه السلام ومروراً بعيسى وموسى ثم خاتم الأنبياء والمرسلين، وهذا ما دعى عديداً من المؤرخين إلى تسميتها بأرض الرسالات السماوية.

* * *

وكان شيئاً عجيباً، وأمراً أثار انتباه عديد من الذين كانوا يتابعون معنا خطوات التحضير لهذا الكتاب، عندما أخبرتهم بهذا النبأ العظيم، نبأ زيارة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام لأرض مصر.. مثلما فعل من قبل عيسى عليه السلام، وقد ذكرت لهم الدليل فى قوله الشريف فى الحديث الشريف السابق ذكره.

ثم زار رسولنا الكريم ﷺ بعد ذلك ومن قبل وصوله إلى القدس الشريف.. بيت لحم.. حيث ولد عيسى عليه السلام.. وسوف يكون لنا وقفات قد تطول أو تقصر مع الأماكن المشهورة فى هذه المدينة أيضا بعدما نستوفى طور سيناء الحق نفسه، الذى ناله غيره من الأماكن المشهورة فى حياة محمد.

ولدينا شهادة علمية ودينية مهمة ذكرها العالم الجليل الشيخ محمود عاشور

وكيل الأزهر عن زيارة رسولنا الكريم ﷺ لطور سيناء.. والمعنى والمغزى العظيم لهذه الزيارة، وقد آثرنا ذكرها فى هذا المقام من قبل الحديث عن ذلك الموضع، الذى صلى فيه رسولنا عليه الصلاة والسلام هاتين الركعتين.. وفوق رمال هذه الأرض الطاهرة.

يقول الشيخ عاشور فى هذه الشهادة ضمن حديثه عن دور الأزهر فى عالمنا المعاصر: إن الحديث عن الأزهر لابد وأن يسوقنا للحديث عن مصر، التى حباها الله بنعمة لم يعطها لبلد آخر، وقد تحدث القرآن الكريم عن هذا البلد أكثر من ثلاثين مرة، والمصطفى ﷺ تحدث عن هذا البلد بفخر وإعزاز وإعجاب، وتحدث كذلك عن المدينة وعن مكة، ولكن حديثه عن مكة كان أسى وحزناً على أنه خرج منها، وحديثه عن المدينة للتسكين والراحة، التى وفرتها للمهاجرين الذين قدموا إلى هذه البلدة.

وحين تحدث عن مصر، تحدث بفخر وإعزاز، فقبل الفتح الإسلامى بسنوات طوال، كان ﷺ يجلس مع أصحابه، فقال لهم: «سيفتح الله عليكم مصر، فإذا فتحها الله عليكم فاتخذوا منها جنداً كثيفاً»، واستدرك عليه أبوبكر الصديق - رضى الله عنه - وقال لم يا رسول الله؟ قال: «هم فى رباط إلى يوم الدين».

ثم حينما أسرى بالمصطفى ﷺ، وركب البراق مع جبريل عليه السلام مر بأرض بها نخل كثيف، فقال: ما هذا يا أخى يا جبريل، فقال له: هذه طيبة، طيب الله ثراها، ولم تكن سميت بعد المدينة المنورة فنزل وصلى ركعتين، ثم انطلقا حتى وصلا إلى أرض بيضاء، فقال: ما هذا يا أخى يا جبريل، قال هذا الوادى المقدس طوى، الذى كلم الله عليه موسى فنزلا وصليا، ركعتين.

وبالنظر إلى هذا الحديث نجد دلالة على أن الدعوة المحاصرة بمكة ستنداح إلى المدينة المنورة حتى حين، ثم بعد ذلك تنطلق إلى البلد الذى فيه الوادى المقدس طوى وهى مصر.

وقد كان ذلك، وفتح المسلمون هذا البلد وبنى عمرو بن العاص مسجده بالفسطاط ليصبح أول مسجد فى أفريقيا.

وكان هذا المسجد بمثابة المعهد والجامعة يدرس فيه أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام، وانطلقت منه الدعوة إلى الغرب والشمال حتى استقرت الدعوة الإسلامية فى هذه المنطقة(١).

* * *

وحين يأتى الحديث تفصيلاً عن الوادى المقدس طوى.. حيث كلم الله موسى وأمره بالذهاب بآياته إلى فرعون لهدايته إلى الله الواحد الأحد، فلابد وأن نختلف، خاصة عند الحديث عن مكان ذلك الوادى، ولكننا سوى نجتهد فى أن نحدد بالضبط من خلال عدة مصادر مكان هذه المناجاة. ولكى يتحدد معها بالضبط أيضا.. ذلك المكان الذى صلى فيه رسولنا الكريم ﷺ هاتين الركعتين، وهو فى طريقه إلى بيت المقدس.

* * *

ومن المعروف أن حياة النبى موسى الكليم.. قد انقسمت فيما يخص رحلته الإيمانية إلى مرحلتين.. الأولى.. بدأت من بعد هروبه من مصر إلى مدين.. وإقامته هناك مع النبى شعيب الذى تزوج من إحدى بناته.. وقد عاش بأرض مدين وبالقرب من طور سيناء حوالى عشر سنوات، من قبل أن يكلمه الله ويأمره بالعودة من جديد إلى أرض مصر.. هادياً لفرعون وهامان وقومهما.

أما المرحلة الثانية، فهى التى بدأت بعد وصول موسى عليه السلام إلى مصر.. وفراره منها مرة أخرى مع قوم بنى إسرائيل، الذين توعدهم فرعون بالعذاب بعدما عرف حقيقة النبى موسى الذى جاء لهدايته إلى الوحدانية!.

ولقد عاش موسى عليه السلام وسط بنى إسرائيل على أرض سيناء وبجوار الوادى المقدس طوى حوالى أربعين عاماً.

وكما ذكر القرآن الكريم.. فقد تجلى الله تعالى لنبيه موسى عليه السلام.. فى كل من هاتين المرحلتين.. الأولى كما ذكرنا ليبلغه بحمل رسالة اليهودية وتوحيد

(١) من مقال تُلى فى ندوة نشرت بجريدة صوت الأزهر بتاريخ ١٦ فبراير عام ٢٠٠١.

الله إلى فرعون، والثانية: تحدث خلالها رب العالمين مع نبيه موسى لأجل هداية قومه من بنى اسرائيل.. حيث أنزل عليه التوراة فيها هدى ونور.

ودرءاً للخلاف الذى وقع فيه غيرنا من المؤرخين بغير حق.. نقول إن كلا من هاتين المرحلتين قد وقعت أحداثهما الخاصة بالمناجاة تقريبا فى مكان واحد.. وذلك وفق تأكيد القرآن الكريم.. فتعالوا نستمع سوياً إلى ما جاء به رسولنا الكريم ﷺ فى الآيات البينات وما أنزل عليه فى هذا الشأن. حيث قال الله تعالى فى محكم هذه الآيات ﴿**فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ (٣١) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ**﴾ [القصص الآيات من رقم ٢٩ -٣٢].

وفى تفسير ابن كثير لهذه الآيات فى كتابه قصص الأنبياء قال: لقد أتم موسى الأجلين وأكملهما، وقد يؤخذ هذا من قوله ﴿**فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ**﴾ عن مجاهد أنه أكمل عشراً وعشراً بعدها. وقوله ﴿**وَسَارَ بِأَهْلِهِ**﴾ أى من عند صهره، وفيها ذكره غير واحد من المفسرين أنه اشتاق إلى أهله، فقصد زيارتهم فى مصر فى صورة متخف، فلما سار بأهله ومعه ولدان منهم وغنم قد استفادها مدة مقامه، قالوا: واتفق ذلك فى ليلة مظلمة باردة، وتاهوا فى طريقهم، فلم يهتدوا إلى السلوك فى الدرب المألوف.. واشتد الظلام والبرد.. فبينما هو كذلك إذ أبصر عن بعد ناراً تأجج فى جانب الطور، وهو الجبل الغربى منه، ﴿**قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا**﴾.. وكأنه والله أعلم رآها دونهم.. لأن هذه النار هى نور فى الحقيقة، ولايصلح رؤيتها لكل أحد ﴿**لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ**﴾.. أى لعلى أستعلم من عندها على الطريق ﴿**أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ**﴾.

فدل على أنهم كانوا قد تاهوا عن الطريق فى ليلة باردة مظلمة، لقوله تعالى فى الآية الأخرى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ۝٩ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ [طه الآيات ٩-١٠].

* * *

وجمع الله الكل فى سورة النمل فى قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل آية ٧].

وقال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ،وقال تعالى فى سورة النمل: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [آية ٨].

وقال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ۝١١ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ۝١٣ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه الآيات ١١-١٢-١٣-١٤].

ويضيف ابن كثير فى تفسيره لظاهر هذه الآيات التى نأخذ بها كدليل مؤكد على المكان الذى صلى فيه رسولنا الكريم ﷺ .. والذى هو المكان نفسه الذى كلم فيه رب العالمين نبيه وعبده الكريم موسى عليه السلام.

يقول ابن كثير فى هذه الإضافة: قال غير واحد من المفسرين من السلف والخلف: لما قصد موسى إلى تلك النار التى رآها فانتهى إليها، وجدها تأجج فى شجرة خضراء من العوسج، وكل ما لتلك النار فى اضطرام، وكل ما لخضرة تلك الشجرة فى ازدياد فوقف متعجباً، فكانت تلك الشجرة فى لحف جبل غربى منه عن يمينه، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾[1] [القصص الآية ٤٤].

(١) قصص الأنبياء للإمام الحافظ بن كثير - طبعة جديدة

وكلم الله موسى فى واد بسيناء اسمه طوى فكان موسى مستقبل القبلة، ولتلك الشجرة عن يمينه من ناحية الغرب، فناداه ربه بالوادى المقدس طوى فأمره أولا بخلع نعليه تعظيماً وتكريماً وتوقيراً لتلك البقعة المباركة.

أما أبا إسحاق النيسابورى فقد ذكر بعض التفاصيل الأخرى فى كتابه المعروف باسم «عرائس المجالس»، ومما ذكره عن ذلك قوله: فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله منفصلاً من أرض مدين، وكان فى أيام الشتاء ومعه امرأته وهى ابنة شعيب عليه السلام.. وكذلك أغنام وهى فى شهرها لا تدرى أتضع ليلاً أم نهاراً.

وقد سار موسى فى البرية غير عارف بطرقها فألجأه المسير إلى جانب الطور الأيمن الغربى فى عشية شاتية شديدة البرد، وأظلم عليه الليل، وأخذت السماء ترعد وتبرق وتمطر، وأخذ امرأته الطلق، فعمد موسى إلى زنده فقدحه فلم ينور فتحير وقام وقعد؛ إذ لم يكن له عهد بمثل ذلك فى الزند، وأخذ يتأمل ما قرب وما بعد تحيراً وضجراً ثم أخذ يتسمع طويلاً عله يسمع حساً أو حركة، وبينما هو كذلك إذ آنس من جانب الطور نوراً فحسبه ناراً[1].

ويؤكد النيسابورى فيما ذكره من تفاصيل أخرى: ولم يزل أهل موسى مقيمين فى ذلك المكان الذى تركهم فيه لايدرون ما فعل موسى، حتى مر بهم راع من أهل مدين فعرفهم فاحتملهم وردهم إلى مدين فكانوا عند شعيب حتي بلغهم خبر موسى بعد أن فلق البحر وجاوزه ببنى اسرائيل وأغرق الله فرعون فبعث بهم شعيبا إلى مصر لموسى.

* * *

ولما رجع موسى عليه السلام إلى مصر.. محملاً بتعاليم رب العالمين؛ لهداية فرعون.. وتبصرته بوحدانية الله.. انتهت تقريباً المرحلة الأولى من الدعوة اليهودية.. التى اختص بها الله تعالى قوم فرعون أولاً خاصة فى هذه المرحلة.

ولما تكبر فرعون.. وعلا فى الأرض، ورفض دعوة موسى بالهداية والتوحيد، أخذ فى الإعداد للتنكيل به عليه السلام وبقومه من بنى اسرائيل.

(١) قصص الأنبياء - أو عرائس المجالس - لأبى إسحاق إبراهيم النيسابورى..

عندئذ.. جاء الأمر لموسى عليه السلام بالرجوع من جديد إلى أرض مدين.. التى عبرها من خلال البحر الأحمر الذى شقه نصفين بعصاه، وهنا بدأت الرحلة الثانية من دعوة موسى للديانة اليهودية.. التى وجهت فى هذه المرحلة إلى قومه من بنى إسرائيل.. وفيها كذلك تمت المناجاة الثانية من رب العالمين لموسى عليه السلام.. كما تم فيها أيضاً نزول التوراة والألواح.

ووفقاً لظاهر النص القرآنى فقد تمت تلك المناجاة فى المكان نفسه، الذى تجلى فيه رب العالمين لموسى عليه السلام، وهو ما سوف نعرفه من خلال استعراضنا لما جاء بالقرآن الكريم وما ذكره المفسرون.

فقد قال الله تعالى فى سورة الشعراء تعبيراً عن الإذن لموسى عليه السلام بالرحيل من مصر، بعدما ظهرت نوايا فرعون فى عدم الإيمان بالله.. وبتعذيب قوم موسى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

[الشعراء الآيات من ٥٢-٦٨].

وقال علماء التفسير: لما ركب فرعون فى جنوده طالباً بنى اسرائيل، يقفو أثرهم كان فى جيش كثيف، حتى قيل كان فى خيوله مائة ألف فحل أدهم، وكانت عدة جنوده تزيد على ألف ألف وستمائة ألف والله أعلم. وقيل إن بنى إسرائيل كانوا نحو ستمائة ألف مقاتل غير الذرية ، وكان بين خروجهم من مصر بصحبة

موسى عليه السلام، ودخولهم إليها بصحبة أبيهم إسرائيل أربعمائة سنة وستاً وعشرون سنة شمسية.

والمقصود أن فرعون لحقهم بالجنود.. فأدركهم عند شروق الشمس، وتراءى الجمعان، ولم يبق ثم ريب ولا لبس، وعاين كل من الفريقين صاحبه وتحققه ورآه. ولم يبق إلا المقاتلة والمجادلة والمحاماة، فعندها قال أصحاب موسى وهم خائفون: ﴿إنا لمدركون﴾.

وذلك لأنهم اضطروا فى طريقهم إلى البحر فليس لهم طريق ولامحيد إلا سلوكه وخوضه، وهذا مالا يستطيعه أحد ولايقدر عليه، والجبال عن يسرتهم وعن أيمانهم وهى شاهقة منيعة.

فقال الرسول الصادق المصدوق: «كلا إن معى ربى سيهدين» وكان فى الساقة فتقدم إلى المقدمة، ونظر إلى البحر وهو يتلاطم بأمواجه وهو يقول: ها هنا أمرت، ومعه أخوه هارون ويوشع بن نون. الذى أوحى الله إليه وجعله نبياً من بعد موسى عليه السلام.

وقال الله تعالى: **﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾**،[الشعراء الآية ٦٣] ويقال إنه انفلق اثنى عشر طريقاً، لكل سبط طريق يسيرون فيه.

وهكذا نجا قوم موسى عليه السلام، بعدما عبروا البحر فى طريقهم إلى أرض مدين مرة أخرى.. ليصبح هذا النبى على موعدة مع المرحلة الثانية من نشر الديانة اليهودية، والتى خص بها الله قوم موسى فقط من الذين عبروا معه ذلك البحر.

وكان لابد من نزول تشريعات تحدد علاقة هذا النبى بأتباعه من بنى إسرائيل ولتبين لهم كيفية عبادة الله الواحد الأحد.. وهو ما نزلت به التوراة التى أوحى الله بها إلى نبيه موسى عليه السلام، فى الوادى المقدس طوى حيث كلمه رب العالمين للمرة الثانية.. موضحاً له أصول علاقته المقبلة مع قومه من بنى إسرائيل، الذين ما لبثوا أن كفروا بالله الواحد الأحد.. واتخذوا من العجل إلهاً لهم من دون الله!!.

والقرآن الكريم يوضح لنا ذلك فى قول الله تعالى فى سورة البقرة: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة الآيات ٤٩-٥٣].

وكذلك فى قوله تعالى فى سورة الأعراف: ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف الايات من ١٤٢ إلى ١٤٥].

* * *

وفى تفسير لطيف للنيسابورى بخصوص ما جاء بهذه الآيات بالنسبة للألواح والمكان الذى كلم فيه رب العالمين نبيه موسى للمرة الثانية.. قال على لسان بعض المفسرين والعلماء: إن موسى كان قد وعد بنى اسرائيل وهو بمصر إذا خرجوا منها وهلك عدوهم أن يأتيهم بكتاب فيه ما يأتون وما يذرون، فلما أهلك الله تعالى فرعون وقومه واستنقذ بنى اسرائيل من أيديهم وأمنهم من عدوهم، ولم يكن لهم كتاب ولا شريعة ينتهون إليها، قالوا يا موسى: ائتنا بالكتاب الذى وعدتنا به، فسأل موسى ربه ذلك، فأمره الله أن يصوم ثلاثين يوماً ثم يتطهر ويطهر ثيابه ويأتى طور سيناء ليكلمه ويعطيه ذلك الكتاب. فصام ثلاثين يوماً، فلما صعد الجبل أنكر خلوف فيه فتسوك بعود خرنوب.

وقال أبو العالية: أخذ من لحاء الشجر فمصه، فقالت له الملائكة إنا كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدتها بالسواك، فأوحى الله إليه أن صم عشرة أيام أخر.

وقال له أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندى من رائحة المسك، وكانت فتنتهم فى الأيام العشرة التى زادها الله تعالى على موسى، فذلك قوله تعالى: ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة﴾ «يعنى من ذى القعدة،» وأتممناها بعشر «يعنى من ذى الحجة».

* * *

ومن كل ما تقدم نعرف تلك المنزلة العظيمة التى وهبها الله لأرض سيناء.. خاصة تلك المنطقة المحيطة بالطور.. والمعروفة بطور سيناء أو البقعة المباركة من الوادى المقدس طوى، ولدينا فى عصرنا الحديث مدينة مصرية جميلة معروفة بمدينة الطور بجنوب سيناء، وربما يكون لتسميتها دخل كبير فى أنها شهدت عديداً من هذه الأحداث الدينية المباركة، سواء لما حدث لموسى عليه السلام، أو ما حدث لمحمد عليه الصلاة والسلام، وفق ما جاء بالحديث الشريف السابق الإشارة إليه.

ونظراً لما أوتى الإنسان من رجاحة عقل وقوة تفكير..، وهى بلاشك إحدى هبات الله تعالى لعباده.. فقد دأب ذلك الإنسان على أن يعمل عقله فى كثير من المسائل والموضوعات الدينية وغير الدينية، وإن كانت الموضوعات والمسائل الدينية هى الغالبة.. ذلك لبعدها الإنسانى العميق وارتباطها بحركة الإنسان نفسه ورغبته فى الوقوف على بعض الذى أغفلته الكتب المقدسة.. ومنها وعلى رأسها بطبيعة الحال القرآن الكريم.

وتحقيقاً لسنة الله فى خلقه من ضرورة أن يستخدم الإنسان عقله للوصول إلى المعرفة الصحيحة. ولم يكن الخلاف أبداً إحدى عوائق حركة الإنسان فيما أقدم عليه من حسم لبعض الأمور المتعلقة؛ خاصة بالنسبة لقضايا بعينها، جاء ذكرها فى الكتب المقدسة.. ومعظمها يتعلق بالأماكن والأسماء والأزمنة.

لذلك.. فسوف نفسح المجال من خلال الأوراق القادمة؛ لكى يقول علماء

الجغرافيا والتاريخ كلمتهم فيما يخص تحديداً.. طور سيناء والوادى المقدس طوى، ولن نلتفت فى هذا السياق للأصوات العالية التى ترفض هذا الرأى أو ذاك، وكذلك لن نعدم وسيلة بتوفيق الله فى التوفيق بين أكثر الآراء رجاحة فى هذا السياق، وصولاً ولو على سبيل التحديد المجازى لتلك البقعة المباركة، التى زارها رسولنا الكريم ﷺ كأخر أنبياء الله الصالحين، الذين شرفوا أرض مصر بزيارتهم المباركة؛ حيث سبقه عليه السلام وكما نعلم جميعاً.. كل من النَّبيَّيْنِ موسى وعيسى عليهما السلام.

وفى بداية هذا الاستقراء والاستقصاء، يقول الأستاذ الدكتور أحمد فخرى أستاذ تاريخ مصر والشرق القديم بآداب القاهرة: «لاتقتصر أهمية شبه جزيرة سيناء من الناحية التاريخية على ما فيها من مناجم أو معابد أو نقوش، ولكن اسمها يرتبط بحادث مهم آخر، كانت سيناء مسرحاً له فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد حسب رأى بعض العلماء، أو بعد ذلك بقرنين من الزمان حسب البعض الآخر، ذلك الحادث هو خروج بنى إسرائيل من مصر وتجولهم فى صحراء سيناء.

وينقل الدكتور أحمد فخرى روايتين تاريخيتين على جانب كبير من الأهمية.. ونحن نستطيع من بعد قراءتهما بعناية أيضاً أن نضع أيدينا، ولو مجازاً على ذلك المكان أو ذلك الوادى المقدس طوى، الذى شرفه رسول الله ﷺ بزيارته ليلة الإسراء والمعراج..

الرواية الأولى كتبتها القديسة «سيلفيا» التى ذهبت إلى سيناء، وتركت لنا وصفاً ساعد كثيراً على تحديد بعض الأماكن الدينية العامة ـ على حد قول المؤلف ـ وقد قامت هذه القديسة برحلتها من فلسطين، فوصلت إلى مدينة الفرما (بلوزيوم شرق بورسعيد)، ثم وصلت إلى الدلتا.. وأرادت أن تسير فوق الطريق الذى كان شائعاً فى عصرها أن العبرانيين قد ساروا فيه مارة بحصن القلزم (السويس).. ودخلت فى صحراء «سين».. وبعد ذلك بنخيل منطقة المرة حيث توجد عينان من الماء (عيون موسى). وتذكرت بعد ذلك أنه لايوجد ماء مسيرة ثلاثة أيام؛ حتى وصلت

إلى مكان ذكرت أن اسمه «آراندارا» (وادى الغرندل)، وهو المذكور فى قصة الخروج باسم «إيليم»، وهناك ماء وأشجار كثيرة.

ثم ذكرت بعد ذلك أنها وصلت إلى واد عرضه نحو ٦ آلاف خطوة، وفى جبله قطعت حجرات كثيرة، وقالت بأنها رأت بعض كتابات عبرية هناك، وأن مياه الوادى غزيرة، ويوجد به كثير من أشجار النخيل، وأن المكان كان يسمى «صحراء فاران».

وعلى بعد ١٥٠٠ خطوة من حصن فاران، يضيق الوادى حتى يصبح عرضه ٣٠ خطوة، وقالت بأن هذا المكان هو موقع «رفيديم» القديم، وبعد ذلك مباشرة ذكرت كنيسة كانت هناك.

وتستمر القديسة سيلفيا فى قصتها، فتقول بأن جبل سيناء كان على بعد ٣٥ ميلاً؛ أى نحو ٥١ كيلو متراً، وأن الجبل كان مملوءاً بالمقابر، وأنها عند وصولها إلى ذلك الجبل زارت ديراً داخله كنيسة ومعمودية.

وعلى قمة ذلك الجبل الصعب المرتقى توجد كنيسة صغيرة. وفى وصفها لطريق العودة نعرف أنها مرت بفيران، كما مرت بوادى المرخا على ساحل البحر، وأنها سارت حتى وصلت إلى القلزم[١].

ويضيف الدكتور فخرى قولاً على ما سبق وروته هذه القديسة أن لدينا وصفاً آخر قدمه لنا الراهب «كوزماس»، وقد ناقش فيه الطريق الذى سار فيه العبرانيون وهو يتفق مع وصف القديسة سيلفيا بأن العبرانيين شقوا البحر على مقربة من السويس؛ حيث كانت توجد غابات من النخيل، ثم دخلوا صحراء «سين» ومروا بمنطقة «مرة» ثم بإيليم، التى أطلق عليها اسم «راثيو» وهو اسم مدينة الطور. وربما كان هذا الاسم الذى كان يطلق عليها فى أيامه، وأشار إلى وجود اثنى عشر عيناً والنخيل الذى هناك.

ويستمر بعد ذلك فيقول: إن العبرانيين وصلوا إلى رفيديم، التى كانت تسمى

(١) تاريخ شبه جزيرة سيناء منذ أقدم العصور حتى ظهور الإسلام ـ د. أحمد فخرى.

إذ ذاك «فاران»، ويذكر بعد ذلك أن جبل سيناء على بعد ستة أميال من فاران.

ويقول الدكتور فخرى: أننا لو قارنا بين وصف القديسة سيلفيا، ووصف كوزماس لوجدنا أن هناك اتفاقاً عاماً على الطريق مع اختلاف فى نقطتين، فهما متفقان فى أن الطريق الذى سار فيه العبرانيون، هو عبور البحر على مقربة من القلزم (السويس)، ثم الوصول إلى عين موسى على مقربة من شاطئ البحر، ثم مروراً بعد ذلك بوادى الغرندل، ثم بوادى مكتب حيث توجد الكتابات البنطية الكثيرة، وأخيراً وصلوا إلى واحة فيران ومنها إلى جبل موسى؛ حيث يوجد الآن دير سانت كاترين، ولكنهما يختلفان فى ان كوزماس ذكر بدلاً من الغرندل اسم «رافيو». . كما جعل جبل سيناء على مسافة ستة أميال، بدلاً من الخمسة والثلاثين ميلاً التى ذكرتها سيلفيا.

ويؤكد الدكتور فخرى أن وصف سيلفيا أدق؛ لأنه من المشكوك فيه أن كوزماس قد قام بمثل هذه الرحلة، بل نقل وصفها عن غيره ووقع فى بعض الأخطاء[1].

ولكن وجود مثل هذا الخلاف لايغير من الحقيقة المهمة شيئاً، وهو أنه فى منتصف القرن السادس الميلادى كان جبل موسى عامراً بالرهبان، وأنه كانت تقوم فيه كنيسة داخل الدير. . وهذا بدوره يؤيد نسبة إقامة تلك الكنيسة وتشييد ذلك الدير الحصين إلى الامبراطور «جوستنيان» فى النصف الأول من ذلك القرن، وأن موقع دير سانت كاترين أصبح موضعاً مهمًّا لتجمع الرهبان حوله.

وهناك إلى جانب دير سانت كاترين، يوجد أيضاً مسجد صغير، بنى فى أيام الفاطميين؛ تنفيذاً لرغبة الوزير أبو النصر أنوشطاقين فى عام ٥٠٠ هجرية -١١٠٦م حسب ما هو مذكور على منبر هذا المسجد، وذلك فى أيام الخليفة الفاطمى المسمى بالآمر.

والمسجد نفسه مكون من حجرة واحدة، لايزيد اتساعها عن ٧×١٠ أمتار، ويحمل سقفه عمودين وفوقه مئذنة بسيطة ترتفع نحو عشرة أمتار.

---

(١) المصدر السابق.

وعلى الرغم من بساطة هذا المسجد، ففيه قطعتان أثريتان مهمتان أحدهما كرسى ليوضع عليه المصحف الشريف والثانى منبره، الذى يعتبر من الآثار المهمة الباقية من هذا العصر، ويقارنه علماء الآثار الإسلامية من حيث أهمية زخارفه بمنبر مسجد قوص فى محافظة قنا ومنبر جامع الخليل فى فلسطين[1].

* * *

هذا من حيث التأريخ الدينى لسيناء، وتفاصيل ما شهدته من أحداث على جانب كبير من الأهمية.. أما من حيث كلام علماء الجغرافيا.. فإننا سوف ننقل منه بعض الذى ذكروه مع ربطه بما قيل من بعض العلماء عن جبالها، وعن ارتباط هذه الجبال برسالة موسى عليه السلام.

وهى معلومات كما سوف نرى لاتبتعد كثيراً عن موضوع هذه الأوراق، والتى خصصناها لحديث الأماكن المشهورة فى حياة محمد عليه الصلاة والسلام.

* * *

ومما ذكره علماء الجغرافيا فى هذا الشأن قولهم: إن سيناء مقسمة إلى عدة قمم جبلية عالية.. وكل قمة منها تسمى جبلاً؛ فهناك جبل موسى.. الذى يقع فى دائرتى عرض شمال ٣٢ و٢٨ وطول شرقى ما بين ٣٨ و٣٣، وهو يعلو نحو أكثر من سبعة آلاف قدم عن سطح البحر، وقد بنى على رأسه كنيسة لرهبان دير سيناء، وجامع أصغر منها.

ويبدو أن المقصود هو دير سانت كاترين، وكذلك الجامع السابق الإشارة إليه، ثم جبل المناجاة ويقع شمال جبل موسى.. ويقول عنه البدو إنه الجبل الذى عليه ناجى الله موسى عليه السلام، وقد اتخذ من ذلك اسمه، وهو يرتفع حوالى ٦ آلاف قدم عن سطح البحر.

وهناك أيضاً جبل الصفصافة الذى يقع إلى الشمال الغربى من جبل موسى،

---

(١) موسوعة سيناء. - الهيئة العامة للإستعلامات..

وسبب هذه التسمية أن فى سفحه الشرقى توجد «صفصافة»، وهو يعلو عن سطح البحر بمقدار ستة آلاف قدم، ويطل على سهل فسيح يدعى «وادى الراحة». وفى طرفه الشرقى، وعند مصب وادى الدير، وعلى بعد نحو ميل واحد، يوجد تل صغير فوقه كوخ من الحجارة، يطلق عليه مقام «النبى هارون».

ويؤكد نعوم شقير فيما كتبه أن أكثر المحققين والعلماء قد ذهبوا إلى أن جبل «صفصافة» المشار إليه آنفاً، هو ذلك الجبل الذى وقف فوقه موسى عليه السلام عند إلقائه الوصايا العشر على بنى اسرائيل، وأن سهل وادى الراحة هو الذى وقف فيه الإسرائيليون عند تلقينهم هذه الوصايا. كما أن التل الذى عليه الآن مقام النبى هارون هو ذلك التل الذى عبد عنده الإسرائيليون العجل الذهبى، الذى صنعه لهم السامرى فى غياب موسى عليه السلام، وهو فى رأس ذلك الجبل.

* * *

وفى العصر الحديث حاول الرئيس الراحل أنور السادات إحياء فكرة الجذب الدينى إلى هذه المنطقة، لأتباع الأديان الثلاثة.. ففكر فى إقامة ما سمى آنذاك باسم «مجمع الأديان». ولكن هذه الفكرة ماتت برحيله، وظلت المنطقة على ما هى عليه من هدوء.. فى ظل ما ينعم به الآن سكان هذه المناطق المباركة.. سواء من الرهبان أو من غيرهم من الوافدين عليها أو المقيمين بها من زمن طويل.

ولسوف تظل كذلك فى تصورنا إلى قيام الساعة.. ولم لا؟.. فهى جزء عظيم من الوادى المقدس، الذى تجلى فيه رب العالمين لعبده ونبيه الكريم موسى عليه السلام.. وهو أيضاً الوادى نفسه الذى شُرِّف بزيارة المصطفى ﷺ .

٤- في بيت لحم

رغم أن زيارة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام.. إلى مدينة بيت لحم، وهو فى طريقه عليه السلام إلى بيت المقدس.. فى رحلة الإسراء والمعراج.. كانت زيارة قصيرة بالمعنى الحديث.. إلا أنها كانت أيضاً كبيرة فى معناها ومغزاها.. خاصة إذا ما عرفنا أن هذه الزيارة كان مأموراً بها من قبل رب السموات والأرض.. وبصحبة رسول الوحى جبريل عليه السلام.

وهى فى حقيقة الأمر لم تكن زيارة عادية، بل كانت زيارة رؤية وتقدير لأحد أنبياء الله الصالحين وهو عيسى عليه السلام.. إذ أُمر رسول الله ﷺ وكما مر علينا آنفاً بأن ينزل من البراق الذى حط فوق أرض بيت لحم لكى يصلى ركعتين لله تحية لنبيه عيسى عليه السلام.

من هنا ـ ونحن نرى ذلك ونؤكده ـ من الضرورى أن تحظى هذه المدينة المقدسة بإهتمامات المسلمين تماماً شأنهم فى ذلك شأن إخوانهم المسيحيين، رغم الاختلافات التى بيننا فى أمور كثيرة.

وهذا الاهتمام لابد وأن يظهر فى صور متعددة، خاصة وهى تعيش فى هذه الأيام فى ظل ظروف تمر بها هذه المدينة المقدسة التى يدنسها كل لحظة أقدام اليهود.. على الرغم من أنها قد عادت على الورق فقط للتبعية العربية وأصبحت تحت ما يسمى الآن بإدارة السلطة الفلسطينية.

وليس من العيب أبداً أن نقف نحن المسلمون وبقوة لأجل استنهاض همم الدول غير المسلمة لرفع شأن هذه المدينة المقدسة.. ونحن شركاء أصليون فيما سوف ندعو إليه.. ذلك لأن رسولنا محمد ﷺ قد شرفها بزيارته.. بل وصلى

بها ركعتين سجوداً لله. كما أنها ذلك البلد الذى شرفه رب العالمين بولادة نبيه الكريم عيسى عليه السلام.

* * *

ولقد بدأنا بأنفسنا من فوق هذه الأوراق.. حيث اخترنا هذه المدينة المقدسة لكى تكون من بين أهم الأماكن المشهورة فى حياة رسولنا الكريم، صلى الله عليه وسلم، هذا الاختيار يستوجب منا تقديم كل ما هو متاح من معلومات دينية وتاريخية وجغرافية عن مدينة بيت لحم. سواء فى الماضى أو فى الحاضر على أمل أن يتناولها غيرنا بالتفصيل المطلوب حتى ولو كان كاتباً من أهل الكتاب أو من النصارى.

إذ لاحظنا أن مستوى الاهتمام بالمدينة ومابها من آثار لايرقى إلى الاهتمام بغيرها من المدن المسيحية. إن جاز هذا التعبير، والموجودة فى المنطقة نفسها. بل إن هذا الاهتمام قد تحول إلى اهتمام ثانوى فقط.. حيث لايطفو ترديد اسمها أو الكتابة عنها.. إلا بمناسبة مولد المسيح عليه السلام.. فى تواريخ اختلف فى تحديدها المؤرخون منذ قرون ماضية، وهو ما يطلقون عليه الآن لفظ الاحتفال «بأعياد الميلاد»، حيث يفد إلى هذه المدينة فى مثل هذا اليوم من كل عام آلاف المسيحيين من كل أنحاء العالم؛ للاحتفال بهذا الميلاد فوق أرض الميلاد نفسها.

والسؤال الذى نطرحه هنا.. وفى السياق ذاته.. ولماذا لا نبادر نحن المسلمين أيضاً بزيارة هذه المدينة فى التاريخ أو الموعد المحدد.. الذى تم الاتفاق عليه بشأن رحلة الإسراء والمعراج؟!.. إن زيارة المسلمين لهذه المدينة حتى من بعد تحريرها وزوال غُمة الصهيونية عنها.. سوف يضيف لنا ولها أبعاداً متعددة من التسامح.. حيث يلتقى أصحاب الديانتين الإسلامية والمسيحية فوق أرض ولد بها رسول الله عيسى عليه السلام.

وحتى فى حال عدم قدرتنا على تحقيق هذه الزيارة، والتبرك بما فيها من أماكن

مشهورة.. خاصة بميلاد المسيح عليه السلام وبالمكان الذى صلى فيه رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام. لابد لنا وأن نتذكرها بالإصلاح وبالدعوة إلى الله بأن يجعلها مدينة دينية مفتوحة، وهى ربما تكون أو كانت كذلك فى الماضى.

وسؤال آخر فرض نفسه بقوة: وهل هناك مساجد قد أقيمت فى المدينة نفسها أو فى ربوعها؟!.. ولم لا.. فإن بالمدينة المقدسة.. القدس الشريف.. بيوت الله منتشرة.. فى كل مكان هناك.. بخلاف المسجد الأقصى وقبة الصخرة. فلماذا لايكون للمسلمين فى مدينة بيت لحم مسجد كبير أو جامعة إسلامية.. يتم بناؤها فى المكان الذى صلى فيه رسولنا الكريم ﷺ هاتين الركعتين المنصوص عليهما فى الحديث الشريف السابق الإشارة إليه. وأنا لا أجزم بعدم وجود أماكن إسلامية مقدسة بمدينة بيت لحم.. فربما يكون بها هذه الأماكن.. ولكن شهرتها كمكان لميلاد المسيح.. خاصة فى ذهن أتباع المسيحية الغربيون قد غطت على أهميتها أيضاً بالنسبة للمسلمين.

وربما أيضاً.. تلك السياحة التاريخية والدينية، التى سوف نقوم بها من خلال ما كتب عن هذه المدينة، تسوق إلينا أو تقرب لنا هذه المدينة بما فيها.. وهى بحق تستأهل منا هذا الاهتمام.

* * *

ولقد رأينا أن خير ما نبدأ به هذه السياحة.. أن نذكركم بما جاء بالحديث الشريف عن مدينة بيت لحم.. التى صلى بها رسولنا ﷺ ركعتين تحية لها.. وقد جاء بهذا الحديث الشريف: «.. ثم قال: إنزل فصل، فنزلت فصليت، فقال: أتدرى أين صليت؟!.. صليت ببيت لحم، حيث ولد عيسى عليه السلام».

وكما نعرف جميعاً فإن هذا الجزء من الحديث الشريف هو جزء أصيل من حديث طويل، ذكره أكثر من كتاب من الكتب التى سجلت لنا بكل صدق وأمانة الأحاديث النبوية الشريفة خاصة أحاديث الإسراء والمعراج.

وما نود أن نشير إليه أيضاً فى هذا السياق. . أن زيارة رسولنا الكريم ﷺ لمدينة بيت لحم حيث ميلاد عيسى عليه السلام. . قد سبقت زيارته الشريفة إلى بيت المقدس التى كانت ختام رحلة الإسراء. . وبداية رحلة المعراج. . ربما بساعات أو بدقائق، حسبما اقتضت قدرة الله، الذى سخر الزمن فى هذه الليلة لنبيه وحبيبه ومصطفاه محمد رسول الله ﷺ .

ولاشك أن الحديث عن ذلك التوقيت لايهمنا كثيراً بقدر ما يهمنا فى المقام الأول حديث المعنى والمغزى والهدف. وهذا ما سوف نشير إليه بالتفاصيل فى الكلمات التالية. . وذلك عندما نتناول تفصيلاً هذه المدينة المقدسة، والظروف التى أحاطت بميلاد المسيح عليه السلام. . خاصة وأن هناك شبه إجماع بين المؤرخين على أن مدينة بيت لحم لم تكن هى المدينة، التى عاشت بها أفراد أسرته وعائلته من آل زكريا عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام. بل كانت الناصرة هى تلك البلدة التى عاشت بها السيدة العذراء مريم بالقرب من أهلها هناك. . حيث عاش النبى زكريا وابنه يحيى عليهما السلام.

ولاشك أيضاً أن الحديث عن مغزى هذه الزيارة المباركة ومعناها يدخل فى صميم حديثنا عن أهم الأماكن المشهورة، التى ارتبطت بحياة محمد عليه الصلاة والسلام، وكذلك مسيرة الدعوة الإسلامية، باعتبار أن كل مكان وطأته أقدامه الشريفة، يهم كل مسلم حتى ولو كان فى الصين!!.

وقد لاحظنا أن هناك شبه إجماع خاصة بين المؤرخين الغربيين، الذين رددوا كثيراً. . اختلاف مكان إقامة مريم عليها السلام ومولد إبنها عيسى المسيح، بل ونجد أن أكثرهم قد ربط بين أسباب زحف عائلة مريم الصغيرة، وبين بيت لحم، ذلك المكان الذى ولد به عليه السلام.

وقالوا فى ذلك كلاماً كثيراً. . مؤداه أن مريم وابن خالتها أو قريبها يوسف النجار أو خطيبها، فى أكثر من رواية، قد أخذها من الناصرة وهى حامل واتجه بها إلى بيت لحم لتسجيل اسميهما فى ذلك التعداد، الذى فرضه الرومان آنذاك

على كل سكان هذه المناطق.. وبمجرد وصول هذه العائلة الكريمة إلى مشارف بيت لحم، وجدوا زحاماً شديداً من الوافدين إليها من كل أنحاء فلسطين للغرض نفسه.. مما جعل مريم تنزل بمغارة فى أحد الجبال المطلة على المدينة.. وداخل هذه المغارة تجلى لها الملاك جبريل، الذى نفخ فى درعها نفخة وجود المسيح عليه السلام.

كما لاحظنا كذلك أن عديداً من المؤرخين المسلمين وكتاب السيرة النبوية قد أخذوا عن هؤلاء المؤرخين الغربيين هذه الأقاويل.. وكرروها كثيراً فى أكثر من موضع، وبما أننا قد أخذنا على أنفسنا منذ البداية التمسك بظاهر النصوص القرآنية وما جاء بالأحاديث النبوية.. فسوف نتوقف عن مناقشة كل هذه الأقاويل.. مكتفين بما جاء فى الحديث الشريف السابق ذكره عن بيت لحم.. تلك المدينة العظيمة، التى ولد بها السيد المسيح عليه السلام.

ولسوف نركز جهودنا البحثية فى الفقرات القادمة للحديث عن بيت لحم وتاريخها.. وكل ما قيل عنها وعن دورها المهم فى مسيرة الديانات السماوية، استكمالاً للحديث السابق عن كل الأماكن المشهورة، التى ارتبطت بالرسول الكريم محمد عليه الصلاة والسلام.

* * *

وكانت وجهتنا المعلوماتية الأولى هو ما جاء أولاً فى معجم البلدان للإمام ياقوت الحموى.. حيث ذكر عن مدينة بيت لحم: «بالفتح وسكون الحاء المهملة: بليد قرب بيت المقدس عامر فيه سوق وبازارات، ومكان مهد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام»، قال مكى بن عبد السلام الرميلى ثم المقدسى: رأيت بخط شرف بن مرجا بيت لخم بالخاء المعجمة وسمعت جماعة من شيوخنا يروونه بالحاء المهملة، وقد بلغنى أن الجميع صحيح جائز.

وقال البشارى: : بيت لحم قرية على نحو فرسخ من جهة جبرين، بها ولد عيسى عليه السلام، وثم كانت النخلة وليس تُرطب النخيل بهذه الناحية، ولكن جُعلت لها آية، وبها كنيسة ليس فى الكورة مثلها.

ولما ورد عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى بيت المقدس، أتاه راهب من بيت لحم فقال له: معى منك أمان على بيت لحم، فقال له عمر: ما أعلم ذلك؟ فأظهره وعرفه عمر، فقال له: الأمان صحيح ولكن لابد فى كل موضع للنصارى أن نجعل فيه مسجداً، فقال الراهب: إن بيت لحم حنية مبنية على قبلتكم فاجعلها مسجداً للمسلمين ولا تهدم الكنيسة، فعفا له عن الكنيسة وصلى إلى تلك الحنية واتخذها مسجداً، وجعل على النصارى إسراجها وعمارتها وتنظيفها، ولم يزل المسلمون يزورن بيت لحم، ويقصدون تلك الحنية، ويصلون فيها وينقل خلفهم عن سلفهم أنها حنية عمر بن الخطاب. وهى معروفة الآن لم يغيرها الفرنج لما ملكوا البلاد، ويقال إن فيها قبر داود وسليمان عليهما السلام[1].

* * *

وجاء عن هذه المدينة من معلومات مهمة.. ما ذكره الحميرى فى كتابه «الروض المعطار فى خبر الأقطار».. حين قال: بيت لحم: بقرب إيلياء من أرض الشام، وهناك كنيسة يقال لها الجسمانية على فرسخ منها مما يلى قبيلها فى مستو من أرض بيت لحم، وبه ولد المسيح عليه السلام، وبه النخلة التى تساقطت على مريم رطباً جنياً، والسرى الذى جعل الله تحتها فشربت منه وتطهرت به، والمهد الذى جعلت فيه المسيح حين ولدته، وهو حوض أبيض غسلته فيه وهو قريب من العين.

وإلى جانب بيت لحم توجد كنيسة يقال لها «مايان» فيها الصبيان، الذين قتلوا على اسم الملك بين سنة إلى ثلاثة أشهر قتلهم ايرديوس الملك، وعلى فرسخين من بيت لحم تجاه القبلة منه قبر ابراهيم عليه السلام وهناك مسجده، ومن بيت المقدس إلى مسجد ابراهيم ثلاثة عشر ميلاً مما يلى القبلة، وحول القبلة التى فيها قبر إبراهيم عينان وأشجار تفاح أحمر.

وفى هذه الغياض أعراب، يقال لهم بنو زياد يسكنونها، وعلى فرسخين من

(١) معجم البلدان. ج١- للشيخ الإمام شهاب الدين ياقوت عبد الله الحموى.

شرقى بيت لحم ديارات منها دير يقال له طور زيتا، وإلى جانب هذا الدير جبل يصعد فى قلته فى قدر ستمائة مرفاة، ويقال إن هذا الجبل صعد منه المسيح إلى السماء.

وهناك قبر راحيل أم يوسف عليه السلام، وعند بيت لحم كنيسة حسنة البناء متقنة العمل مديدة إلى أبعد غاية فى وطاء من الأرض، وفى جهة الشمال المغارة التى ولد بها المسيح عليه السلام[1].

وكذلك كان لدوائر المعارف دور كبير فى بث الكثير من المعلومات التاريخية والجغرافية عن بيت لحم.. وإن لاحظنا أن أغلب ما كتب عنها اصطبغ بالصبغة المسيحية، التى أضفاها إليها المؤرخون المسيحيون والغربيون منهم بالذات، وقد نقل هذه المعلومات الكثير من المؤرخين الشرقيين.

ومن أقدم الموسوعات العربية التى حدثتنا عن بيت لحم المسيحية.. دائرة معارف المعلم بطرس البستانى، الصادرة فى أولى طبعاتها فى عام ١٨٨١.

ومما نقله المؤلف عن المؤرخين الغربيين قوله عن بيت لحم: «هى بلدة قديمة من فلسطين من مدن سبط يهوذا على مسافة ٦ أميال من أورشليم إلى الجنوب، ومعنى بيت لحم بالسريانية بيت الخبز، وقد سميت بيت لحم إفرانة تمييزاً لها عن بيت لحم زبولون، وهى مشهورة بحوادث كثيرة وقعت فيها كولادة داود وإقامته بها ملكاً عليها ومسح صموئيل إياه.

ولكن ما جعل لبيت لحم أهمية فى التاريخ المسيحى هو ولادة يسوع فيها، وقد بنى بها دير كبير مقسوم بين الروم والكاثوليك والأرمن، وبها كنيسة على البقعة التى يظن أنه ولد بها المسيح.

وقد ذكر اوسابيوس أن هيلانة أم قسطنطين الكبير هى التى بنت هذه الكنيسة فى نحو ٢٣٧ للميلاد.

---

(١) الروض المعطار فى خبر الأقطار ـ محمد بن عبد المنعم الحميرى.

وعدد سكان بيت لحم حالياً (أى فى عام ١٨٨١) نحو ٤ آلاف نفس أكثرهم روم وكاثوليك والباقون مسلمون، وبياض لون الأهالى واختلاف هيئتهم عن هيئة بقية سكان تلك النواحى، يدل على أنهم اختلطوا بالأوروبيين، وربما كان ذلك فى أيام الصليبيين[١].

* * *

وإذا كان ما مر علينا آنفا يمثل كل أو أغلب ما ذكر وقيل عن بيت لحم.. خاصة فى المصادر المكتوبة قديما.. فإننا قد فضلنا أن يكون خير ختام لرحلتنا عبر هذه المدينة التى شرُفت بعدة حوادث دينية مهمة كان على رأسها ميلاد المسيح وزيارة رسولنا الكريم ﷺ لها تكريماً لهذا العبد الصالح وميلاده الشريف، أقول فإننا فضلنا أن يكون هذا الختام مما كتب حديثاً عن هذه المدينة. وما تناولته أقلام المؤرخين فى زماننا هذا. وسوف تلاحظون وجود فروق كثيرة، سواء فى طريقة التناول أو فى قيمة وأهمية هذه المعلومات.

ولقد كانت وجهتنا فى هذه المرة لمعرفة ما لدينا من معلومات جديدة، الاطلاع بكل دقة على ما جاء «بموسوعة المدن الفلسطينية» التى ذكرت الشئ الكثير عن بيت لحم، حتى أصبح ما ذكرته هذه الموسوعة أكثر تميزاً مما جاء بغيرها.

وقد تناولت كل المعلومات الخاصة بهذه المدينة المقدسة من عدة نواح.. أهمها الجغرافيا والتاريخ والاقتصاد والسياسة، بل وتطور الحياة الاجتماعية لهذه المدينة عبر التاريخ.

ومما ذكرته هذه الموسوعة عن جغرافية بيت لحم قول مؤلفها: إن بيت لحم تنتشر منازلها على هضبتين، يصل ارتفاع أعلاها إلى ٧٥٠ متراً من سطح البحر، وتمتد الهضبة الأولى من الشرق إلى الغرب.. وتقع عليها كنيسة المهد والبلدة القديمة.. أما الهضبة الثانية فتمتد من الشمال إلى الجنوب.. وقد أقيمت فوقها بيت لحم الجديدة.. منذ مطلع القرن العشرين، وهذه الهضاب هى جزء من سلسلة الجبال

(١) دائرة المعارف ـ قاموس عام لكل فن ومطلب ـ المعلم بطرس البستانى.

الفلسطينية الوسطى والجنوبية، المؤلفة من جبال رام الله والخليل ونابلس.

كما تقع بيت لحم على بعد ١٠ كيلو مترات جنوب بيت المقدس، وبها قضاء يحمل اسمها، ويضم كلا من مدن بيت جالا وبيت ساحور وعدة قرى أخرى، وكان أول من سكن بيت لحم قبيلة كنعانية حوالى ألفين عام قبل الميلاد.

وقد نسبت هذه المدينة إلى الاله لحاما فسميت بيت لحاما، ثم أصبحت بيت لحم فيما بعد، وذُكرت هذه المدينة لأول مرة تحت اسم «أفراتا»، حين جاءها النبى يعقوب عليه السلام فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد بعد خروجه من بلده بينين، فى طريقه إلى الخليل، حيث قبور أبيه اسحاق وجده إبراهيم ونسائهم.

وقد اضطر للتوقف فيها لأن المخاض فاجأ زوجته راحيل بالقرب منها، حيث تعسرت ولادتها وماتت بعد أن ولدت بنيامين، الابن الأصغر ليعقوب، وقام بدفنها فى هذه المدينة ونصب عاموداً على قبرها، ثم واصل سيره إلى الخليل.

إلى جانب ذلك شهدت هذه المدينة الكثير من الأحداث الدينية التى سبقت ظهور المسيح عليه السلام. كما يوجد بها إلى جانب ذلك عديد من الآثار الدينية المهمة.. مثل المكان الذى ولد به داود عليه السلام، ولايزال بالمدينة بئراً يسمى بئر النبى داود إلى الآن.

كما يقال أيضا أن داود عليه السلام قد عسكر بالقرب منها، قبل أن يحتلها وأرسل ثلاثة من جنوده لإحضار ماء له خاصة من هذا البئر ليشرب، كما عاش بالمدينة نفسها النبى سليمان الحكيم.

وتؤكد الموسوعة الفلسطينية ضمن حديثها عن تاريخ هذه المدينة فى حالها القديم أن أهم أحداثها على الإطلاق هو ميلاد المسيح عليه السلام، وقد ظلت هذه المدينة تقبع تحت نير الاحتلال الرومانى حتى مجئ الفتح الإسلامى فى عام ٦٤٨م، عندما جاء الخليفة عمر بن الخطاب إلى الديار المقدسة.

وفى بيت المقدس كتب مرسوماً وعهداً وميثاقاً لبطريق القدس «صفر ـ ونيوس»

بالأمان، وقد ورد فيه «ليكون عليهم الأمان وعلى كنائسهم وأديرتهم، وهى القيامة وبيت لحم مولد سيدنا عيسى عليه السلام».

وفى اليوم التالى لزيارة عمر بن الخطاب لبيت المقدس، ذهب بصحبة البطريق «صفر - ونيوس» إلى بيت لحم وزار الكنيسة وحضر الصلاة بها، فصلى داخل الكنيسة عند الحثية القبلية المنقوشة بالفسيفساء، وكتب للبطريرك سجلا ألا يصلى فى هذا المكان من المسلمين إلا رجل واحد، بعد واحد ولا يجمع فيها صلاة ولا يؤذن فيه ولا يغير فيه شىء.

وقد كان حال بيت لحم هو حال كل المدن الفلسطينية ومدن بلاد الشام الأخرى فى هذه الحقبة، التى عاش فيها أبناء الديانة المسيحية والإسلامية بشكل عام، فى ظل الإخاء والحفاظ على حق معتنقى الديانة المسيحية بممارسة شعائرهم الدينية فى حرية تامة.

٥ - فى مكة المكرمة

فى قراءة متأنية لسيرة سيد الخلق وآخر الأنبياء والرسل محمد عليه الصلاة والسلام.. اكتشفنا أن حياته عليه السلام قد مرت بأربع مراحل.. خاصة فيما يتعلق بالأماكن المشهورة داخل مكة المكرمة، ذلك البلد الأمين، الذى تركه عليه الصلاة والسلام مُجبراً.. يوم هجرته إلى يثرب، وقد كان لزاماً علينا أن نعيد قراءة ومشاهدة أهم الأحداث فى حياة النبى الكريم ﷺ من خلال هذه المراحل الأربعة لأجل استجلاء ما بها من أماكن أثرت فى حياته عليه الصلاة والسلام، وتأثر بها.

ولسوف تكتشفون مثلنا تماماً أن هذه الأماكن المشهورة فى داخل هذا البلد الأمين، كانت تنتظر ظهور رسالة الإسلام على يد هذا الرجل الأمين ﷺ والذى لقب منذ صغره بالصادق الأمين ﷺ وقد تحولت معظم، بل وأغلب هذه الأماكن بعد زوال الشرك عنها إلى مناطق جذب إسلامية، وأماكن للعبادة وإعلاء كلمة الله فى أرضه، وبالتالى فقد عادت مكة المكرمة بعد إشراق نور الإسلام عليها، كما كانت عليه فى عهد إبراهيم عليه السلام وابنه إسماعيل، الذى وضع اللبنات الأولى لهذا البلد الأمين والذى احتضن المسجد الحرام أوالكعبة المشرفة.

وإذا ما أردنا أن نلقى الأضواء المبهرة على هذه الأماكن المشهورة داخل هذا البلد الأمين.. كان لابد لنا أولاً من بيان واضح لهذه المراحل الأربعة ولو على سبيل الاجمال.. ثم نسوق من بعدها التفاصيل.

ونحن نعرف جميعا أن رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام.. قد عاش فى هذا البلد الأمين من بعد مولده أكثر من أربعين عاماً، وكذلك من قبل هجرته إلى يثرب.

كما نعرف أيضا أن جذور أهله وعائلته وقبيلته تمتد لآلاف السنين تحت تربة ورمال مكة المكرمة وكل الصحراء الممتدة حولها.

والمراحل الأربعة المقصودة هنا - هى: مراحل الميلاد، والزواج، والبعثة المحمدية.. ثم الهجرة، ولسوف نلاحظ اختلاف الأمكنة المشهورة فى حياة النبى الكريم مع اختلاف أحداث كل مرحلة، وإن كانت كلها تصب فى ذلك البلد الأمين وفوق أرضه.

ولعلكم توافقوننى الرأى والذى يقوم على ضرورة إلقاء بعض الأضواء المبهرة على ذلك المكان ككل.. ثم من بعد ذلك نستقصى ما فيه من أماكن مشهورة.

وبما أن المكان المقصود.. هو مكة المكرمة... فقد وجب علينا كل الترقب على أمل الوقوف على معلومات تاريخية وجغرافية ذات دلالة، تخدم ما سوف يعقبها من حديث عن الأماكن المشهورة فى حياة النبى الكريم وفى كل مرحلة من المراحل السابق الإشارة إليها.

* * *

ونظراً للدور الريادى العظيم الذى لعبته مكة المكرمة فى الدعوة للإسلام، فقد اهتمت بتاريخها كل الكتب التى تحدثت عن الإسلام، سواء بما فيه من تاريخ أو أحداث أو شخصيات أو حتى معارك.

ولسوف نجتهد كثيراً لتقديم صورة متكاملة عن تاريخ وجغرافية، ذلك البلد الأمين.. من واقع ما سطره الآخرون فى كتبهم.

وأول ما حرصنا على أن يكون فى بداية الحديث عن تاريخ مكة المكرمة، هو الوقوف على أسمائها باعتبارها دار الإسلام الأولى.. إذ اتضح لنا أن هذا البلد الأمين يُعرف فى تاريخ الدعوة الإسلامية باسمين آخرين غير اسم مكة وقد ذكرهما القرآن الكريم فى محكم آياته.. الأول: «بكة» وجاء ذكرها بهذا الاسم فى سورة آل عمران فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران الآية ٩٦]، والثانى: أم القرى، وقد ذكرت فى

(١) مدن إسلامية مقدسة - د. أحمد شلبى.

القرآن الكريم بهذا الاسم فى سورة الأنعام وفى قوله تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام الآية ٩٢].

إلى جانب ذلك هناك لفظان آخران، يعتقد بعض المؤرخين أنهما من نصيب مكة المكرمة.. وهما اسم: «معاد» التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم، واسم: البلد الأمين.

وعلى أية حال، فقد أثبتت كل المراجع التاريخية أن أشهر وأهم اسم لهذه البقعة المباركة، هو مكة المكرمة، وهو أيضا الاسم نفسه الذى كان يميل إلى ترديده دائما رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام، وقد عز عليه أن يتركها ويهاجر إلى المدينة.. بعد ما أُجبر على ذلك.

ويصور لنا القول الشريف التالى هذا المعنى.. فى كلمات رسولنا الكريمﷺ عندما هم بمغادرة هذه البقعة المباركة: «والله إنك لأحب أرض الله إلى الله وإنك لأحب أرض الله إلىّ.. ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت».

وهناك كتابات تاريخية كثيرة تحدثت أيضا عن اسم مكة وتفسيره، وقد اختلف الإخباريون فى اشتقاق هذا الاسم الكريم، وذهبوا فى ذلك كما يقول الدكتور السيد عبدالعزيز سالم، أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، مذاهب شتى،.. ومن أشهرها.. ما قاله أبوبكر بن الأنبارى، أنها سميت مكة لأنها تمك الجبارين أى تذهب نخوتهم..، وقال الشرقى بن القطامى: إنما سميت مكة لأن العرب فى الجاهلية كانت تقول لا يتم حجنا حتى نأتى الكعبة، فنمك فيه أى تصفر صفير المكاء حول الكعبة، وكانوا يصفرون بأيديهم إذا كانوا بها.

والمكاء بتشديد الكاف طائر يأوى الرياض.. وهذا قول ذكره ياقوت الحموى فى معجم البلدان، كذلك قال قوم آخرون: سميت مكة لأنها بين جبلين مرتفعين عليهما، وهى فى هبطة بمنزلة المكوك.

كذلك هناك تفسير لغوى على أساسه تكون مكة مشتقة من أمتك من قولهم: أمتك الفصيل أخلاف الناقة، إذا جذب جميع ما فيها جذباً شديداً فلم يبق فيها

شيئاً، ولما كانت مكة مكاناً مقدساً للعبادة، فقد امتكت الناس أى جذبتهم من جميع الأطراف[1].

* * *

أما من حيث الموقع الجغرافى وشكل التضاريس، فقد أشارت معظم الكتب التى تحدثت عن هذه المدينة المكرمة بأنها تقع فى منتف الطريق تقريبا بين جنوبى الجزيرة العربية وشمالها. . لذلك فقد كانت على طول تاريخها مركزاً تجارياً مهماً ومحطة للقوافل.

ومكة المكرمة إضافة إلى ذلك كانت من قبل قرية صغيرة، تقع بين الجبال الشاهقة، وكانت أيضا بعيدة عن البيت الحرام، لذلك فهى تقع على خط عرض ٣١ وعلى ارتفاع ٣٣٠ متراً عن سطح البحر. . كما تبعد حوالى ٥٦ ميلاً عن ميناء جدة، أى حوالى ٨٠ كيلو مترا وحوالى ٢٤٥ ميلاً من المدينة المنورة.

كذلك هناك عدة سلاسل جبلية تحيط بمكة من كل جانب، منها جبال «فيقعان» «والثلج» «وكداء» وهو جبل يقع فى أعلى مكة، ومن جهته دخل رسولنا ﷺ البلد الأمين بعد فتحها، كما يقع فى جنوبها جبل أبو حديدة، وجبل كدى.

وفى شرقها يقع جبل أبى قبيس، ولما كانت مكة قد أقيمت فى مكان قريب نوعا ما من الكعبة، فلما انبثق الماء فى زمزم جذب هذا الماء للمكان جماعة من البدو والمسافرين، فاتسع عمرانها حتى أصبحت تشمل بئر زمزم والكعبة، كما زاد اتساعها أكثر بعد أن رفع سيدنا إبراهيم قواعد البيت الحرام وإقامة إبنه إسماعيل حوله هذا البيت، ودعوته للناس بحج هذا البيت كل عام[2].

يؤكد الدكتور محمد حسين هيكل هذا الرأى، حين ذكر: أن رجال القوافل قبيل ظهور إسماعيل عليه السلام كانوا يتخذون مكة مضارب لخيامهم لراحة رجال القوافل؛ بسبب ما كان بها من بعض العيون، وذلك أثناء رحلاتهم بين اليمن قاصدين فلسطين والقادمين منها قاصدين اليمن.

---

(١) تاريخ العرب فى عصر الجاهلية ـ د. تأليف السيد عبد العزيز سالم.

(٢) مدن إسلامية مقدسة - مصدر سابق

والراجح أن إسماعيل بن إبراهيم كان أول من اتخذها مقاماً ومسكنا، بعد أن كانت مجرد محلة للقوافل وسوقاً للتجارة[1].

وهناك فريق آخر من المؤرخين، الذين يرون أن العماليق هم أول من سكن مكة، ثم خلفتهم قبيلة جرهم اليمنية، وفى عهدها قدم إلى مكة سيدنا إبراهيم مع زوجته هاجر وابنه إسماعيل، وكان أول من قسم مكة إلى رباع أو أحياء مقسمة بين قومه هو «قصى» زعيم قبيلة قريش، ويدعى «قصى بن كلاب».

وبعد هذا التقسيم أبقى قصى لكل فريق من أهله منازل فى أحيائهم يقيمون بها، كما أنشأ دار الندوة التى كانت بمثابة برلمان قريش، وفيها كان يجتمع كبار القرشيين تحت رئاسة للتداول فى شئونهم، ولم يكن يدخلها من قريش إلا من بلغ الأربعين من عمره.

وكانت دار الندوة تقع أمام «مزارب» الكعبة، وقد أصبحت داخل المسجد الحرام بعد التوسعات الهائلة، التى قامت بتنفيذها حكومة المملكة العربية السعودية بدءاً بمؤسسها الملك عبدالعزيز آل سعود، ومروراً بأبنائه حتى الملك فهد خادم الحرمين الشريفين[2].

ولقد ظل العمران يلاحق هذه القرية المباركة منذ ظهور الإسلام وحتى يومنا هذا.. حيث أولتها حكومات المملكة العربية السعودية جل اهتماماتها.. خاصة وأن بها أول مسجد وضع للناس، هذا المسجد العتيق الذى أدخُلت عليه هو الآخر عديد من التعديلات والتوسعات لاستيعاب ملايين الحجيج، الذين يفدون إليها فى كل عام.

ومن أخص ما ارتبط بهذه القرية من توسعات ما جاء فى كتاب «هذه بلادنا».. الذى وضعته وزارة الإعلام بالسعودية، والذى جاء فيه عن مكة المكرمة: «منذ عشرات السنين التى سبقت نشوء المملكة العربية السعودية، بدأت جذور مشكلة اتخاذ الناس فى مكة مساكنهم على سفوح الجبال المحيطة بها، ليكونوا أقرب ما يمكن إلى المسجد الحرام المبارك، فانتشرت الكثافات السكانية فى وادى إبراهيم

(١) حبان محمد – مصدر سابق..

(٢) محمد ﷺ – رؤية سياسية معاصرة – د. أمين الساعاتى.

وسفوح الجبال المجاورة، مثل: جبل عمر، وجبل أبى قُبيس وجبل الكعبة وغيرها، وكان الانتشار عشوائياً، وبناء المساكن يتم كيفما اتفق، وأصبح التركيز السكانى رأسياً وليس أفقيا.

ومن هذه النقطة بدأت الانطلاقة التطورية للعاصمة المقدسة، التى قامت على محورين الأول: تقديم الخدمات وتنفيذ المشروعات للمواطنين من سكان مكة المكرمة البالغ عددهم «٦١٨ ألف نسمة»، والثانى: تقديم الخدمات وتنفيذ المشروعات لحجاج بيت الله الحرام، والمعتمدين والزائرين، وأصبح تخطيط هذه المدينة فى العصر الحديث يتخذ من المسجد الحرام المبارك مركزاً للمدينة المقدسة[١].

(١) •• الأماكن المشهورة فى مرحلة الميلاد:

لابد وأن نتفق جميعا أن المقصود هنا.. بمرحلة الميلاد.. هى الفترة الممتدة فى حياة النبى الكريم عليه الصلاة والسلام لأشهر قليلة من قبل مولده عليه السلام وحتى بدايات أشهر قليلة قبيل زواجه!، وهى فترة زمنية وفق الاجماع بلغت أكثر من خمسة وعشرين عاما، حيث شهدت أحداثاً جساماً فى حياته عليه الصلاة والسلام، وكذلك شهدت أماكن متعددة تنقل فيها رسولنا الكريم ﷺ وقد أثرت فيه وتأثر بها.

ويكفينا فى هذا المقام أن نشير إلى مدى تأثير المكان على حياته ﷺ وحياة الدعوة الإسلامية كلها.. خاصة ما كان منه يرتبط بالبيئة الصحراوية وما أحيط بها من جبال شاهقات حول مكة المكرمة.. وهى التى شهدت طفولته عليه السلام، وكذلك تحنثه وتأملاته وابتعاده عن مجتمع اللهو الذى أحيط به، والذى كان يجتذب غيره من أقرانه سواء من الشباب أو من الأطفال.

هذا الابتعاد الاختيارى داخل هذه الصحراء وفوق الجبال وداخل الكهوف والغيران.. كان هو المقدمة الحقيقية لظهور الإسلام، وانبعاث نوره فى قلب الرسول الكريم ﷺ أولاً.. ثم فى قلوب كل المؤمنين به من بعده. وكانت البداية منذ ذهاب جده إلى هناك، ثم عودته.. حيث يحكى لنا التاريخ أنه قد المطلب من سلمى بنت عمرو الخزرجية أن تدفع إليه

(١) من كتاب «هذه بلادنا» - وزارة الإعلام السعودية.

الفتي وقد بلغ أشده، وأردف المطلب الفتي علي بعيره ودخل به مكة، فظنته قريش عبداً له جاء به، فتصايحت: «عبدالمطلب». . قال المطلب: ويحكم: إنما هو ابن أخي هاشم قدمت به من يثرب. علي أن هذا اللقب قد غلب علي الفتي فدُعي به، ونسي الناس اسم شيبة الذي دعي به من قبل[1].

وقد ورث عبدالمطلب زعامة مكة عن آبائه، ثم قام بواجباتها خير قيام، وكان علي درجة من اليسار المالي. . وقد عاصر بعض الإرهاصات الخاصة بمولد النبي ﷺ، كما كان يحب النبى حباً جماً، وكان كثيراً ما يدنيه إليه ويجلسه على فراشه. ، وكان هذا الحب في ازدياد مستمر؛ ذلك لأن شبهه بوالده عبدالله كان يأخذ في الازدياد مع الأيام[2].

وقيل إنه توفي عن ثمانين سنة وقيل غير ذلك - لكن وفاته علي أية حال كانت والنبي ﷺ في الثامنة من عمره.

هذا عن الجد الأكبر. . فماذا عن الأب عبدالله نفسه؟!.

لقد حفل عديد من المصادر التاريخية بكلام كثير ومهم عن عبدالله ابن عبد المطلب. رغم قصر الفترة الزمنية التي عاشها، والتي قيل إنها علي أغلب الروايات كانت خمسة وعشرين عاماً فقط!.

وحين يأتي الحديث عن عبدالله بن عبد المطلب وميلاده، لابد وأن نتذكر مجموعة من الأحداث التاريخية المهمة، التي أثرت أيضا في حياة نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام، وكان من أهمها وفق الإجماع، قصة الفداء. . التي كان من الممكن أن يذهب ضحية لها، لولا لطف الله الذي حفظه، وكذلك قصة حفر بئر زمزم.

أما أشهر تلك الأحداث وأعظمها قيمة في تاريخ الإسلام، بل وفى تاريخ البشرية كلها. . هو حادث عام الفيل، ذلك العام الذي قدم فيه أبرهة الحبشي كما

---

(١) حياة محمد - مصدر سابق. .

(٢) عبدالله أبوالنبي - محمد فوزي حمزة .

نعلم لهدم الكعبة. . وفيه تفاصيل كثيرة. . ذكرت في كثير من المصادر الإسلامية.

ولعل الاهتمام بذكر هذه التفاصيل نابع في الأساس من ارتباطها بمولد سيد الخلق ورسول الإنسانية محمد بن عبد الله بن عبد المطلب. حيث رأينا أن هناك إجماعاً كبيراً بين معظم المؤرخين العرب والأجانب، على أن عام الفيل الذي وقعت فيه هذه الحادثة. . إنما شهد أيضا ميلاد الرسول ﷺ. . بل وشهد كذلك وفاة أبوه عبد الله بن عبد المطلب. . الذي رحل من دون أن يرعي هذا النور المشرق.

وأهم ما قيل في هذا السياق، أن عام الفيل المقصود هنا، إنما كان علي رأس مئتين وستة عشر منه من تاريخ العرب الذي أوله حجة الغدر، ومعناها أن جماعة حملوا هدايا الكعبة وقصدوها للحج فأغار عليهم بعض الصعاليك، وانتهبوهم، فبلغ الأمر حجاج الكعبة فتقاتل الناس وغدروا بالشهر الحرام، فسمي عام الغدر[1]. فكان مولد عبدالله في المرحلة الخامسة من مراحل تاريخ العرب في الجاهلية، بل ويمكن القول بأن مولده كان في الفترة ما بين حفر بئر زمزم وحادث الفداء.

ومن الآراء الراجحة تاريخيا فيما يخص مولد الرسول الكريم ﷺ وزواج عبد الله بن عبد المطلب هو ما ساقه الدكتور محمد حسين هيكل، حين قال: كان عبد المطلب قد جاوز السبعين أو ناهزها حين حاول أبرهة مهاجمة مكة وهدم البيت العتيق، وكان ابنه عبد الله في الرابعة والعشرين من عمره، فرأي أن يزوجه آمنة بنت وهب بن مناف بن زهرة، سيد بني زُهرة إذ ذاك سناً وشرفاً، فخرج به حتي أتي منازل بني زُهرة ودخل وإياه عند وهب وخطب إليه إبنته.

ويذهب بعض المؤرخين إلى أنه إنما ذهب إلى أهيب عم آمنة، لأن أباها كان قد هلك وكانت فى كفالة عمها، وفى اليوم الذى تزوج فيه عبد الله من آمنة، تزوج أيضاً عبد المطلب من ابنة عمها هالة، فأولدها حمزة عم النبى عليه الصلاة والسلام.

---

(١) تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء - حمزة بن الحسن الأصفهاني.

والسيدة آمنة والدة النبى الكريم، ﷺ كما سبق وذكرنا يرجع نسبها إلىٰ زهرة ابن كلاب بن مرة، . فهى وزوجها عبد الله يلتقيان عند الجد كلاب بن مرة، وهو الجد الخامس لرسول الله ﷺ .

وعند هذا الجد تعود آمنة لتلتقى مع زوجها عبد الله، عن طريق أمها برة بنت عبد العزى ابن عثمان بن عبد الدار بن قصى بن كلاب بن مرة. إذاً فكلاب ابن مرة هو جد عبد الله لأبيه وجد آمنة لأمها وأبيها. لذلك فآمنة أم النبى، قرشية من فهر بن مالك لأمها ولأبيها[1].

* * *

وبعد أن تزوج عبد الله من آمنة بنت وهب، أقام فى بيت أهلها ثلاثة أيام على عادة العرب حين يتم الزواج فى بيت العروس، ثم انتقل وإياها لكى يقيم فى منازل عبد المطلب.

وقد حدد ابن بكار مكان إقامة الزوجين بعد انتقالهما إلى منازل عبد المطلب. حيث أكد أن السيدة آمنة رضى الله عنها قد حملت برسولنا الكريم ﷺ أثناء إقامتها مع زوجها فى شعب أبى طالب عند الجمرة الوسطى، وقد ذكر ذلك أيضا ابن كثير فى كتابه المهم «البداية والنهاية». كما حدد لنا موقع هذا البيت بالدقة المطلوبة؛ خاصة فى عصرنا الحديث الدكتور أحمد شلبى، حيث قال عن المنزل الذى ولد به رسولنا ﷺ : لقد ولد عليه الصلاة والسلام فى دار محمد بن يوسف أخى الحجاج ابن يوسف، وكان عقيل بن أبى طالب قد أخذه أيضاً حين هاجر النبى ﷺ . وفيه وفى غيره، يقول رسول الله ﷺ فى عام حجة الوداع حين قال له زيد: أين تنزل يا رسول الله؟ فأجاب: وهل ترك لك عقيل من ظل؟! فلم يزل بيده وبيد ولده حتى ملكه ـ أى المنزل الذى ولد به رسولنا الكريم ﷺ ـ ولد من نسل محمد بن يوسف فأدخله فى داره التى يقال لها البيضاء، وهى تعرف اليوم

(١) عبد الله أبو النبى – مصدر سابق.

بدار ابن يوسف، فلم يزل ذلك البيت فى الدار؛ حتى حجت الخيزران أم الخليفين موسى وهارون، فأخرجته من الدار وجعلته مسجداً يصلى فيه، وهو فى الزقاق الذى فى أصل تلك الدار يقال له: زقاق المولد.

* * *

ولم تدم إقامة عبد الله مع زوجته آمنة طويلاً فى هذا البيت؛ إذ خرج فى تجارة الى الشام وتركها فى مكة حاملاً، ولقد اجتهد الكثير من العلماء ومن المؤرخين فى تحديد تلك المدة التى أقامها والد النبى عليه الصلاة والسلام مع زوجته من قبل رحيله إلى الشام ثم انتقاله الى الرفيق الأعلى، حيث ذكر بعضهم أن هذه المدة لم تتعد العشرين يوماً فقط.

ولقد ظلت هذه السيدة الفاضلة وفية لذكرى زوجها، الذى مات ودفن بالمدينة. حتى أنها كانت كثيراً ما تأخذ وليدها النبى الكريم ﷺ وهو لايزال طفلاً لزيارة قبر والده إلى أن ماتت هى الأخرى.

ويذكر التاريخ تفاصيل كثيرة عن هذه الزيارة.. ومجملها: أنه حين اعتزمت السيدة آمنة العودة بعد زيارة لها ليثرب، وبعد أن أقامت بها شهراً ركبت عائدة إلى مكة، فلما كانت منها فى منتصف الطريق.. مرضت بالأبواء.. ودفنت هناك.. وهذا المكان.. كان فى الأصل قرية تقع بين المدينة والجحفة، وعلى بعد ٢٣ ميلاً.

وبخلاف ذلك اجتهد أيضاً عديد من المؤرخين فى الحديث بالتفصيل عن مولده عليه الصلاة والسلام.. فقالوا إن الرسول الكريم ﷺ ولد فى فجر يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة مضت من ربيع الأول.. ثم زادوا على ذلك بقولهم: أنه وفقاً لهذا التاريخ، فهو يقابل العشرين من أغسطس عام ٥٧٠م.. ولأربعين سنة مضت من حكم كسرى أنوشروان.

وقالوا أيضا إن العام الذى ولد به محمد عليه الصلاة والسلام، كان عام خير

وبهجة على قريش، التى عاشت ولفترة طويلة فى جدب وضيق عظيم، حيث فى هذا العام اخضرت الأرض، وأثمرت الأشجار.

* * *

ولم يستمر محمد عليه الصلاة والسلام فى أحضان أمه داخل ذلك البيت إلا أشهر قليلة انتقل بعدها ليعيش فى كنف قبيلة بنى سعد.. فى الصحراء التى تحيط بمكة المكرمة.. ترعاه حليمة السعدية بنت أبى ذؤيب.

وبخلاف ذلك.. أكد المؤرخون أيضاً.. أن مدة رسول الله ﷺ التى مكثها ببيته قبل رحيله إلى الصحراء مع بنى سعد قد بلغت ثمانية عشرة شهراً. وانتقل بعدها إلى ديار بنى سعد.. حيث اختارت عناية الله هذه المرأة الطيبة.. كى تكون هى مرضعته، دون غيرها من النسوة اللائى ترددن عليه من قبل.

ومما يقال فى سياق حديث الرضاعة أيضاً.. أن أيدى المرضعات قد تلقفته فور ولادته، حتى بلغ عددهم من النساء ثمانية.. وقيل أكثر.. وكانت الأولى أمه آمنة رضى الله عنها.. ثم ثوبية الأسلمية جارية عمه أبى لهب، والتى أعتقها حين بشرته بولادة النبى الكريم ﷺ ثم خولة بنت المنذر وأم أيمن، وامرأة سعدية من غير حليمة. وثلاثة نسوة من العواتك، حيث كان من عادة العرب إذا ما ولد لهم ولد مولود أن يلتمسوا له مرضعة من غير نساء قبيلته؛ لأجل أن يكون أنجب الأولاد وأفصحهم.

ويحكى التاريخ عن كيفية وصول هذا الرضيع الكريم ﷺ إلى أيدى هذه المرأة الضعيفة المسكينة، فيقول: جاءت نسوة من بنى سعد يلتمسن الرضعاء ومعهن حليمة السعدية.. فى سنة شديدة الجدب والقحط، وقد أخذت كل إمرأة رضيعاً، إلا حليمة ـ كما قيل كذلك ـ أنها قد خرجت من بلدها وسط صحراء مكة مع زوجها الحارث بن عبد العزى، وابن لها صغير ترضعه فى نسوة من بنى سعد.

وذكر ابن إسحاق فى سيرته أن رسول الله ﷺ ، عندما أخذته حليمة


BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

السعدية، عاش وهو طفل وليد على الرضاعة الطبيعية مع إخوته من أمه المرضعة، وهم: عبد الله بن الحارث، وأنيسة بنت الحارث وحذافة بنت الحارث، وهى الشيماء.

ونظراً للعيش الرغيد الذى أصاب هذه المرأة الطيبة وأسرتها وزوجها ببركات هذا النبى الصبى، فقد عز عليهم أن يتركوه، بعد أن قضى بينهم سنوات عديدة؛ حيث أخذوا يلتمسون الأعذار لأمه آمنة لأجل أن توافق على استمراره للعيش بينهم.. وقد ألفوه وأحبوه.. وبالفعل نجحت حليمة السعدية فى مسعاها حينذاك.. فأبقت عليه فى حوزتها لسنوات أخرى.. حتى يستمر ما هم فيه من خير وبركة.. وقد نقل الرواة على لسانها هذا القول:

«فلم يزل الله عز وجل يرينا البركة حتى كان غلاماً جفراً، أى قوى الجسم شديداً.. فقدمنا به على أمه ونحن أضن شىء به مما رأينا فيه من البركة، فلما رأته أمه، قلنا لها: دعينا نرجع به هذه السنة.. فإنا نخشى عليه أوباء مكة، فوالله مازلنا بها حتى قالت: فنعم، فردته معنا».

* * *

وهكذا نجد أن النبى الكريم عليه الصلاة والسلام، قد شاءت إرادة الله أن يعود مرة أخرى إلى الصحراء، حيث الفطرة والطبيعة النقية.. من أجل أن يكمل بها مرحلة طفولته السمحة.. وقيل إنه فى هذه الآونة قد وقعت له حادثة شق الصدر، والتى يشكك فى وقوعها عديد من المؤرخين بغير حق!.

وفى صحراء بادية بنى سعد المحيطة بمكة المكرمة، قضى رسول الله ﷺ ثلاث سنوات أخرى غير العامين الأولين بين أبناء قبيلة بنى سعد. وقد أقام بذلك هناك مدة خمس سنوات كاملة، كانت على حد قول الدكتور محمد حسين هيكل، فرصة طيبة ينهل منها ومن جو الصحراء الطلق، روح الحرية والاستقلال النفسى؛ ويتعلم من أهل هذه القبيلة لغة العرب مصفاة أحسن تصفية؛ حتى لقد كان يقول

عليه السلام لأصحابه: «أنا أعربكم، أنا قريشى واستعرضت فى بنى سعد ابن بكر».

وحادثة مهمة مثل حادث شق صدر محمد عليه الصلاة والسلام.. وهى التى وقعت وفق تأييد أغلب الروايات، أثناء تواجده عليه السلام بالصحراء المحيطة بديار بنى سعد، لم تكن تمر مرور الكرام.. حيث ذكرها عديد من المؤرخين المسلمين الأوائل.. مستندين فيما ذكروه إلى قوله تعالى﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الشرح الآية١].

ومن أبرز هؤلاء المؤرخين الذين أفسحوا مجالاً كبيراً فى كتاباتهم عن السيرة النبوية لهذه الحادثة. كل من ابن إسحاق وابن هشام.. وكان ما ذكره ابن إسحاق بالذات.. قد جاء منقولاً عن عدة مصادر مروية، سمعتها من حليمة السعدية نفسها.. حيث قالت: فأقمنا به شهرين أو ثلاثة، فبينما نحن خلف بيوتنا وهو مع أخ له من الرضاعة فى جمع لنا (صف الغنم). جاءنا أخوه يشتد، فقال: ذاك أخى القرشى قد جاءه رجلان عليهما ثياب بياض، فأضجعاه فشقا بطنه فخرجت أنا وأبوه نشتد نحوه.. فنجده قائمًا منتقعاً لون الوجه فاعتنقه وأبوه وقال: أى بنى؟! ما شأنك؟!.. قال: جاءنى رجلان عليهما ثياب بياض فأضجعانى فشقا بطنى ثم استخرجا منه شيئاً فطرحاه، ثم رداه كما كان، فرجعنا به معنا فقال أبوه: يا حليمة لقد خشيت أن يكون ابنى قد أصيب، انطلقى بنا، فلنرده إلى أهله قبل أن يظهر به مايتخوف»[1].

وبالفعل عاد رسولنا الكريم، صلى الله عليه وسلم إلى أحضان أمه من جديد.. فعاش معها ومع جده عبد المطلب فى دروب مكة صغيراً يلهو مع أقرانه.. وقد قضى مع أمه على أرجح الأقوال عاماً واحداً قبل أن تلقى ربها.. وبالتالى بات محمداً يتيماً، حيث مات من قبل أبيه ثم لحقت به أمه.

---

(١) السيرة النبوية ـ لابن إسحاق ـ مصدر سابق.

وهذا القول أكده أيضاً ابن إسحاق فى سيرته حين قال: حدثنى عبد الله ابن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أن أم رسول الله ﷺ آمنة توفيت ورسول الله ﷺ ابن ست سنين بالأبواء بين مكة والمدينة، وكانت قد قدمت به على أخواله من بنى عدى بن النجار، تزوره إياهم، فماتت وهى راجعة إلى مكة!.

ومنذ هذه العودة إلى منازل عبد المطلب بعد غربة دامت خمس سنوات فى دروب الصحراء وفى ديار بنى سعد بن بكر، لم يغادر رسول الله ﷺ مكة المكرمة إلا مرتين، وقد ذهب خلالهما إلى الشام صبياً فى تجارة لأهله، ثم لخديجة من قبل أن يرتبط بها كزوجة.

ولسوف نؤجل الحديث عن رحلتى الرسول الكريم ﷺ إلى بلاد الشام، وهو طفل ثم وهو شاب.. حتى يأتى موعدهما.. فى الجزء الذى خصصناه للأماكن المشهورة فى حياته ﷺ فى بلاد الشام.

* * *

معنى ذلك أن رسولنا الكريم ﷺ قد ظل يعيش فى دروب مكة وبين منازلها وصحرائها قرابة خمسة وأربعين عاماً ومن قبل هجرته الشريفة إلى المدينة.. وعندما نحاول حصر الأماكن المشهورة فى حياته عليه السلام فى مكة المكرمة خلال هذه الفترة الزمنية الطويلة سوف نكتشف أنها انحصرت فى ثلاثة أماكن.. الأول منها: الصحراء الواسعة بكل ما فيها من جبال وهضاب ورمال، وقد عمل فى فترة من حياته راعياً للغنم، ثم سائحاً متساءلاً عن خلق الله حوله عندما كان يخلو إلى نفسه.

وكثيراً ما كان يحدث ذلك فى حياته الأولى؛ إذ أكد عديد من الروايات أن الرسول الكريم ﷺ، كان لايشارك فتيان مكة ولاشبابها لهوهم المعتاد سواء حول الكعبة أو بجوارها، أو فى أماكن أخرى كانت تعج باللهو واللاهين، وكانت سياحته التأملية فى هذه الصحراء، هى البداية الحقيقية للبحث عن الله، الذى ظل فى انتظار أوامره بالانطلاق فى رحاب الدعوة الإسلامية لسنوات طويلة.

وتؤكد الروايات، نفسها أن رسولنا الكريم ﷺ أيضاً وفى هذه الفترة المبكرة من حياته لم يمنع نفسه من التمتع بالأدب والشعر، حيث كان يستمع كثيراً إلى الشعراء والخطباء مع ذويه فى الأسواق حول مكة أثناء الأشهر الحرم، وقد عبر رسولنا الكريم ﷺ عما كانت عليه حياته، وهو طفل صغير فى هذه الخصوصية فيما ذكره ابن هشام فى سيرته، حين ذكر ذلك فى قوله: «. . . وكان رسول الله ﷺ فيما ذُكر لى يحدث عما كان يحفظه به الله فى صغره وأمر جاهليته، أنه قال: لقد رأيتنى فى غلمان قريش ننقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان، كلنا قد تعرى، وأخذ إزاره فجعله على رقبته، يحمل عليه الحجارة، فإنى لأقبل كذلك وأدبر، إذ لكمنى لاكم ما أراه، لكمة وجيعة، ثم قال: شُد عليك إزارك، قال: فأخذته وشددته علىّ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتى وإزارى علىّ من بين أصحابى.

وفى هامش كتاب سيرة ابن هشام جاء به: ذكر السهيلى فى شرح السيرة أن هذه الحادثة جاءت فى حديث صحيح فى أثناء بنيان قريش لها، وقد اشترك النبى ﷺ معهم فى البناء، ولم يحمل الحجارة معهم.

ورغم ارتباط الرسول الكريم ﷺ بعديد من الأماكن المشهورة فى حياته عليه السلام فى الفترة نفسها، إلا أنه ظل مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالصحراء وبكل ما فيها من جبال وغيران وصخور ورمال.

* * *

وثانى هذه الأماكن المشهورة كانت الكعبة المشرفة، وما كان حولها من دور عبادة وأماكن إقامة لعلية قومه من سادة قريش، وقد ارتبط رسولنا الكريم ﷺ ارتباط الأرواح بالأجساد الطاهرة بهذا المكان المبارك طوال حياته، وخلال مراحل هذه الحياة، ولم يكن يتصور فى يوم من الأيام أنه سوف يكون محرره من الأوثان، مثلما فعل ذلك جده ابراهيم من قبل!.

وكان رسولنا الكريم ﷺ وهو فى هذه السن المبكرة يتردد على البيت الحرام. . رغم أنه لم يؤمن أبداً بأصنام قريش ولم يبجلها يوماً ما. . بل كان كثيراً ما يتأفف

منها ويتساءل عما كان يفعله أهل قبيلته وعشيرته، خاصة وأنها كانت حجارة لاتنطق ولا تتحرك ولاتفيد ولاتضر!!.

ولذلك كانت زيارة رسول الله ﷺ إلى الكعبة المشرفة زيارة عابر سبيل يستقصى ويتأمل ويتساءل ويتدبر. ثم ينطلق إلى الصحراء الواسعة باحثاً عن الخالق العظيم الذى يسمع ويرى ويفيد ويضر.

ولقد هيأ الله له الظروف الطيبة من قبل بعثته عليه السلام؛ ليكون الحكم الأمين فيما وقع من خلاف بين أهله وعشيرته، عندما أعادوا بناء الكعبة وهو فى سن الخامسة والثلاثين من عمره حيث كادت تحدث حرباً شرسة بين أفراد قبيلته، لولا حكمته وحنكته فيما إرتآه من تصرف سليم، قضى على هذه الحرب وهذه الفتنة فى مهدها، وذلك مما سوف نشير إليه بالتفصيل فى حديث قادم عن أهم الأماكن المشهورة فى مرحلة الزواج.

وفى تصورنا أن الكعبة المشرفة والبيت الحرام لم يأخذا من رسولنا الكريم ﷺ الاهتمام الذهنى الواجب فى هذه الفترة المبكرة من حياته.. ذلك لما كان يراه من جبروت قوم، التفوا حول ذلك البيت يفعلون به ما يشاءون ويدنسونه بأصنامهم الحجرية الصلبة، وهو ذلك الفتى المتساءل دائماً، لكن بينه وبين نفسه، وبينه وبين الله.

ويكفيه شرفاً آنذاك أنه قد لفظ هذه الأصنام واحتقرها وابتعد عنها، وكانت ملجأه دائماً تلك الصحراء الواسعة للبحث عن الحقيقة، وقد عوض رسولنا الكريم ﷺ عدم الاهتمام بالكعبة المشرفة والبيت الحرام، بعدما بُعث إليه برسالة الإسلام، حتى صار همه الأول هو ومن كانوا معه من أصحابه وأتباعه تحرير البيت الحرام وتنظيفه، مما كان فيه من أوثان وأصنام، وإعادة هيبته وقوته ودوره الإيمانى، كأول بيت وضع للناس.

وقد كان.. حيث أصبح المسجد الحرام كما أراد الله له منذ بنائه لأول مرة،

قبلة للمسلمين ووجهتهم نحو حج بيته المحرم.. ذلك الحج الذى يعتبر الركن الخامس والأخير من أركان الإسلام.

* * *

وكذلك كانت من الأماكن المشهورة فى حياة النبى ﷺ من قبل البعثة.. والموجود بمكة المكرمة.. دار عبد الله بن جدعان.. ذلك المكان الذى شهد عقد حلف الفضول الذى حضر توقيعه النبى الكريم ﷺ وهو لايزال فى سن الشباب. وقد قال عنه «ما أحب أن لى بحلف حضرته فى دار ابن جُدعان حُمر النعم ولو دعيت به لأجبت».

ولقد تبارى المؤرخون وكتاب السير فى تقديم معلومات مستفيضة عن هذا الحلف وعن ظروف عقده، بل ولقد ذهب معظمهم إلى بيان دور وأهمية ذلك الحلف من الناحية السياسية. فقال ابن هشام: .. وأما حلف الفضول فحدثنى زياد عبد الله البكائى عن محمد ابن إسحاق: تداعت قبائل إلى حلف، فاجتمعوا له فى دار عبد الله بن جُدعان ابن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم ابن مُرة بن كعب بن لؤى لشرفه وسنه فكان حلفهم عنده، بنو هاشم، .وبنو المطلب، وأسد ابن عبد العزى، وزهرة ابن كلاب، وتيم بن مرة، فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لايجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم. من دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته، فسمت قريش ذلك الحلف، «حلف الفضول».

ويذكرون فى سبب تسميته بهذا الاسم: أن جرهما فى الزمن الأول، قد سبقت قريشاً إلى مثل هذا الحلف، فتحالف منهم ثلاثة ومن تبعهم، أحدهم الفضل ابن فضالة، والثانى الفضل بن وداعة، والثالث: فضيل بن الحارث، وقيل هم: الفضيل بن شراعة، والفضل بن وداعة، والفضل بين قضاعة، فلما أشبه حلف قريش هذا.. حلف هؤلاء الجرهميين سُمى بحلف الفضول، وقيل: بل سُمى كذلك لأنهم تحالفوا أن ترد الفضول على أهلها، وألا يغزو ظالم مظلوماً..

ويبدو أن هذا التفسير الأخير هو الأقرب إلى الصواب.. ذلك لوجود العشرات من المشاكل التى وجدت حلولاً من خلال هذا الحلف، ضد الظالمين ورد مظالمهم إلى أصحابها.

ويقال إن حلف الفضول قد وقع قبل البعثة بعشرين عاماً، وكان أكرم حلف وأشرفه، وأول من تكلم به ودعا إليه الزبير بن عبد المطلب، وكان سببه أن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة، فاشتراها منه العاص بن وائل، وكان ذا شرف وقدر بمكة، فحبس عنه حقه، فاستعدى عليه الزبيدى الأحلاف: عبد الدار ومخزوماً، وجُمح وسهماً، وعدى بن كعب، فأبوا أن يعينوه على العاص وانتهروه، فلما رأى الزبيدى الشر، أوفى على أبى قبيس عند طلوع الشمس، وقريش فى أنديتهم حول الكعبة فصاح بأعلى صوته:

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ... ببطن مكة نائى الدار والنفر

ومحرم أشعث لم يقض عمرته ... يا للرجال وبين الحجر والحجر

إن الحرام لمن تمت كرامته ... ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فقام لذلك الزبير بن عبد المطلب، وقال: ما لهذا مترك، فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرة فى دار ابن جدعان، فصنع لهم طعاماً وتعاقدوا، وكان حلف الفضول..

* * *

هذا عن الحلف وسبب تسميته، فماذا عن صاحب الدار التى عقدت بها هذه المعاهدة السياسية والتى حضرها رسول الله ﷺ من قبل البعثة؟!. يقول ناقلو سيرة بن هشام فى حواشى سيرته: أنه عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب ابن سعد بن تيم، ويكنى أبا زهير، وهو ابن عم عائشة رضى الله عنها، ولذلك قالت لرسول الله ﷺ: إن بن جدعان كان يطعم الطعام ويقرب الضيف، فهل ينفعه ذلك يوم القيامة؟ فقال: لا، إنه لم يقل يوماً: رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين.

وكان ابن جدعان بخلاف ذلك قد بدأ حياته صعلوكاً ترب اليدين.. وكان مع ذلك فاتكاً لايزال يجنى الجنايات فيعقل عنه أبوه وقومه، حتى أبغضته عشيرته ونفاه أبوه، وحلف ألا يؤويه أبداً لما أثقله به من دين وحمله من الديات.

ثم كان أن أثرى ابن جدعان بعثوره على ثعبان من ذهب وعيناه ياقوتتان، فأوسع فى الكرم حتى أصبح مضرب الأمثال.

ونظراً لهذا الكرم، وهذا الثراء الذى بات عليه عبد الله بن جدعان فى الجاهلية، فقد كانت له بلا شك دار واسعة، ربما كانت أيضاً بالقرب من الحرم الشريف.. وإلا لما دعى إليه هذا الجمع الغفير من كبار رجال قريش، وربما دخلت لذلك ضمن توسعات الحرم التى تم تنفيذها على مدى الأيام والسنوات..

* * *

أما آخر الأماكن الطيبة التى ارتبطت بحياة النبى الكريم ﷺ فى هذه المرحلة، فكان دار السيدة خديجة بنت خويلد.. هذه الدار التى دخلها رسولنا الكريم ﷺ مرتين من قبل أن يقيم بها إقامة دائمة بعد إتمام زواجه عليه السلام من أم المؤمنين خديجة، المرة الأولى حينما ذهب مع عمه أبى طالب إلى هذه السيدة التى كانت تستأجر فتياناً من قريش للقيام بشئون تجارتها إلى الشام.. أما الثانية، فهى التى دخلها بعد ما عاد من رحلته الناجحة وبعد اتساع رزقه فى هذه الرحلة..

وقد أخذت هذه السيدة تنتظر مقدمه، وقد وضع الله فى قلبها حباً لهذا الفتى القرشى، الذى كان يصغرها بخمسة عشرة سنة، ولسوف نبين هاتين المرتين اللتين دخلهما رسول الله إلى بيت السيدة خديجة من قبل زواجه بها فى بداية حديثنا عن الأماكن المشهورة فى حياته عليه السلام، وذلك فى المرحلة الثانية، ونقصد بها المرحلة التى تبدأ من الزواج إلى البعث؛ ذلك لما فيه من ارتباط قوى بين أحداث هذه المرحلة وبين أماكنها المشهورة.

٢- •• الأماكن المشهورة فى مرحلة الزواج:

من خلال الاطلاع على أكثر المصادر، التى ذكرت بدقة ما قيل بشأن ذلك التعارف، الذى تم بين محمد رسول الله، وبين السيدة خديجة بنت خويلد. . خاصة قبل ارتباطه بها ارتباط الأزواج. . لاحظنا وجود خلاف كبير بين هؤلاء الرواة الذين ذكروا ذلك. . وقد تمركز ذلك الخلاف حول الكيفية التى تم بها ذلك التعارف بين النبى الكريم، وبين هذه السيدة العظيمة، خاصة وأن فارق السن بينهما وصل ربما لأكثر من خمسة عشرة سنة.

فمن الرواة والمؤرخين الذين يؤكدون أن هذا التعارف تم لأول مرة، عندما عرض أبو طالب على أبن أخيه أن يتوسط لدى هذه السيدة؛ لأجل أن يعمل مع غلمانها فى تجارة لها سوف تخرج قريباً إلى الشام. . كمصدر رزق إضافى له، إذ لم تكن تغنيه حرفة رعى الغنم بالصحراء، وهو رجل فقير كثير العيال. .

وبناء على هذه العرض، ذهب أبى طالب إلى السيدة خديجة عارضاً عليها. . إمكانية مساهمة ابن أخيه مع بقية ما استأجرته من شباب قريش؛ للذهاب بتجارتها إلى الشام. . فى الرحلة الثانية.

معنى ذلك أن الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام. . قد ذهب مع عمه أبى طالب أثناء هذا الاتفاق إلى بيت السيدة خديجة أو ربما ذهب إليه بعد ذلك، عندما وافقت هذه السيدة على ما جاء فى هذا الاتفاق الشفهى.

فى حين نجد أن هناك روايات تاريخية كثيرة، رددها عديد من المؤرخين، وعلى رأسهم ابن إسحاق رضى الله عنه، ونحن نؤيده فيما رواه. . والتى تقول. . إن السيدة خديجة رضى الله عنها هى التى أرسلت إلى النبى الكريم ﷺ لتعرَض عليه المشاركة فى تجارتها المنطلقة إلى بلاد الشام، لما سمعت عنه من صدق الأخلاق وحسنها.

وقد ذهب إليها النبى الكريم ﷺ فى دارها ليعرف طبيعة هذه التجارة وكيفية المشاركة فيها. وتفاصيل هذه الرواية كما ذكرها ابن إسحاق تقول: «وكانت

خديجة ابنة خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال فى مالها وتضاربهم إياه بشىء تجعله لهم منه، وكانت قريشاً قوماً تجاراً، فلما بلغها عن الرسول ﷺ ما بلغها من صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه، بعثت إليه، فعرضت عليه أن يخرج فى مالها تاجراً إلى الشام، وتعطيه من فضل ما كانت تعطى غيره من التجار مع غلام لها يقال له ميسرة، فقبله منها رسول الله ﷺ ، وخرج فى مالها ذلك، ومعه غلامها ميسرة حتى قدم الشام».

* * *

ووفقا لصدق هذه الرواية واقترابها إلى حد بعيد من الواقع، استناداً لما يقال وقيل وسوف يقال عن حياة هذا النبى الكريم ﷺ التى اتصفت بالكمال منذ مولده حتى قبيل النبوة، فإن رسولنا ﷺ يكون بذلك قد زار بيت السيدة خديجة بنت خويلد مرة واحدة، من قبل أن يدخله زوجاً لها.

وقد ظل مرتبطاً بهذا البيت المبارك طوال حياته، حتى من بعد أن لقيت هذه السيدة الطيبة ربها. . بعد فترة زواج دامت عدة سنوات؛ ذلك لأن هذه السيدة قد تمنت فى قلبها وصدرها أن يكون هذا الشاب، الذى لم يكن يبلغ الخامسة والعشرين من عمره، زوجاً لها، فربما ألهمها رب العالمين بما سوف يكون عليه من شأن وما سوف تكون هى عليه من منزلة بالقرب منه.

ليس هذا فقط، بل ولعلى أقول فى المقابل، أن رسولنا الكريم ﷺ، ذلك الشاب الصادق الأمين، ربما أيضا، قد داعبت آماله الفوز بهذا الزواج لما رآه فى هذه السيدة من صفات كريمة أرشده الله إليها؛ انتظاراً لدورها الكبير فى احتضان الدعوة الإسلامية وصاحبها يوم الوحى.

ويقدم لنا الدكتور محمد حسين هيكل صورة رائعة ومرسومة بإيمان رجل يحب الله ورسوله ﷺ عن صفات هذا الشاب الذى تعرفت عليه السيدة خديجة فى هذه الفترة المبكرة من شبابه. . فيقول: «وكان محمد ﷺ وسيم الطلعة، ربعة فى الرجال ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد، ضخم الرأس، ذا شعر رجل

شديد سواده مبسوط الجبين فوق حاجبين سابغين منوتين متصلين، واسع العينين أدعجهما، تشوب بياضهما فى الجوانب حمرة خفيفة وتزيد فى قوة جاذبيتهما وذكاء نظرتهما أهداب طوال حوالك، مستوى الأنف دقيقه، مفلج الأسنان، كث اللحية، طويل العنق جميله، عريض الصدر رحب الساحتين، أزهى اللون، ششن الكفين والقدمين (أى غليظهما)، يسير ملقياً جسمه إلى الأمام، مسرع الخطى ثابتة، على ملامحه سيمأ التفكير والتأمل، وفى نظرته سلطان الآمر الذى يخضع الناس لأمره».

ويختتم الدكتور هيكل هذه الصورة الجميلة لأعظم خلق الله ﷺ بقوله: «فلاعجب وتلك صفته أن تجمع خديجة بين حبه والإذعان له، ولاعجب أن تعفيه من تدبير مالها لتقوم هى على هذا التدبير كدأبها من قبل، وأن تدع له ما شاء من فسحة الوقت ليفكر ويتأمل».

* * *

وفى المقابل، قدم عديد من المؤرخين صوراً جميلة أخرى لأم المؤمنين خديجة، وقد دارت كل هذه الصور حول نسبها وشرفها، بل وأكدوا أن هذه السيدة الفاضلة، هى التى طلبت الزواج من النبى الكريم ﷺ. حيث كانت فى دارها ورسول الله ﷺ عائداً من رحلته بتجارتها بعد ما ربح لها مالاً كثيراً. . وكانت ترقب الطريق من عُلية لها، فى لهفة مشوبة بشىء من القلق، وإلى جانبها غلامها «ميسرة» يملأ سمعها بحديث مثير عن رحلته مع محمد[1] ﷺ.

وحين ظهر لها أخيراً (والرواية لازالت للدكتورة عائشة عبد الرحمن) وهو يدنو من الدار بطلعته الفريدة وملامحه النبيلة، عجلت اليه تستقبله لدى الباب مرحبة، مهنئة بسلامة العودة، فى صوت يفيض عذوبة ورقة وحناناً، ورفع إليها وجهه شاكراً، وقد غض من بصره، ومضى يقص عليها أنباء رحلته وربح تجارته

(١) نساء النبى ـ د. عائشة عبد الرحمن ومصادر أخرى كثيرة.

ولما جاءها به من طيبات الشام. وأنصتت إليه معجبة حتى إذا ودعها ومضى، ظلت واقفة، حيث هى تتبعه عيناها إلى أن توارى فى منعطف الطريق[1].

ومما روى عن هذه السيدة الفاضلة، وعن نسبها وشرفها.. قول المؤرخين أيضا: كانت خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى، امرأة حازمة، جلدة شريفة، غنية، جميلة، من أواسط قريش نسباً وأعظمهم شرفاً، وكانت تدعى فى الجاهلية بالطاهرة وسيدة قريش، وقد عرض كثيرون عليها الزواج فلم تقبله، فلما رجع رسول الله ﷺ من رحلته إلى الشام، أرسلت إليه من يرغبه فى الزواج منها، وقيل إنها أرسلت أختها، وقيل: بل أرسلت نفيسة مولاة لها.. فقال: ما بيدى ما أتزوج به، فقالت: فإن كفيت ذلك ودعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاءة ألا تجيب؟. قال: فمن هى؟ قالت له: خديجة، قال: فأنا أفعل.

ولعلى أقول مؤكدا.. أن هذا الزواج المبارك كان مأموراً حسب ترتيبات السماء، إذ أراد الله رب العالمين أن يكون لهذه السيدة شرفان عظيمان، الأول شرف الارتباط بسيد الخلق أجمعين ﷺ وقد رزق منها الأولاد والبنات.. أما الثانى وهو الأهم: فهو شرف أن تكون أول امرأة قد دخلت الإسلام، وهذا معناه كبير وعظيم.. ويدل دلالة واضحة على صفاء نفس هذه السيدة، وبعدها عن الشرك والضلال والجهالة، وكل ما كان سائداً آنذاك فى عصرها وبين قومها، بدليل أنها تزوجت من قبل رسولنا الكريم ﷺ برجلين كانا من سادات العرب وأشرافهم، وربما طلقت منهما، لارتباطهما بالشرك بالله - الأول هو عتيق بن عائذ بن عبد الله المخزومى، والثانى أبى هالة هند بن زرارة التميمى.

ومن بعدهما عرض عليها عديد من أشراف مكة ورجالها الأغنياء أن يقترنوا بها، فرفضت ذلك وفق ما روى فى أكثر من مصدر.. وذلك حتى تتم مشيئة الله، وتصبح هذه السيدة الركن والسند القوى، الذى وضع رسولنا الكريم ﷺ ظهره إليه بعدما جاء الوحى بالإسلام.

---

(١) المصدر السابق.

ويؤكد عديد من المؤرخين أنه بعد زواجه عليه الصلاة والسلام من السيدة خديجة.. لم يسافر فى رحلة للتجارة، بل أقام بمكة إلى أن هاجر إلى المدينة.

ونحن نضيف إلى ذلك قولنا، بأن رسولنا الكريم ﷺ بعد ما وجد الأمان والعيش الطيب داخل هذا البيت الطيب، تفرغ لبقية تأملاته الإيمانية انتظاراً لظهور الناموس، ودام ذلك حوالى خمسة عشرة عاماً على حد قول الحافظ ابن حجر «كان تزويج النبى ﷺ قبل البعثة بخمس عشرة سنة».

ووفقا للإجماع كانت السيدة خديجة فى سن الأربعين، عندما اقترن بها رسولنا الكريم ﷺ فى حين كان سنه عليه السلام الخامسة والعشرين.

وقيل إنها مكثت مع الرسول ﷺ أربعاً وعشرين سنة، حيث توفيت ولرسول الله ﷺ تسع وأربعون سنة وثمانية أشهر. وأضاف ابن إسحاق: وذلك قبل الهجرة إلى المدينة بثلاث سنين[1].

وقد توفيت رضى الله عنها فى رمضان قبل الهجرة بثلاث سنين عن خمس وستين سنة، كما دفنت بالحجون.

وفى هذا البيت، كما تقول الدكتورة عائشة عبد الرحمن، قضى رسولنا الكريم ﷺ أعواماً هادئة ذات عدد، ارتوى «محمد» خلالها من نبع الحنان، معوضاً بذلك حرمان ماض يتيم ومتزوداً لغد مقبل، حافل بالكفاح المضنى والشواغل الجسام، كما شهد ذلك البيت المحبوب، مقدم أولاد نبينا الكريم ﷺ: القاسم وبه يكنى عليه الصلاة والسلام، والطاهر والطيب وزينب ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة عليهم السلام.

وقد توفى أطفاله من الذكور قبل النبوة، بينما حضرت جميع بناته الإسلام.. وذلك على قول ابن اسحاق: فأما القاسم، والطيب، والطاهر، فهلكوا فى الجاهلية، وأما بناته فكلهن أدركن الإسلام، فأسلمن وهاجرن معه ﷺ.

---

(١) أوجز السير لخير البشر - لأبى الحسين أحمد بن فارس الرازى - مصدر سابق.

كما شهد ذلك البيت الذى أقام به النبى عليه الصلاة والسلام فى مكة بصحبة أم المؤمنين خديجة، أفراحه حيث زفت فيه كبرى بناته «زينب» إلى ابن خالتها هالة «أبى العاص بن الربيع» القرشى، وتزوجت أختاها «رقية وأم كلثوم» من عُتبة وعُتيبة ابنى عمه عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم.

ويذكر التاريخ.. أن الرسول ﷺ ظل مرتبطاً هو وزوجته بهذا البيت الذى تزوج وعاش فيه سنوات طويلة.. حتى أُجبر هو وأسرته على تركه إلى شِعب أبى طالب بعد مبعثه عليه السلام.. إذ اضطر وزوجته أم المؤمنين خديجة وأولاده البنات إلى العيش داخل هذا الشِعب، وقد ظل بعيداً عن هذه الدار المباركة قرابة ثلاث سنوات.

وكانت لتلك الدار كما يؤكد ذلك المؤرخ الإسلامى الدكتور أحمد شلبى مكانا مهما فى مكة.. وكانت داراً فسيحة جداً.. لها فناء واسع وحظيرة بها الابل والغنم التى كانت تمتلكها هذه السيدة الغنية، بها كذلك مخازن فسيحة للسلع التى كانت تتاجر فيها، ثم بها أربع حجرات، إحداها للرسول صلى الله عليه وسلم ولزوجته، وحجرة أخرى لأولاده، وحجرة صغيرة لخلوة الرسول ﷺ وتعبده، وحجرة رابعة بمعزل عن البيت ولها مدخل خاص، وهى للرسول ﷺ ولعموم الناس من الضيوف المتعاملين معه عليه السلام.

وحتى عندما هاجر الرسول ﷺ .. استولى على هذا البيت الكبير عقيل ابن أبى طالب وباعها، ثم آلت ملكيتها بعد ذلك إلى معاوية بن أبى سفيان، الذى حولها إلى مسجد.. وهى الآن مكتبة للمطالعة، وتقع بالقرب من المسجد الحرام.

ثم كانت الكعبة المشرفة من أهم وأعز وأعظم الأماكن المشهورة التى ارتبطت بالنبى الكريم وارتبط بها خاصة فى هذه المرحلة أيضا.. وكما نعرف جميعا، فهو لم ينقطع عنها أبداً طوال حياته سواء من قبل الزواج أو من بعده، أو حتى من بعد مرحلة النبوة.

ولكن ارتباط الرسول ﷺ بالكعبة المشرفة وفى هذه المرحلة بالذات.. كان

يحمل أكثر من معنى ومغزى. . حيث هيأ رب العزة نفوس من كانوا حوله لتلقى الوحى الذى نزل عليه بعد إعادة بناء الكعبة بخمس سنوات، وهو الحدث المهم الذى شارك فيه بحكمته وحنكته التى أفاء الله بها عليه. . مما زاده صفات على ما كان يتحلى به من صفات أخرى عديدة وسط قومه.

ولو تدبرنا سوياً حكمة الله تعالى وتدبيره العظيم فى مشاركة هذا النبى الكريم من قبل بعثته فى حقن دماء أهل قبيلته الذين اختلفوا فيمن يضع الحجر الأسود مكانه. . ؟! ومن سيكون له هذا الشرف من بين بطون قريش؟ أقول لو تدبرنا ذلك بعين نافذة، سوف نكتشف مدى ما اتصف به هذا النبى الكريم ﷺ من صفات زادت من التفاف قومه حوله.

ولا شك أيضا أن هذا التصرف الحكيم، فى تصورنا كان هو أحد الوسائل المهمة التى برهنت على قُرب تكليفه برسالة السماء، بل وقربت بينه وبين العديد من رجال قريش، الذين عرفوا فيه الصدق والأمانة، فصدقوه وآمنوا به وبرسالته، بصرف النظر عما لاقاه من زعماء المشركين فى قبيلته الذين خافوا أن يؤمنوا به وبرسالته، لضمان عدم ضياع ما كانوا يتمتعون به من سلطان ونفوذ.

* * *

ولقد حفلت كل كتب التاريخ الإسلامى، وكل الكتب التى تناولت سيرته عليه السلام بهذا الحديث العظيم الذى شهدته مكة المكرمة قبيل النبوة، ربما بأقل من خمس سنوات. . وبما أننا نحتفى ونحتفل بأشهر الأماكن التى تأثر بها رسولنا الكريم ﷺ وأثر فيها فى كل مراحل حياته. . فكان لزاماً علينا أن نقف ولو للحظات أمام هذا الحدث، لاستجلاء ما فيه من هالات ضوئية كان مصدرها خير البشر أجمعين.

والكعبة المشرفة كما نعلم جميعا هى بيت الله الحرام. . وأول بيت وضع للناس للعبادة فى مكة المكرمة. . وقد قيل كلام كثير من موقعها سواء بالنسبة للأرض أو بالنسبة للسماء السابعة. . فقالوا على سبيل المثال. . إن الكعبة المشرفة هى مركز

الأرض.. وقالوا أيضا إنها أقيمت كظل للبيت المعمور الذى يطوف حوله الملائكة فى السماء السابعة.

وقد أعاد بناؤها سيدنا إبراهيم الخليل أبوالأنبياء والرسل، عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام، وولده إسماعيل الذى وطأت أقدامه هذه الأرض المباركة، وهو طفل رضيع مع أمه السيدة هاجر عليها السلام.

كما قيل فى هذا الشأن أن الملائكة هم الذين وضعوا قواعد ذلك البيت العتيق، ثم أقامه سيدنا آدم عليه السلام؛ لكى يطوف حوله ويتعبد فيه، كما كان يفعل الملائكة الذين شاهدهم، وهم يطوفون حول البيت المعمور.

ومع عوامل التعرية، ومرور الأزمنة، اندثرت تلك القواعد تحت الرمال، فأمر ربنا عبده إبراهيم أن يقيم قواعد ذلك البيت من جديد.

ولقد ظل على هذه الحالة وسوف يظل إلى أن تقوم الساعة، رغم أن هذا البيت قد مر بعدة مراحل نسميها مراحل تحسين فى بنائه على شكله، الذى وضع به على يد الملائكة الكرام.

وكان من بين هذه المراحل ما قام به زعماء قريش، الذين أعادوا بناء الكعبة، والذى شاركهم فيه النبى الكريم عليه الصلاة والسلام، وهو فى سن الخامسة والثلاثين.

بل وقد هيأه الله لكى يقوم بدور الوسيط الأمين فى حسم مشكلة من سيكون له أفضيلته إعادة الحجر الأسود إلى مكانه.. حتى مرت الأزمة بسلام، وكان دافعهم إلى اختياره ما اتصف به عليه الصلاة والسلام بالصدق والأمانة!.

ولنا وقفة مع التاريخ الذى رواه عديد من المؤرخين المسلمين عن قصة إعادة هذا البناء ودور سيدنا محمد ﷺ فيه.. ونحن نلخصها هنا فى عجالة من أجل ربط الأحداث والأماكن ببعضها البعض.

لقد بقيت الكعبة على هيئتها من عمارة إبراهيم عليه السلام، إلى أن بلغ النبى ﷺ خمساً وثلاثين عاماً من عمره الشريف، فخافت قريش أن تتهدم لتصدع

جدرانها بسيل دخلها بعد حريق أصابها، وكانت رخماً أى مبنية بحجارة فوق بعضها البعض دون مواد لاصقة.

وكان البحر قد رمى بسفينة إلى جدة فتحطمت، فخرج الوليد بن المغيرة فى نفر من قريش، فابتاعوا خشبها وأعدوه لتسقيفها، وكان بمكة آنذاك نجار ماهر يدعى «باخوم أو باقوم»، مولى سعيد بن العاصى، فأمروه أن يساهم فى إعادة بناء الكعبة.

وكان ﷺ ينقل الحجارة معهم فلما بلغ البناء موضع الحجر الأسود اختلفوا فيمن يضع الحجر موضعه، وأرادت كل قبيلة رفعه، وتواعدوا للقتال ثم تشاروا بينهم.. فجعلوا أول من يدخل من باب «بنى شيبة» يقضى بينهم، فكان أول من دخل هو رسول الله ﷺ، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين رضينا به.

وبخلاف ذلك هناك بالكعبة المشرفة من الأماكن المشهورة المرتبطة بحياة محمد عليه السلام.. موقع المعجن، وهو ذلك المكان الذى كان إبراهيم وإسماعيل يضعان فيه مواد البناء أو المونة.. وهو عبارة عن جزء مقعر بعض الشىء يقع فى قرب نهاية الضلع الشرقى للكعبة من الجهة الشمالية.

ويعتبر هذا المعجن أول مكان صلى فيه محمد ﷺ، وذلك عندما فرضت عليه الصلاة، وكان ذلك قبل هجرته بعام، وقيل بعام ونصف، وقد آتاه جبريل عليه السلام بالكعبة، وهو فى هذا الموضع لكى يعلمه كيفية الصلاة؛ ولذلك فهو يعتبر أول مكان سجد فيه رسول الله ﷺ، وكان كثيراً ما يلجأ إليه فى وقت الشدة.

حيث جاء فى السيرة العطرة أن الرسول ﷺ قال لعائشة: «إذا كنت فى ضيق وكنت صادق النية.. ولا تدرى لهذا الضيق مخرجاً، فاذهبى إلى المعجن، واسجدى لله ركعتين فلا تغادرى إلا وقد فرج الله كربك».

* * *

ويأتى جبل حراء فى المرتبة التالية من حيث الأماكن المشهورة فى حياة النبى ﷺ خلال هذه المرحلة.. وهو ذلك الغار الذى نزل به الوحى والقرآن الكريم..

وقد رأينا من الضرورى أن نؤجل حديث التفصيل عن جبل حراء كمكان

مشهور فى حياة محمد، عليه السلام، فى هذه المرحلة إلى حديث المرحلة التى ترتبط فى الأساس بإلقاء الأضواء المبهرة على الأماكن المشهورة بنزول الوحى والقرآن الكريم فى ليلة القدر المباركة.. وهى كما سوف نعرف من خلال هذا الحديث كانت مرحلة زمنية طويلة، امتدت لأكثر من عشر سنوات، وهى نفسها الفترة التى قضاها محمد عليه الصلاة والسلام فى مكة المكرمة، من قبل الإذن له بالهجرة إلى يثرب.

وحين نعود لحديث المرحلة التى سبقت نزول الوحى.. وهى مرحلة الزواج والأبوة.. نكتشف أن رسولنا الكريم ﷺ كان إلى جانب ارتباطه بالعزلة بحثا عن ذلك المستقبل المشرق لكل الإنسانية.. يحاول كذلك ألا ينقطع عن حياته الاجتماعية داخل بيته، وبين أولاده وزوجته.

ليس هذا فقط.. بل ربما كان عليه السلام يشرف على تجارة السيدة خديجة.. رضى الله عنها.. التى هى فى الوقت نفسه تجارته.. وكان يرى ذلك مناسباً من حيث الوقت والجهد.

وقد حفل عديد من الكتب التاريخية بالدور الاجتماعى العظيم، الذى لعبه رسولنا الكريم ﷺ فى حياة أهل بيته بين أولاده وزوجته.. وكان دائما ذلك الأب الرءوف الذى يفرح لأفراحهم ويحزن لأحزانهم.

وكما سبق وعرفنا فقد أنجب الرسول الكريم ﷺ من زوجته أم المؤمنين خديجة طفلين ذكر، هما: القاسم وعبدالله.. ومن البنات زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، وقد مات الطفلين فى الجاهلية، حيث ترك رحيلهما أثراً كبيراً فى حياة النبى الكريم فحزن على رحيلهما كثيراً، وكان يزداد حزنه عليهما كلما رجع إلى بيته، وشاهد زوجته خديجة وقد حز فى قلبها هذا الرحيل ألما شديداً.

ويقول الدكتور هيكل.. إن رحيل هذين الطفلين قد أثار فى نفسه عليه السلام عدة تساؤلات بعد موجة الأحزان هذه، وذلك عندما كان يرى زوجته تذهب إلى الكعبة، وتتقرب إلى ما بها من أصنام، درءاً لهذه الفواجع، بل وكان كثيراً ما يشاهدها، وهو فى لوعة الألم تقدم القرابين والذبائح، لهبُل واللات والعزى ولمناة الثالثة الأخرى، وكان عليه الصلاة والسلام كثيراً ما يتساءل بينه وبين نفسه.. بما

أوتى من فطرة سليمة . . عن مدى صحة هذا الذى تقوم به زوجته جرياً على عادة أهل قومها .

وفى يقينى أن رسولنا الكريم صلوات الله عليه وسلم، قد ظل على هذا التساؤل حتى أتاه اليقين وهو يتعبد فى غار حراء فى أحد جبال مكة المحيطة بالكعبة، وكان ظهور جبريل عليه السلام، وبداية الدعوة الإسلامية هو بداية أيضا للأحداث التى شهدتها بعض الأماكن المشهورة فى مكة المكرمة، وفى هذه المرحلة من حياة النبى الكريم ﷺ . . والتى أطلقنا عليها كما سوف نعرف من التفاصيل «مرحلة البعث».

ولو حاولنا إعادة ترتيب الحديث عن المراحل السابقة، وكذلك عن أهم أماكنها المشهورة، سوف نلمس بدون عناء عناية الله وترتيب أفعاله التى أرادها لهذا العبد الصالح . . حتى يأتى مهيأ لحمل هذه الرسالة العظيمة، التى سوف يهدى بها كل العالمين شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً . . وكان رسولنا الكريم ﷺ أهلاً لها . . فجاء هادياً أولاً لعشيرته ثم لقومه ثم للناس أجمعين .

(٣) •• الأماكن المشهورة فى مرحلة البعث:

كان من عادة القبائل العربية، بعضها وليست على إطلاقها، أن ينزوى بعض أفرادها من الذين كان يفتح الله عليهم بنعمة التفكير، لفترة شهر أو شهرين أو عام على أكثر تقدير فى أحد الأماكن النائية على سبيل الخلوة . . حتى يتفرغ هو وذهنه لما يفكر فيه!، وقد أطلقوا على ذلك الفعل «التحنث».

ويرى الدكتور محمد حسين هيكل أن محمداً عليه الصلاة والسلام قد وجد فى هذه العادة خير ما يمكنه من الامعان، فيما شُغلت به نفسه من تفكير وتأمل، فاختار غاراً فى أعلى جبال مكة، وهو جبل حراء، الذى كان يبعد فرسخين عن منزله عليه السلام.

ومما يقال فى هذا السياق أن محمداً عليه السلام قد بدأ عادة التحنث هذه قبل بعثته ربما بستة أشهر أو أكثر، وكان فى هذه الفترة كثير الرؤى الصادقة، التى أنارتله طريق الحقيقة، وأبصرته ببعض الذي كان يفكر فيه ويتمناه.

ولقد أكدت له هذه الرؤى أن ما يفكر فيه هو الصواب من حيث وجود إله واحد لهذا الكون العظيم.. فى مقابل ما يراه من عبادات مزيفة يأتيها قومه، حتى زوجته. وكان مصدرها وللأسف خشب وحجارة منحوتة بأيديهم، ثم يسجدون لها ويقدمون لها القرابين، بل ويملأون بها ساحة الكعبة ومداخلها!.

ويرى بعض المؤرخين أن هذه الرؤى الصادقة ظلت ملازمة النبى الكريم ﷺ حتى قبيل ظهور الناموس والملاك جبريل عليه السلام بستة أشهر.. وذلك حتى يهيأه الله على الأقل نفسياً لتقبل ما هو آت من مهام ثقيلة، كانت تتطلب منه الصبر والقوة والحلم والخلق الحسن.. وكلها كانت صفات موجودة بداخل نفس هذا النبى الكريم ﷺ.

فلما أتم الرسول الكريم ﷺ الأربعين عاماً من عمره الشريف، جاءه جبريل عليه السلام بالنبوة.. ووفق الإجماع.. تم ذلك فى يوم الاثنين لسبع عشر خلون من رمضان الموافق ٦ أغسطس من عام ٦١٠م.. وكان آنذاك يتعبد فى غراء حراء.

وكما نعرف جميعا.. فإن الليلة التى أنزل فيها الوحى بالقرآن، كانت هى ليلة السابع والعشرين من الشهر نفسه.. معنى ذلك أن جبريل عليه السلام وفق التاريخ السابق.. عندما ظهر لأول مرة للرسول الكريم كان هدفه المعرفة.. والتأهيل، والإبلاغ من رب السماء، بأنه هو النبى المنتظر.. وأنه بات عليه من هذه اللحظة أن يكون مستعداً لتلقى القرآن، وقد غاب جبريل عليه السلام هذه المرة عشرة أيام حتى عاد من جديد ليعلم النبى العظيم ﷺ القرآن العظيم.. وكان ذلك فعلاً فى ليلة القدر، التى هى خير من ألف شهر.

ولقد شرف الله جبل حراء دون جبال مكة الأخرى، بأن يكون فيه ذلك الغار الذى كان يتعبد فيه محمد عليه السلام..

أما بخصوص أمر هذه العبادة ونوعها فقد اختلف فيه العلماء.. فقيل إنه عليه السلام كان يتعبد فى الليلة ذوات العدد من شهر رمضان من كل عام، وكانت عبادته على دين إبراهيم عليه السلام، وقيل كان يتعبد إلهاماً من الله.

وقد روى ابن كثير فى تاريخه طرفاً من آراء المجتهدين فى مسألة نوع العبادة التى كان عليها الرسول الكريم ﷺ من قبل نزول الوحى. . ، فقالوا: شرع نوح، وقالوا: إبراهيم، وقالوا: موسى، وقالوا: عيسى، وقالوا: بل كان كل ما ثبت أنه شرع عنده اتبعه عليه السلام وعمل به.

ونظراً للقيمة التاريخية والدينية لذلك الغار. . وهذا الجبل الذى يطلق عليه الآن جبل النور. . فقد احتل مكانة مهمة. . سواء فى قلوب المسلمين أو فى عقولهم وأوراق دراساتهم التاريخية أو الجغرافية. . باعتباره أحد الأماكن المشهورة فى مكة، والذى لعب دوراً مهماً وعظيماً فى بداية الدعوة الإسلامية، ونحن لذلك نراه من أوائل الأماكن المشهورة فى حياة النبى الكريم ﷺ فى هذه المرحلة الحيوية من حياته عليه الصلاة والسلام.

ولقد رأينا من قبل تقديم بعض المعلومات المتوفرة لدينا عن جبل حراء. . أن نتوقف سويا. . أمام مراحل ظهور البعث، وبداية نزول القرآن الكريم فى غار ذلك الجبل، من خلال كلمات حديث شريف، روته السيدة عائشة أم المؤمنين وجاء فى صحيح البخارى، حيث قالت:

«أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الرؤيا الصالحة فى النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حُبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه - أى يتعبد - الليالى ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق، وهو فى غار حراء فجاءه الملك، فقال له اقرأ، فقال: ما أنا بقارئ، فأخذنى فغطنى - أى ضمنى وعصرنى - حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذنى فغطنى ثانية حتى بلغ من الجهد، ثم أرسلنى، فقال: إقرأ، قلت: ما أنا بقارىء، فأخذنى فغطنى الثالثة، ثم أرسلنى، فقال: اقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الإنسان من علق إقرأ وربك الأكرم، فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها، فقال: زملونى،

زملونى، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسى، فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل، وتكسب المعدوم وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق. فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة ابن نوفل ابن أسد بن عبدالعُزى ابن عم خديجة، وكان أمرأ قد تنصر فى الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبرانى، وكان شيخاً كبيراً قد عمى.

فقالت له خديجة يا ابن عم: اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخى ماذا ترى؟! فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذى نزله الله على موسى، يا ليتنى فيها جذعاً، ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك.

فقال رسول الله ﷺ: أو مخرجى هم؟! قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً، ثم لم ينشب ورقة أن توفى وفتر الوحى».

* * *

أما أستاذ الرواة فى مجال السيرة النبوية، محمد ابن إسحاق، فقد أورد لنا رواية أخرى منقولة عن بعض الصحابة والتابعين.. عن ابتداء نزول الوحى وارتباطه بغار حراء.. فقال: حدثنى وهب بن كيسان، مولى آل الزبير قال: سمعت عبدالله بن الزبير، وهو يقول لعُبيد بن عمير بن قنادة الليثى: حدثنا يا عُبيد، كيف كان بدء ما ابتدئ به رسول الله ﷺ من النبوة، حين جاءه جبريل عليه السلام؟.. قال: فقال، عُبيد: «وأنا حاضر يُحدث عبدالله بن الزبير ومن عنده من الناس - كان رسول الله ﷺ يجاور فى حراء من كل سنة شهراً، وكان ذلك مما تتحنث به قريش فى الجاهلية، والتحنث «التبرر».

ثم قال ابن إسحاق أيضا: وحدثنى وهب بن كيسان، قال: قال عُبيد: فكان رسول الله يجاور ذلك الشهر من كل سنة، يطعم من جاءه من المساكين، فإذا

قضى رسول الله ﷺ جواره من شهره ذلك، كان أول ما يبدأ به، إذا انصرف من جواره، الكعبة، قبل أن يدخل بيته، فيطوف بها سبعاً أو ما شاء الله من ذلك، ثم يرجع إلى بيته، حتى إذا كان الشهر الذى أراد الله تعالى به فيه ما أراد من كرامته، من السنة التى بعثه الله تعالى فيها، وذلك الشهر هو شهر رمضان، خرج رسول الله ﷺ إلى حراء، كما كان يخرج لجواره، حتى إذا كانت الليلة التى أكرمه الله فيها برسالته ورحم العباد بها، جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى.

قال رسول الله ﷺ: فجاءنى جبريل، وأنا نائم منبسط من ديباج - الوعاء المكتوب - فيه كتاب، قال: اقرأ، قلت: ما أقرأ؟ قال: فغطنى به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلنى، فقال: اقرأ، قال: فقلت: ماذا أقرأ؟! ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود علىّ بمثل ما صنع بى.. فقال: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾صدق الله العظيم [العلق الآيات من ١-٥].

قال: فقرأتها ثم انتهى، فانصرف عنى وهببت من نومى، فكأنما كُتبت فى قلبى كتابا، قال: فخرجت حتى إذا كنت فى وسط من الجبل، سمعت صوتاً من السماء يقول: يا محمد، أنت رسول الله وأنا جبريل، قال: فرفعت رأسى إلى السماء أنظر، فإذا جبريل فى صورة رجل صاف قدميه فى أفق السماء يقول: يا محمد، أنت رسول الله وأنا جبريل، قال: فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهى عنه فى آفاق السماء، قال: فلا أنظر فى ناحية منها إلا رأيته كذلك، فما زلت واقفاً ما أتقدم أمامى وما أرجع ورائى حتى بعثت خديجة رسلها فى طلبى، فبلغوا أعلى مكة ورجعوا إليها، وأنا واقف فى مكانى ذلك، ثم انصرف عنى، وانصرفت راجعاً إلى أهلى، حتى أتيت خديجة فجلست إلى فخذها مضيفاً إليها فقالت: يا أبا القاسم، أين كنت، فوالله لقد بعثت رسُلى فى طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا لى، ثم حدثتها بالذى رأيت، فقالت: أبشر يا بن عم وأثبت، فوالذى نفسى خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة».

ثم يواصل ابن اسحاق بقية الرواية.. ليصل بنا إلى ما سبق أن وصل إليه غيره من رواة السيرة النبوية، عندما ذهبت السيدة خديجة لابن عمها ورقة بن نوفل وبصحبة النبى الكريم ﷺ، لاستجلاء حقيقة هذا الذى حدث.

* * *

وهكذا تأكد نزول القرآن الكريم، مع بداية الدعوة الإسلامية التى حملها كمبلغ محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام.. والتى بدأت كما سبق وذكرنا من داخل غار حراء.. جبل النور.. أحد الجبال المحيطة بمكة.. وأحد الأماكن المشهورة ليس فى حياة النبى الكريم ﷺ وجده، بل وفى حياة الإسلام بشكل عام.

ولايزال ذلك الجبل موجوداً حالياً، وهو يطل على الكعبة المشرفة، وقد اهتمت به حكومة المملكة العربية السعودية، وجعلت له درجات من السلم تساهم كثيراً فى ارتقائه بسهولة عما حكم فى الماضى.

ويقع جبل حراء وفق رؤية علماء الجغرافيا شمال شرق مكة، وهو جبل شامخ ذو رأس أزلج على شكل قبة ملساء، وهى لذلك يشبه سنام الجمل السمين، وهو يقابل جبل شبير، من الشمال، وبينهما طريق مؤدى إلى الطائف عن طريق السيل، ويبلغ ارتفاع جبل حراء تقريبا ٦٣٤ متراً.. ويتفرع منه إلى الغرب وادى جليل هو أحد أودية مكة المشهورة وبسفحه الجنوبى آثار عين الزعفران، وهى إحدى العيون التى أجرتها السيدة «زبيدة» أم جعفر والى مكة.

وأما الغار فيقع يسار قمة ذلك الجبل من الناحية الجنوبية، وهو عبارة عن فجوة بابها ناحية الشمال تسع نحو خمسة أشخاص جلوساً بارتفاع قامة متوسط، وفى الناحية الجنوبية من الغار فتحة يُرى منها الحرم الشريف.

وكان جبل حراء فى الماضى يبعد عن مكة ٥ أميال، إلا أن العمران الجديد قد تسلق سفوحه الغربية والجنوبية حيث يقوم تحت أقدام ذلك الجبل، حى جديد من أحياء مكة الجميلة يعرف بحى النور(١).

* * *

(١) جبال الأنبياء للمؤلف، ولمزيد من المعلومات يرجي الرجوع إلى هذا الكتاب ص١٦٠، وهو من إصدارات دار نهضة مصر.

ويحتل بيت ورقة بن نوفل بمكة. . المركز الثانى فى قائمة الأماكن المشهورة فى هذه المرحلة الحيوية من حياة النبى الكريم ﷺ، وحياة الدعوة الإسلامية، ولقد سبق لنا الحديث عن هذا الراهب، الذى لجأت إليه السيدة خديجة لكى تعثر عنده على ذلك التفسير الذى يريح زوجها.

وفى يقينى الشخصى أن الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام. . قد ذهب مرة ومرات عديدة فى صحبة زوجته السيدة خديجة لزيارة هذا الشيخ، الذى كان على دين النصرانية. . وكانت الزيارة الأخيرة، هى الحاسمة فى سجل تلك الزيارات. . إذ أخبر ورقة بن نوفل الرسول الكريم ﷺ وهو فى صحبة زوجته بأنه نبى هذه الأمة، وقد بُعث إليه برسالة الإسلام.

ويبدو من سياق ما رواه أصحاب كُتاب السيرة أن السيدة خديجة منذ اقترافها بهذا الشاب القرشى، لم تنقطع عن زيارة ابن عمها ورقة بن نوفل، الذى تنبأ لها بأنها سوف تكون زوجة لنبى هذه الأمة.

وسواء حدث ذلك التأكيد فى وجود الرسول الكريم ﷺ أو فى عدم وجوده، فإن هذا الشيخ المؤمن. . هو الذى دفع بابنة عمه بقوة إيمان؛ لكى تكون أول امرأة تؤمن برسالة الإسلام، كما كان له فى الوقت نفسه دور كبير فى تثبيت فؤاد الرسول الكريم، عندما بين ما حدث له ليلة القدر، بعدما زاره جبريل عليه السلام وألقى عليه أن يقرأ سورة القلم.

بل وكما جاء فى الكثير من الروايات. . فقد تمنى هذا الشيخ أن تدركه الأيام ويسعفه عمره لكى يؤمن برسالة الإسلام، ويكون من مؤيدى هذا النبى الكريم ﷺ، وللأسف فقد أغفلت لنا كل الكتب، أين كان يقيم هذا الشيخ. . وهل كانت إقامته على أطراف مكة أو فى داخل منازل قبيلة قريش، إلا أن الواضح من سياق الروايات أنه كان يقيم فعلاً بمنازل أهله وأهل قبيلته بحكم قرابته من السيدة خديجة، التى قالت عنه كثيرا بأنه ابن عمها.

وربما أيضا كان يقيم فى إحدى الخلوات الموجودة داخل صحراء مكة. . وقد

انطلقت إليه السيدة خديجة حيث كان يقيم، لكى تستفسر منه عما حدث لرسول الله ﷺ.

وبشكل عام.. ومهما كان مكانه.. سواء بداخل مكة أو بخارجها.. فقد لعب هذا الرجل كما قلنا من قبل، وكذلك المكان الذى كان يقيم به دوراً حيوياً فى تثبيت فؤاد النبى الكريم وتبشيره بالدعوة الإسلامية، إلى جانب تثبيت فؤاد زوجته وتهيئتها؛ لكى تكون بجواره، وقد أثمرت بشارته بأن سارعت السيدة خديجة، لكى تكون أول من أسلم من النساء فى الإسلام.

* * *

ولما عاد رسولنا الكريم ﷺ من بيت ورقة بن نوفل.. حاملاً بداخله تلك البشارة الإلهية باختياره رسول هذه الأمة ورسول للعالمين فقد أخذ يهيأ نفسه وبيته، بل وبعض أصدقائه المقربين من أمثال أبى بكر الصديق.. لكى يكونوا بجواره بالتأييد والانضمام للدعوة الجديدة.

ويا لها من مهمة شاقة تحملها هذا الرسول الكريم، فى أدب وصدق وإحسان والدعوة إلى الله بالموعظة الحسنة، وكانت السيدة خديجة وصاحبه الجليل أبوبكر الصديق وابن عمه ذلك الطفل أو الصبى على بن أبى طالب من أوائل الذين آمنوا بهذه الرسالة، وبالتالى شاركوه هذه الدعوة.. التى بدأ فى نشرها سراً بين أخص أفراد قبيلتهم.

* * *

ولقد مرت الرسالة المحمدية وانتشارها فى مكة المكرمة بعدة مراحل، ارتبطت هى الأخرى بعدة أماكن مشهورة.

ووفقا للترتيب الذى ارتضيناه لهذه المراحل.. وجدنا أن الرسول الكريم ﷺ بعدما اطمأن قلبه بأنه رسول هذه الأمة، أخذ يرتب ما سوف يقوم به أولاً لإبلاغ هذه الدعوة.. التى استمرت سرية ولمدة ٣ سنوات وفق الإجماع..

وخلال هذه السنوات الثلاث. . انحسرت تحركات الرسول الكريم ﷺ لنشر الإسلام، فى أربعة أماكن. . داخل مكة المكرمة. . وهى بالترتيب وفق ما شهدته من أحداث: دار الأرقم بن أبى الأرقم. . ذلك المكان الذى أكد وجوده عديد من المؤرخين وحددوا مكانه بأنه منزل أسفل جبل الصفا، حيث اتخذ الرسول الكريم ﷺ هذا المنزل قاعدة انطلاق للدعوة الإسلامية، فكان يدعو إليه أخص الناس من الذين يرى فيهم الصدق والأمانة وحب الإسلام.

وقد اختار الرسول ﷺ هذه الدار. . لتعليم أصحابه القرآن الكريم، وإبلاغهم أولاً بأول بما كان ينزل عليه من السماء، ثم بعد ذلك عندما علمه جبريل عليه السلام كيفية الضوء والصلاة، اتخذها بعض الأصحاب مسجداً يقيمون فيها الشعائر، فى حضور النبى عليه الصلاة والسلام، الذى كان يعلمهم كل شىء عن الإسلام.

ومن بين هؤلاء الصحابة من كان يتخذ من زاوية فى منزله ركناً ليقيم بها الصلاة، ويتلو بها القرآن الكريم، وكانت فى طليعة هذه الأماكن كل من دار أبى بكر الصديق، كما يروى ذلك الرواة ودار عمر بن الخطاب؛ حيث كانت أخته تتعلم القرآن وتصلى مع زوجها وبعض أصحابه.

بل وكما سوف نرى. . كانت دار الأرقم بن أبى الأرقم. . هى ذلك المكان الذى قصده عمر بن الخطاب. . بعدما استمع للقرآن الكريم يُتلى فى منزله، لكى يعلن إسلامه وقد ظن الرسول ﷺ وصحبه أنه قد جاء للانتقام، ولكن الله قد هدى قلبه، فأسلم وأعلن إسلامه داخل جدران ذلك المنزل المبارك.

وكذلك كانت هي الدار التي شهدت ذلك الحادث الأليم، الذي أصاب أبوبكر الصديق، وهو خارج منه بعد ما عرف أعداء الإسلام من قريش بقصة إسلامه.

ولعلنا لأهمية هذه الدار في حياة الدعوة الإسلامية وانتشارها نورد بعض القصص، التى ارتبطت بها خاصة بالنسبة لإسلام كل من أبي بكر وعمر بن الخطاب. . وبقية الصحابة من الذين دخلوا هذه الدار الآمنة، ثم بعد ذلك نورد الشىء اليسير عن مصيرها، وما آلت إليه بعد سنوات من انتشار الإسلام فى مكة.

وكان علينا أن نذكر أولاً أصح الروايات عن هؤلاء السابقين إلى الإسلام، والذين كانوا يسارعون للقاء الرسول الكريم ﷺ بدار ابن أبى الأرقم للاستماع إلى القرآن.

وكما سبق وذكرنا كانت البداية: إسلام أبى بكر الصديق، صاحب رسول الله ﷺ الذى صدقه بلا جدال، وصار معه حيث كان، بل وشارك كثيراً فى هداية الكثير من الصحابة.. حتى وصلوا إلى ثمانية من الصحابة الأشداء، وذلك من قبل إسلام كل من حمزة عم الرسول ﷺ وعمر بن الخطاب.

هؤلاء الصحابة كانوا من الذين يحرصون على التردد على إلى دار ابن أبى الأرقم، كما أورد ذكرهم ابن اسحاق، هم: الزبير بن العوام، وعثمان بن عفان، وطلحة بين عبيد الله، وسعد ابن أبى وقاص، وعبدالرحمن بن عوف، ومعهم أبو بكر.

ويؤكد علماء السيرة وكثير من المؤرخين على أن إسلام هؤلاء جاء تلبية لدعوة أبى بكر الصديق الذى حببهم فى ذلك الدين الجديد، كما يؤكد ابن إسحاق أن هؤلاء النفر من قريش انطلقوا إلى رسول الله ﷺ، فعرض عليهم الإسلام، وقرأ عليهم القرآن، وأنبأهم بدعوة الإسلام، وبما وعدهم الله من كرامة فآمنوا، فكان هؤلاء النفر من الذين سبقوا إلى الإسلام، وأصبحوا مقربين بحق الإسلام، فصلوا وصدقوا رسول الله ﷺ.. وكانت وجهتهم دائماً دار الأرقم أسفل جبل الصفا.

وهناك من كتب السيرة الأخرى التى توسعت فى ذكر هؤلاء النفر، فأفردوا لهم الصفحات الطوال فى ذكر مناقبهم وأصولهم، وأدوارهم المهمة فى حياة الدعوة الإسلامية منذ بدايتها، وكذلك أدوارهم المشهورة فى نشر هذه الدعوة خارج أرض الحجاز.

كذلك اهتمت بعض كتب التاريخ الإسلامى بذلك الحادث الجلل، الذى تعرض له أبى بكر الصديق.. بعدما خرج من دار الأرقم.. وقد عرف شباب قريش بأنه

قد آمن بالدين الجديد. . فأرادوا معاقبته على ذلك!!، وكانت تلك بداية حقيقية لانتشار دين الإسلام، ولو على نطاق ضيق داخل مكة.

ومن أشهر الكتب التى ذكرت وقائع ذلك الحادث الأليم السيرة الحلبية، والتى جاء بها: أن رسول الله ﷺ لما دخل دار الأرقم ليعبد الله هو ومن معه من أصحابه سراً، ألح أبو بكر رضى الله عنه فى الظهور، فقال له النبى ﷺ: يا أبا بكر إنا قليل، فلم يزل به حتى خرج رسول الله ﷺ ومن معه من الصحابة رضى الله عنهم، وقام أبوبكر فى الناس خطيباً ورسول الله ﷺ جالس، ودعا إلى رسول الله، فهو أول خطيب دعا إلى الله تعالى، فثار المشركون على أبى بكر رضى الله عنه وعلى المسلمين يضربونهم فضربوهم ضرباً مبرحاً، ووطىء أبوبكر بالأرجل وضرب ضرباً شديداً.

وصار عقبة بن ربيعة يضرب أبا بكر بنعلين مخصوفتين، ويحرفهما إلى وجهه حتى صار لا يعرف أنفه من وجهه، فجاءت بنو تميم يتعادون فأجلت المشركين عن أبى بكر إلى أن أدخلوه منزله ولايشكون فى موته.

ثم رجعوا فدخلوا المسجد الحرام، فقالوا والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عُتبة، ثم رجعوا إلى أبى بكر وصار والده أبو قحافة وبنو تميم يكلمونه فلايجيب حتى آخر النهار.

ثم تكلم وقال: ما فعل رسول الله ﷺ ، فعزلوه، فصار يكرر ذلك. فقالت أمه: والله مالى علم بصاحبك. . فقال: اذهبى إلى أم جميل فاسأليها عنه، فخرجت إليها، وقالت لها أن تسأل عن محمد بن عبد الله. فقالت: لا أعرف محمداً ولا أبا بكر. ثم قالت: تريدين أن أخرج معك، . . قالت: نعم، فخرجت معها إلى أن جاءت أبا بكر فوجدته صريعاً، فصاحت وقالت: إن قوماً نالوا هذا منك لأهل فسق، وإنى لأرجو أن ينتقم الله منهم. فقال لها أبو بكر رضى الله عنه: مافعل رسول الله ﷺ ؟ فقالت له: هذه أمك تسمع. قال: فلا عين عليك منها - أى أنها لاتفشى سرك - قالت: سالم هو فى دار الأرقم. فقال:

والله لا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً أو آتى رسول الله، قالت أمه: فأمهلناه حتى إذا هدأ الرجل وسكن الناس، خرجنا به يتكئ عليّ حتى دخل على رسول الله ﷺ فرق له رقة شديدة وأكب عليه يقبله، وأكب عليه المسلمون كذلك.. فقال: بأبى أنت وأمى يا رسول الله ﷺ، مابى من بأس إلا ما نال الناس من وجهى، وهذه أمى برة بولدها، فعسى الله أن يستنقذها بك من النار. فدعا لها رسول الله، ودعاها إلى الإسلام فأسلمت.

* * *

ويتبقى من حكايات دار الأرقم بن أبى الأرقم كمكان مشهور فى حياة الرسول الكريم ﷺ.. ذلك الموقف المهيب، الذى كان عند دخول عمر بن الخطاب؛ لكى يعلن إسلامه، وقد ظنوه جاء للانتقام، وقد عنيت أيضاً كل كتب السيرة بقصة إسلام عمر بن الخطاب.. الذى أعز الله به الإسلام.. بعدما أسلم حمزه عم النبى ﷺ من قبله.

ويبدو أن الله قد كتب لدار الأرقم هذه دوراً كبيراً فى حياة الدعوة الإسلامية.. ورسالة النبى ﷺ.. ولقد ظلت هذه الدار موجودة بمكة المكرمة وبأسفل جبل الصفا حتى فترة متقدمة من انتشار الإسلام. وقد فضلنا الوقوف على قصة إسلام عمر بن الخطاب أولاً وارتباطها بهذه الدار.. من قبل الوقوف تفصيلاً على ما آلت إليه دار الأرقم، ومكانها فى الماضى والحاضر.

وقصة إسلام عمر بن الخطاب، تناولها عديد من الكتب بروايات مختلفة بعضها نسب إلى صحابة رسول الله ﷺ، وبعضها نسب إليه.. ونحن لم نلحظ مع ذلك وجود اختلافات كثيرة إلا فى أسلوب الحكاية فقط، أما مضمونها فكان فيه اتفاق.. وإن كانت هناك بعض الآراء التى حبذت توقيت إسلام عمر ابن الخطاب بعد خروج دعوة الإسلام إلى حيز العلانية، بعدما استمرت ٣ سنوات بين طى الكتمان، وفى حدود ضيقة للغاية.

ومهما كان هذا التوقيت سواء من قبل العلانية فى الدعوة أو من بعدها.. فإن

قصة إسلام عمر وفق الكثير من الآراء قد شهدتها أيضا دار الأرقم بن أبى الأرقم، وذلك بعد ما استمع إلى القرآن يتلى فى منزله أخته التى ضربها وشج رأسها.

ومن الذين يؤيدون توقيت إسلام عمر بعد علانية الدعوة الإسلامية الدكتور محمد حسين هيكل فى كتابه «حياة محمد»، وكذلك ابن كثير فى كتابه «صفوة السيرة النبوية».

ومما ذكره الدكتور هيكل عن وقائع إسلام عمر بن الخطاب، قوله: كان عمر ابن الخطاب يومئذ رجلاً فى فترة الرجولة بين الثلاثين والخامسة والثلاثين، وكان من أشد قريش أذى للمسلمين ووقيعة فيهم، فلما رآهم هاجروا إلى الحبشة ورأى النجاشى قد حماهم هناك.. شعر لفراقهم بوحشة. وكان محمد ﷺ يوماً مجتمعاً مع أصحابه، الذين لم يهاجروا فى بيت عند الصفا (وهو يقصد بيت الأرقم بن أبى الأرقم).. وعرف عمر اجتماعهم، فقصد إليهم يريد أن يقتل محمداً عليه الصلاة والسلام؛ كى تستريح قريش وتعود إليها وحدتها بعد أن فرق أمرها وسفه أحلامها وعاب آلهتها، وهو فى الطريق لقيه نعيم بن عبد الله فى الطريق وعرف أمره، فقال له: «والله لقد غشتك نفسك من نفسك يا عمر.. أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على وجه الأرض، وقد قتلت محمداً؟!. أفلا ترجع إلى أهل بيتك وتقيم أمرهم».

ويضيف الدكتور هيكل: وكانت فاطمة أخت عمر وزوجها سعيد بن زيد قد أسلما، فلما عرف من نعيم أمرهما كر راجعاً إليهما.. ودخل البيت عليهما، فإذا عندهم من يقرأ عليهما القرآن. فلما أحسوا دنوه اختفى القارئ وأخفت فاطمة الصحيفة، وسأل عمر: ماهذه الهيمنة التى سمعت؟ فلما أنكرا صاح بهما: لقد علمت أنكما تابعتما محمداً على دينه، وبطش بسعيد. فقامت فاطمة تحمى زوجها فضربها فشجها.. فهاج إذ ذاك هائج الزوجين وصاحا به: نعم أسلمنا فاقض ما أنت قاض. واضطرب عمر حين رأى ما بأخته من الدم، وغلبه بره وعطفه، وأخذ يسأل أخته أن تعطيه الصحيفة التى كانوا يقرأون، فلما قرأها تغير وجهه وأحس

الندم على صنيعه، ثم اهتز لما قرأ فى الصحيفة وأخذه إعجازها وجلالها وسمو الدعوة التى تدعو إليها؛ فزاد جانب عليه.. وخرج وقد لان قلبه واطمأنت نفسه، فقصد إلى مجلس الرسول الكريم، وأصحابه عند الصفا، فاستأذن وأعلن إسلامه، فوجد المسلمون فيه وفى حمزه للإسلام منعة وللمسلمين حمى(١).

وعن ابن عباس أنه قال: «أسلم مع رسول الله ﷺ تسعة وثلاثون رجلاً وإمرأة، ثم إن عمر أسلم فصاروا أربعين.. وروى أن النبى ﷺ قال: «اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام».

* * *

ونحن نبحث عن أشهر الأماكن التى أثرت وتأثرت بالدعوة الإسلامية فيما يخص مراحل هذه الدعوة.. عثرنا على وثيقة مهمة تبين لنا ذلك الدور الكبير، الذى لعبته دار الأرقم فى هذه المرحلة الصعبة من مراحل الدعوة الإسلامية؛ حيث لعبت الصدفة دورها فى العثور عما سوف نرويه عن هذه الدار، وعما قيل بشأنها.

ففى كتاب «المنازل والديار»، الذى ألفه العلامة أسامة بن منقذ مع مطلع القرن الخامس الهجرى، وفى سياق حديثه عن ذكر الديار، نقلاً عن بن جرير الطبرى من كتابه «نسب الصحابة» قال على لسان عثمان بن الأرقم، الذى ورث دار الإسلام عن أبيه: أنا ابن سُبع الإسلام، أسلم أبى سابع سبعة، وكانت داره بمكة على الصفا، وهى الدار التى كان النبى ﷺ يكون فيها فى أول الإسلام، وفيها دعا الناس إلى الإسلام، فأسلم فيها قوم كثير، وقال: ليلة الاثنين فيها «اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك: عمر بن الخطاب، أو عمرو بن هشام» فجاء عمر رضوان الله عليه من الغد بكرة، فأسلم فى دار الأرقم، وخرجوا منها، فكثروا وطافوا بالبيت ظاهرين، ودعيت دار الأرقم دار الإسلام.

وتصدق بها الأرقم على ولده، فقرأت نسخة صدقة الأرقم بداره: «بسم الله

---

(١) حياة محمد ـ مصدر سابق.

الرحمن الرحيم، هذا ما قضى الأرقم فى ربعه ما حاز بالصفا، إنها صدقة بمكانها من الحرم، لا تباع ولا تورث، شهد هشام بن العاص، وفلان مولى هشام ابن العاص».

قال: فلم تزل هذه الدار صدقة قائمة، بها ولده يسكنونها ويؤاجرون عليها، حتى كان زمن أبى جعفر المنصور، قال يحيى بن عمران بن عثمان بن الأرقم: إنى لأعلم اليوم الذى وقعت فى نفس أبى جعفر، وذاك أنه كان يسعى بين الصفا والمروة فى حجة حجها، ونحن على ظهر الدار فى فسطاط، فيمر من تحتنا، ولو شاء أن آخذ قلنسوة عليه لأخذتها، وأنه لينظر إلينا من حين يهبط بطن الوادى حتى يصعد إلى الصفا، فلما خرج محمد بن عبد الله بن حسن رضى الله عنه بالمدينة، كان عبد الله بن عثمان بن الأرقم ممن بايعه، ولم يخرج معه، فتعلق عليه أبى جعفر بذلك. فكتب إلى عامله بالمدينة أن يحبسه ويطرحه فى حديد.. ثم بعث رجلاً من أهل الكوفة يقال له: شهاب بن عبد رب، وكتب معه إلى عامله بالمدينة أن يفعل ما يأمره به، فدخل شهاب على عبد الله بن عثمان ابن الأرقم الحبس، وهو شيخ كبير بن بضع وثمانين سنة، وقد ضجر بالحديد والحبس، فقال له: هل لك أن أخلصك مما أنت فيه وتبيعن دار الأرقم، فإن أمير المؤمنين يريدها. وعسى إن بعثه إياها أن أكلمه فيك. فيعفو عنك، قال: فإنها صدقة ولكن حقى منها له، ومعى فيها شركاء إخوتى وغيرهم.

فقال: إنما عليك نفسك، فأعطنا حقك وبرئت، فأشهد له، وكتب عليه كتاب شرعى (وشرب الشيء أى باعه) على سبعة عشر ألف دينار، ثم تتبع إخوته ففتنهم بكثرة المال، فباعوه، فصارت لأبى جعفر ولم أقطعها.

ثم صيرها المهدى للخيزران أم موسى وهارون، فعرفت بها، ثم لجعفر ابن موسى الهادى، ثم اشترى عامتها وأكثرها غسان بن عبادة من ولد جعفر ابن موسى»[1].

(١) المنازل والديار ـ تأليف أسامة بن منقذ ـ تحقيق الدكتور مصطفى حجازى.

ولدار ابن أبى الأرقم كما ذكرنا منزلة عالية ومكانه مهمة فى الإسلام، ولذلك فقد اهتم بها الولاة والحكام.. وكان مقصدهم أن تضم إلى توسعات الحرم المكى.. ويبدو أن المهدى بن جعفر المنصور هو الذى أوصى لعماله على الحجاز بشراء هذه الدار وغيرها من الدور، التى كانت أسفل جبلى الصفا والمروة. وكان ذلك على ما يبدو فى عام ١٦٠هـ.. على أشهر الأقوال؛ إذ كلف المهدى قاضى مكة محمد الأوقعى المخزومى بشراء كل المنازل الواقعة بين المسجد وبين المسعى، وكذلك شراء المنازل الواقعة فى أسفل المسجد من جهة باب العُمرة حتى باب ابراهيم، فهدمت تلك المنازل جميعها وألحقت بالمسجد الحرام.

ومما يذكره الرواة فى هذا السياق أيضاً أنه حتى دار الندوة التى أسسها قصى ابن كلاب؛ ليجتمع بها أعيان قريش ويتبادلوا فيها شئونهم العامة سواء قبل الإسلام أو من بعد ظهوره، قد تحولت إلى استراحة من بعد ظهور الإسلام؛ لينزل فيها الخلفاء عندما يحجون أو يعتمرون، ولما ضعفت شوكة الخلافة أهملت هذه الدار، واستخدمت مكباً للنفايات والقمامة! فكانت السيول تجرف ما فيها من أوساخ داخل الحرم؛ فكتب قاضى مكة إلى الخليفة المعتضد عام ٣٨١هـ لإدخالها فى الحرم.

* * *

ولما نزل قول الله تعالى ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر الآية ٩٤].. وقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء الآيتين ٢١٤-٢١٥].. كان ذلك إيذاناً من الله بالجهر بالدعوة إلى الإسلام.. وظهورها داخل مكة، حيث بدأ يعرف بها الكثير من أهل قريش.

ولكى يعطى رسولنا الكريم ﷺ لهذه الدعوة الإسلامية صفة العلانية، خاصة بالنسبة لقومه وعشيرته من قريش. إختار أن يبدأ عليه الصلاة والسلام هذا الإعلان بنفسه.. بعدما كان يفضل السرية التى حافظ عليها لمدة ٣ سنوات. وكان سبيله لهذا الإعلان هو الوقوف على جبل الصفا، باعتباره من الأماكن المرتفعة المطلة

على الكعبة وعلى معظم ديار عشيرته، وذلك تلبية لأوامر الله التى نزل بها جبريل عليه السلام فى الآية القرآنية ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء الآية ٢١٤].

وتقدم لنا بعض كتب السيرة صورة حية لهذا اللقاء الحاسم والمثير، الذى تم بعد هذا الإعلان.. بل وكيفية النطق به.. عندما نادى رسول الله ﷺ على قومه وهو فوق الصفا متساءلاً: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقوننى؟!.. قالوا: نعم. قال: فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد.. يابنى عبد المطلب، يا بنى عبد مناف، يا بنى زهرة.. إن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين، وإنى لأملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيبا إلا أن تقولوا: لا إله إلا الله.. فقال أبو لهب: «تباً لك سائر اليوم.. ألهذا جمعتنا»[1].

وإن كان الدكتور محمد حسين هيكل يؤكد أن الرسول الكريم ﷺ، كان قد بدأ دعوته العلانية إلى الإسلام من قبل لقاء الصفا.. وهو فى ذلك يقول: دعا محمد ﷺ عشيرته إلى طعام فى بيته، وحاول أن يحدثهم داعياً إياهم إلى الله، فقطع عمه أبو لهب حديثه واستنفر القوم ليقوموا، ودعاهم محمد فى الغداة كرة أخرى، فلما طعموا قال لهم: : ما أعلم إنساناً فى العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة. وقد أمرنى ربى أن أدعوكم إليه.

فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر؟! فأعرضوا عنه وهموا بتركه، لكن عليا نهض وهو مايزال صبياً دون الحلم وقال: «أنا يا رسول الله عونك. أنا حرب على ما حاربت». فابتسم بنو هاشم وقهقه بعضهم، وجعل نظرهم ينتقل من أبى طالب إلى ابنه، ثم انصرفوا مستهزئين.

ثم يؤكد الدكتور هيكل أنه فى اليوم التالى، انتقل محمد عليه الصلاة والسلام إلى الصفا ليدعو بقية قومه، وكل أهل مكة، وكان عمه أيضاً له بالمرصاد.. فنزل قوله تعالى ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد الآيات من ١-٣].

(١) محمد رسول الله ﷺ ـ محمد رضا.

وعلى ذلك فإن جبل الصفا يمثل مكاناً رفيعاً بين أهم الأماكن المشهورة فى حياة محمد عليه السلام.. ومسيرة الدعوة الإسلامية.. لأجل ذلك فإننا سوف نسوق بعض الذى توفر لدينا من معلومات جغرافية وتاريخية عن جبل الصفا.. وكذلك أهم التطورات التى ألحقت به وبجبل المروة.. وما بات عليه شكلهما معاً الآن.

ففى كتاب قاموس الحج والعمرة.. جاء عن الصفا: أنها كلمة معناها الحجارة الملساء.. أما كلمة المروة فمعناها الحجر الأبيض الذى تقتدح منه النار. وهذان الجبلان اللذان ارتبطا بمناسك الحج والعمرة، إنما هما من جبال مكة المباركة.

وبالنسبة لجبل الصفا من حيث الشكل والموقع، فهو جبل صغير، يطل على الحرم من جهته الجنوبية.. أما المروة فهو جبل صغير، يطل على الحرم الشريف من جهة الشمال الشرقى من المسجد، والمسافة التى بين الصفا والمروة حوالى ٤٠٠ متر، وقد فرشتها الحكومة السعودية بالمرمر، وجعلته قسمين بينهما ممر للعربات الصغيرة التى تحمل الساعين العجزة من الحجاج، والقسم الأيمن للهابط إلى الطريق المنخفض إلى المروة، خاص بمن يقصدون المروة من الصفا، والقسم الأيسر للعائدين من المروة إلى الصفا[1].

وفى معجم البلدان يقول ياقوت الحموى: الصفا والمروة جبلان بين بطحاء مكة والمسجد.. أما الصفا فمكان مرتفع من جبل لأبى قبيس وبينه وبين المسجد الحرام عرض الوادى الذى هو طريق وسوق.

* * *

ولما أعلن رسول الله ﷺ عن بداية الدعوة الإسلامية جهراً وعلانية عندما أخبر عشيرته وأهل مكة.. بدأت الحرب شديدة الوطيس بين الحق والباطل ورموز الشرك والكفر، وبين المسلمين الأوائل الذين غلب عليهم الضعف رغم انضمام كل من حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب. وكان على رسول الله ﷺ أن يوفر الحماية لهؤلاء المسلمين الأوائل، ولم يكن أمامه من سبيل سوى تقديم

(١) قاموس الحج والعمرة ـ تأليف أحمد عبد الغفار العطار.

النصح لبعضهم بالهجرة خارج مكة، بل وخارج الحجاز كله. حتى أن رجلاً قوياً وغنياً مثل أبى بكر بن أبى قحافة، قد فكر هو الآخر فى اللحاق بالفوج الثانى من مهاجرى الحبشة. . هرباً من بطش أشداء قريش.

وعلى إثر نجاح الهجرات الإسلامية الأولى للحبشة، وفشل وفود قريش فى إعادة الفارين إلى دينهم القبيح مرة أخرى. . اشتد إيذاءهم للرسول الكريم ﷺ ولمن كانوا حوله من الصحابة الأوائل من النفر القليل.

وفى ظل فشل قريش فى تقديم كل الإغراءات المادية وغير المادية لإثناء الرسول الكريم ﷺ عن دعوته الإسلامية ودعوة التوحيد. . اتفقوا على إيذائه شخصياً والانتقام منه. فأخذوا يلاحقونه بالاستهزاء وبالمطاردة وبالتضييق عليه فى الحياة هو وأهله. . ولما فشلوا فى ذلك أيضاً قرروا أن يكون العقاب جماعياً. . أى عقاب الرسول الكريم ﷺ وأهله وصحابته، فيما سمى باتفاق الصحيفة التى علقوها بأحد جدران الكعبة.

ويقول بن كثير فى شأن هذا الاتفاق: فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلداً أصابوا منه أمناً وقراراً، وأن النجاشى قد منع من لجأ إليه منهم، وأن عمر قد أسلم، فكان هو وحمزه مع رسول الله ﷺ وأصحابه، وجعل الإسلام يفشو فى القبائل، فاجتمعوا وائتمروا على أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى عبد المطلب، على ألا ينكحوا إليهم ولاينكحوهم ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم. فلما اجتمعوا لذلك كتبوا فى الصحيفة، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ثم علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة، توكيداً على أنفسهم.

ويضيف ابن كثير: أن كاتب الصحيفة هو منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى، بينما يرى ابن هشام أنه النضر بن الحارث، الذى دعى عليه رسول الله ﷺ فُشلت بعض أصابعه، وقال الواقدى: كان الذى كتب الصحيفة طلحة بن أبى طلحة العبدوى، ولكن المشهور أنه منصور بن عكرمة

على قول ابن اسحاق الذى أضاف استكمالاً لقصة هذا الحصار المريب: فلما فعلت قريش ذلك انحازت بنو هاشم وبنو عبد المطلب إلى أبى طالب، فدخلوا معه فى شعبه واجتمعوا إليه، وخرج من بنى هاشم أبو لهب إلى قريش فظاهرهم، وقد أقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً حتى جهدوا، ولم يصل إليهم شيء إلا سراً مستخفياً به من أراد صلتهم من قريش، وقد أنفق رسول الله ﷺ كل ما لديه من مال خلال هذا الحصار.. وكذلك أبو طالب وخديجة.. ثم اطلع الله رسوله على أمر صحيفتهم، وأن الأرضة قد أكلت ما كان فيها من جور وظلم، وبقى ما كان فيها من ذكر الله.

فذكر ذلك رسول الله ﷺ لأبى طالب، الذى ذكره بدوره لإخوته، وخرجوا إلى المسجد، فقال أبوطالب لكفار قريش: إن ابن أخى قد أخبرنى - ولم يكن يكذبنى قط - أن الله قد سلط على صحيفتكم الأرضة، فلحست ما كان فيها من جور وظلم أو قطيعة رحم، وبقى ما كان فيها من ذكر الله، فإن كان ابن أخى صادق فزعتم من سوء رأيكم، وإن كان كاذباً رفعته إليكم فقتلتموه أو استحييتموه، قالوا: قد أنصفت فأرسلوا إلى الصحيفة ففتحوها، فإذا هى كما قال رسول الله ﷺ فسقط فى أيديهم ونكسوا على رؤوسهم، فقال أبوطالب: علام نحبس ونحصر، وقد بان الأمر.

ويصور لنا الدكتور هيكل حال المسلمين.. من قبل أن يفرج الله عنهم هذا الحصار، وكيف كانوا ومعهم رسول الله ﷺ داخل أحد شعاب مكة، وهو شعب من شعاب جبالها، فيقول: ظلت الصحيفة التى تعاقدت قريش فيها على مقاطعة محمد وحصار المسلمين نافذة ثلاث سنوات متتابعة، احتمى محمد وأهله وأصحابه خلالها فى شِعب من شعاب الجبل بظاهر مكة، يعانون الحرمان ألواناً.. ولا يجدون فى بعض الأحايين وسيلة إلى الطعام يدفعون به جوعهم، ولم يكن يتاح لمحمد ولا للمسلمين الاختلاط بالناس والتحدث إليهم إلا فى الأشهر الحرم، حين يفد العرب إلى مكة حاجين.

وفى هذه الأشهر الحرم، كان محمد ﷺ ينزل إلى العرب يدعوههم إلى دين الله ويبشرهم بثوابه وينذرهم بعقابه، وكان ما أصاب محمداً من الأذى فى سبيل دعوته شفيعة عند كثيرين، حتى لقد زادهم ما سمعوا من ذلك عليه عطفاً وعلى دعوته إقبالاً.

وكما نعرف جميعا وفق ما يردده رجال الجغرافيا، فإن شعاب مكة ما هى إلا أماكن طبيعية، صنعتها السيول الجارفة التى كانت تهاجم هذه الأماكن من آن لآخر.. وقد وجد فيها أصحاب رسول الله ﷺ الملاذ والملجأ والفرار بدين الله من عنف وقسوة رجال قريش.

كذلك كانت هذه الشعاب مساجد يصلى بها المسلمون الأوائل.. بعيداً عن أعين الناظرين من جواسيس قريش، ولقد مر بنا من قبل كيف اضطر رسول الله ﷺ وأهل بيته للعيش داخل هذه الشعاب فى فترة حصار قريش، وكانت فرصة طيبة له ولأصحابه من المسلمين، رغم ما كان بهم من شدة للتقرب إلى الله.. الذى لم يتخل عنهم ولا عن رسوله لحظة واحدة.. ونعتقد أن حادث الأرضة التى أكلت الصحيفة الملعونة خير شاهد على ذلك.

وهكذا يضيف هذا المكان الجديد بعداً جديدا، ونقلة جديدة فى حياة الدعوة الإسلامية، إذ شهدت الأيام والأشهر التالية لحادث الحصار داخل شعاب مكة.. انطلاقة قوية للإسلام، ليس فى مكة فقط، بل وفى البلاد المجاورة لها.

وكانت كما علمنا.. الأشهر الحرم فرصة النبى الكريم ﷺ لتبليغ رسالة ربه بالإسلام والتوحيد، التى أثمرت فى النهاية عن حادث الهجرة العظيم، والذى كان هو البداية الحقيقية لانتشار الإسلام، بعد أن شهد مرحلة الاستقرار وإنشاء الدولة هناك فى يثرب.

ولا نتصور أن فترة الأزمات قد انتهت بالنسبة للرسول ﷺ بعد فك حصار شعاب مكة.. بل بالعكس.. فقد زادت المشاكل والصعاب.. وكان ذلك شيئاً طبيعياً.. لأن الدعوة الإسلامية قد انتشرت وعرف بأصولها قطاع عريض من

قبائل العرب الوافدة على مكة.. وكان هذا الانتشار يزيد غيرة وحقد قريش ورموزها الفاسدة، وكانوا كلما ازدادوا غيرة وحقداً إزداد إيذاءهم للرسول ﷺ ولأصحابه، ومن هنا نبعت فكرة الهجرة الكبرى للرسول الكريم ﷺ الذى أعد لها أصحابه من قبل أن يقوم هو عليه الصلاة والسلام بها.

ولكننا نود أن نشير فى هذا السياق إلى أن رسول الله ﷺ قد فكر كثيراً فى تحديد مكان هذه الهجرة من قبل أن يوفقه الله، ويؤكد فى روعة أن المكان المقصود هو يثرب، وقد سبق ذلك فكرة الهجرة إلى الحبشة.. ولكنها كانت فكرة مؤقتة.. إذ كيف كان يخرج بدين الله، وهو لايزال فى الأدوار الأولى من الدعوة بأرض الحجاز. لذلك كان لابد من التفكير فى هجرة أكبر ولكن فى مكان قريب من مكة.. وليكن هذه المرة.. فى اتجاه الطائف!.

وتقول لنا كتب السيرة أن الرسول الكريم ﷺ قد حاول أن يجرب هذا المكان الجديد بنفسه فذهب إلى هناك.. ولكن واجهته صعاب شديدة وآلام نفسية تحملها بصبر وقوة وعزيمة وإيمان بالله، ولسوف نرجأ الحديث عن رحلة رسولنا الكريم ﷺ إلى مدينة الطائف، لحين الحديث عن المدينة نفسها وما كان بها من أماكن مشهورة ارتبطت بهذه الرحلة، وأهم نتائجها.

* * *

ويتبقى لنا من حديث الأماكن المشهورة فى حياة محمد عليه السلام - داخل مكة المكرمة. نقطتين، الأولى: نتحدث من خلالها عن أهم الأماكن المشهورة فى المرحلة الأخيرة من حياته عليه الصلاة والسلام فى هذا البلد الأمين، والتى سبق وأطلقنا عليها مرحلة الهجرة.. مع ملاحظة أن هذه المرحلة نراها متداخلة فى أحداثها وفى أماكنها مع حديث الأماكن المشهورة عن ذات الرحلة إلى المدينة المنورة، وإن كنا سوف نخصص حديث الهجرة وأماكنها المشهورة فى نطاق الأماكن التى تدخل جغرافيا ضمن مكة المكرمة، ثم نستكمل ذلك بعد وصول

الرسول الكريم ﷺ إلى مشارف المدينة.. كبداية لمرحلة جديدة فى حياته عليه الصلاة والسلام وحياة أصحابه، بل وحياته ومسيرة الدعوة الإسلامية كلية.

أما النقطة الثانية المتعلقة بحديث مكة المكرمة وأماكنها المشهورة، فهى تتعلق إلى حد بعيد بذلك البلد الأمين.. ولكن بعد مرور فترة زمنية كبيرة، تلك الفترة المباركة التى قضاها محمد عليه الصلاة والسلام فى المدينة المنورة كزعيم أمة ومعلم ورئيس، وذلك من قبل عودته مرة أخرى إلى مكة فاتحاً وغازياً، ومؤكدا لنصرة دين الله.. وهو الحدث العظيم المعروف فى التاريخ بفتح مكة، والذى أنبأنا الله تعالى ببعض أحداثه فى آيات من القرآن الكريم.

(٤) •• الأماكن المشهورة فى مرحلة الهجرة:

ولقد توقفنا فى الحديث السابق عن أهم الأماكن المشهورة فى مكة المكرمة.. عند انتشار وذيوع الإسلام داخل ربوع ذلك البلد الأمين من بعد نجاح الرسول الكريم ﷺ بفضل الله من فك حصار الصحيفة، وشعور قبيلة قريش بأن الإسلام قادم بقوة لا محالة.. وبالتالى كان عليهم تشديد إيذائهم ومضايقاتهم للرسول ﷺ ولأصحابه، عساهم أن يفوزوا ببعض الذى كانوا يريدونه للقضاء على هذه الدعوة المباركة.

ومن أجل ضرب هذه السياسة التى انتهجتها قريش ضد الرسول ﷺ وأصحابه، كان لابد من التفكير جدياً فى عديد من البدائل لحماية الإسلام ورجاله، خاصة بعدما فشلت رحلته عليه الصلاة والسلام إلى مدينة الطائف؛ لكسب المزيد من المؤيدين للإسلام.. من خارج مكة.

ولقد ساهم عديد من الظروف الطيبة فى ظهور بشائر النصر فى اتجاه المدينة المنورة، حيث أثمرت جهود الرسول الكريم ﷺ ومحاوراته المستمرة حتى أثناء هذا الحصار؛ بشأن الإسلام خاصة للقبائل الوافدة عليه من المدينة.

هذه القبائل قد نقل بعض رجالها نور الإسلام إلى أهليهم؛ مما كان له أكبر

الأثر فى زيادة رقعة الإيمان بالإسلام وبالرسول الكريم ﷺ، وبالدين الجديد.. رغم أنف محاولات قريش ورجالها.

هذا النجاح المبهر فى التفاوض وقوة الاقناع بعظمة الإسلام فى ضرب الشرك والكفر.. قد أثمر كما ذكرنا ثماراً طيبة ظهرت بشائرها فى ذلك الاستقبال العظيم الذى لقيه أول وفد من المهاجرين من مكة إلى المدينة.. مما شجع الرسول الكريم ﷺ على حث كل أصحابه للحاق بزملائهم من المسلمين الأوائل، الذين لاقوا كل ترحاب وسعة وأمان فى المدينة.

وكلما وصل إلى علم قريش ما كان يعيش فيه المسلمين المهاجرين فى المدينة من أمان وطمأنينة وعيش كريم، كانوا يزدادون هم ضراوة فى التنكيل والتعذيب بالبقية الباقية من أصحاب رسول الله ﷺ، مما جعله عليه الصلاة والسلام يُعد العدة هو الآخر فى انتظار الإذن من السماء لكى يبدأ عليه السلام بنفسه.

ولقد ظل فى شوق من تحقيق تلك الخطوة؛ حتى يوفر للدعوة الإسلامية ما كان يحلم به من سعة انتشار وأمان وطمأنينة وغلبة وتأييد على نطاق واسع، وكان رسول الله ﷺ واثقاً من نصر الله وتوفيقه.. وبتحقيق تلك الخطوة.

ولما جاء إذن السماء للرسول صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى المدينة.. بدأت المرحلة الأخيرة من مسيرة الدعوة الإسلامية وانتقالها من مكة إلى المدينة، ذلك البلد العظيم الذى عاش فيه محمد عليه السلام حتى وافته المنية.

ولقد شهدت مرحلة الهجرة هذه عدة أحداث طيبة.. تزامنت مع عدة أماكن مشهورة، سوف نقف عليها بالتفصيل خلال الفقرات القادمة، وكان من أهم تلك الأحداث بيعتا العقبة الصغرى والكبرى، ثم نجاح الرسول الكريم ﷺ وصاحبه فى اجتياز حصار قريش من الذين جمعوا شبابهم على قلب رجل واحد، ووقفوا بباب منزل النبى العظيم.. على أمل الفوز به والقضاء عليه وعلى دعوته. وكذلك سوف نعيش سوياً، أحداثاً وأماكن مشهورة أخرى، ارتبطت إلى حد بعيد برحلة

الهجرة من مكة إلى المدينة.. وقد جرت أحداثها جميعا فيما سمى بعد ذلك بطريق الهجرة.

* * *

ولنبدأ حديث هذه المرحلة المهمة فى حياة الدعوة الإسلامية بإلقاء بعض الأضواء المبهرة على وقائع بيعتى العقبة، وكذلك الوقوف تفصيلاً على ذلك المكان الذى جرت فيه.

وكما أسلفنا.. فقد اهتمت الكثير من كتب السيرة وكذلك كتب التاريخ بالحديث المفصل عن هاتين الاتفاقيتين.. وآثرهما.. باعتبارهما كانتا من أهم مقدمات تنفيذ خطة الهجرة إلى المدينة رغم أنف قريش وأتباعها، وقد سبق توقيع هاتين الاتفاقيتين بالمفهوم العصرى بعض المناقشات الجانبية التى دارت بين الرسول ﷺ وبين نفر من الخزرج من الذين خرجوا إلى حج مكة، فلقيهم الرسول ﷺ، وكانوا من موالى اليهود الذين استعادوا مكانتهم بيثرب بعد قتال قبيلتى الأوس والخزرج.. كما كانوا على علم من أحبار اليهود بنبأ ظهور نبى جديد.

ولما التقى بهم الرسول ﷺ فى موسم الحج.. دعاهم إلى الإسلام، فأسلموا بعد مناقشات فهموا منها أنه النبى ﷺ الذى تتحدث عنه اليهود فى يثرب، ويؤكد الدكتور محمد حسين هيكل أنهم لما رجعوا إلى ديارهم، لم تبق دار من دور الأوس أو الخزرج جميعا إلا فيها ذكر محمد عليه السلام.

وفى العام التالى.. تم توقيع اتفاقية العقبة الأولى.. عندما جاء إلى مكة اثنا عشر رجلاً من أهل يثرب، وكانوا فى شوق إلى لقاء صاحب الرسالة الجديدة، وقد التقوا به عليه الصلاة والسلام عند العقبة التى تضاف إليها الجمرة، فيقال «جمرة العقبة».. ومكانها الآن على يسار القاصد منى من مكة.

وكان على رأس هؤلاء النفر من أهل يثرب أسعد بن زرارة وعوف بن الحارث وهما من بنى النجار أخوال الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، حيث بايعه هؤلاء على ألا يشركوا بالله شيئاً.. وكان ذلك وفق الإجماع.. فى السنة الثانية عشرة من الهجرة، أى عام ٦٢١م.

وقد سميت بيعة العقبة ببيعة النساء أيضا . . ، وسميت بذلك لأنها كانت على الأمور التى ورد ذكرها فى سورة الممتحنة الخاصة ببيعة النساء، والتى يقول فيها رب العالمين: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة الآية ١٢].

وبعد أن تمت هذه البيعة بنجاح بعث رسول الله ﷺ مع هؤلاء النفر من أهل يثرب مصعب بن عمير بن هاشم ليعلمهم قراءة القرآن الكريم، ويعلمهم الإسلام، وكانوا هناك يطلقون عليه اسم المقرئ، وقد أسلم على يديه كل من سعد بن معاذ وأسيد بن حضير.

وعلى إثر انتشار الإسلام فى المدينة . . بعد بيعة العقبة الأولى . . اتفق جماعة من الأنصار من أهل يثرب على لقاء الرسول ﷺ مستخفين لا يشعر بهم أحد، فجاءوا مكة فى الموسم التالى فى ذى الحجة مع كفار قومهم واجتمعوا سراً بالرسول الكريم وواعدوه أواسط أيام التشريق.

واختاروا مكان هذا الاجتماع فى العقبة أيضا . . وكانوا وفداً من قبيلتى الأوس والخزرج . . واختلف المؤرخون، والرواة فى عددهم حيث رأى بعضهم أن هذا العدد بلغ سبعين رجلاً وامرأة واحدة على حد قول بن إسحاق . . أما الرأى الغالب فإن عددهم بلغ ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان، فمن الأوس أحد عشر رجلاً ومن الخزرج اثنان وستون رجلاً . . أما المرأتان فهما أم عمارة نسيبة بنت كعب بن عمرو بن عوف بن مبذول المازنية النجارية . . وأما الثانية فهى أم منيع أسماء ابنة عمرو بن عدى بن سواد بن غنم بن كعب بن سلمة.

وكانت اتفاقية، أو بيعة العقبة الثانية، بمثابة حلف قومى عقده الرسول الكريم ﷺ مع وفود يثرب . . وبالتالى كانت إيذانا لبدء مرحلة جديدة من مراحل الجهر بالدعوة الإسلامية والسعى لانتشارها حتى خارج مكة.

ويؤكد الدكتور هيكل أن محمداً فكر فى أن تخرج هذه البيعة الجديدة عن نطاق الدعوة للإسلام على نحو ما ظل هو يدعو إليه خلال ثلاث عشرة سنة متتابعة فى رفق وهوادة، واحتمال صنوف التضحية والألم معاً، بل ورأى من الضرورى أن تمتد إلى ما وراء ذلك، وتكون حلفاً يدفع به المسلمون عن أنفسهم الأذى بالأذى والعدوان بالعدوان.

ونظراً لما كان لقريش من عيون كثيرة قد ملأت كل أركان مكة.. جبالها وشعابها، فقد علموا بنبأ هذا الحلف.. وعلى الرغم من تأكيد وفد يثرب بنفى ما استمعت إليه قريش.. إلا أنهم أى قريش، قد أخذوا فى التفكير فى القضاء على صاحب الدعوة، وبالتالى القضاء على الإسلام.. وهى خطوة كبيرة ومرعبة وخطيرة لم يفكروا فى اتخاذها من قبل!.. وكانت تنم عن مدى خوفهم من خروج الرسول الكريم ﷺ بدعوته هذه إلى يثرب حيث التأييد والأمن والقوة والغلبة.. ولكن الله خيب ما فكروا فيه وعقدوا العزم عليه.

ونظراً لما اتفق عليه الرسول الكريم ﷺ مع هذا الوفد.. وما سمع عنه رسولنا العظيم من أبناء طيبة من مصعب بن عمير بشأن ما لاقاه وبقية أصحاب الرسول ﷺ من كرم ضيافة وأمان وحرية عقيدة، فقد بات هو الآخر ينتظر إذن السماء للحاق بهؤلاء القوم المؤمنين فى الوقت الذى كان يفكر فيه زعماء الكفر من قريش فى وسيلة جماعية للقضاء على الرسول وبعض أصحابه، وقد علم هو بذلك حيث أنبأته السماء بمكرهم وما باتوا عليه من تفكير لعين.

وقبل أن نترك حديث بيعتى العقبة.. رأينا من الضرورى إلقاء بعض الأضواء المبهرة على ما بقى فيها من آثار ترتبط بالأماكن المشهورة التى عاصرت أيام رسول الله ﷺ.

ففى ذلك المقام الذى عقدت فيه البيعتين أقيم مسجد يحمل الاسم نفسه.. وهو يقع بقرب العقبة التى هى حد منى من بئر مكة وراء العقبة فى شعب على يسار الذاهب من مكة إلى منى.

وكما كانت منى على حد قول الدكتورة سعاد ماهر . . تقع إلى الشمال الشرقى من الكعبة، لذلك فإن حائط القبلة لمسجد العقبة يقع فى الضلع الجنوبى الغربى منه. وتجمع كل المراجع التاريخية التى تناولت دراسة مكة والمسجد الحرام. . على أن مسجد البيعة سمى بهذا الاسم؛ لوقوعه فى شعب العقبة حيث التقى محمد عليه الصلاة والسلام مع أهل يثرب من قبيلتى الأوس والخزرج[1].

وإن كانت هناك مصادر أخرى توضح أن هذا المسجد أقيم مكان البيعة الكبرى التى تمت فى حضور العباس بن عبدالمطلب عم رسول الله؛ ذلك لأنه لم يعُن أحد بإقامة مسجد فى تلك البقعة قبل الدولة العباسية.

وبدخول فكرة هجرة الرسول الكريم ﷺ ليثرب. . إلى حيز التنفيذ، بدأت المرحلة المهمة فى حياته عليه السلام وحياة الدعوة الإسلامية، وقد شهدتها كذلك مجموعة من الأماكن المشهورة. . كان على رأسها منزل رسول الله ﷺ الذى بات فيه بدلاً منه ابن عمه الأمام على رضى الله عنه، وذلك على سبيل التمويه لأجل أن يفر بنفسه وبدينه. . بعدما اجتمع أمام باب داره نفر كثير من قريش، انتقوا عناصره بدقة من كل القبائل. . خوفاً من ثأر عشيرته وأهله. .

وكانوا يتصورون بذلك الفعل الخبيث أنهم سوف ينأون بأنفسهم عن الدخول فى صراع مع أهل رسولنا الكريم بحجة أن دمه الشريف عليه الصلاة والسلام قد تفرق بين القبائل، وبالتالى لا يحق لأهله محاربة هؤلاء جميعاً!!.

ولقد اجتهد كثير من الرواة ومن المؤرخين فى نقل وصف دقيق لما حدث ليلة هجرة الرسول، من بعد أن استبدل ابن عمه ليبيت فى فراشه. . ومما ذكروه فى هذا السياق. . «أن إبليسا» لعنه الله هو الذى اقترح على كفار قريش خطتهم الرامية لقتله عليه الصلاة والسلام فى داره، وبسيوف يحملها فتيان أشداء من قريش، وقد تصور لهم الشيطان وهم مجتمعون فى دار الندوة شيخاً من نجد. . أخذ يتلو عليهم خططه الشيطانية وهم مستمعون إليه فى إنصات واهتمام.

ولما اتفقوا على هذا الأمر، أتى جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ وفق ما رواه ابن هشام، فقال: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبيت عليه، فلما

(١) مساجد فى السيرة النبوية - د. سعاد ماهر.

كانت العتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه متى ينام، فيثبون عليه، فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم، قال لعلى بن أبى طالب: نم على فراشى وتسج «أى تغطى» ببردى هذا الحضرمى الأخضر، فنم فيه، فإنه لن يخلص إليك شىء تكرهه منهم، وكان رسول الله ﷺ ينام فى برده ذلك إذا نام.

ولما اجتمع فتيان قريش على باب النبى ﷺ، وأراد عليه السلام أن يخرج من بينهم.. أخذ حفنة من تراب فى يده، كما أخذ الله تعالى أبصارهم عنه، فلم يروه، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلوا هذه الآيات الكريمة من سورة يس: ﴿**يسٓ ۝١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ**﴾. صدق الله العظيم [يس الآيات من ١-٩]

وهكذا نرى أن بيت رسول الله ﷺ الذى أقام فيه مع زوجته الراحلة أم المؤمنين خديجة بنت خويلد.. قد شهد أخيرات أيامه فى مكة المكرمة.. من قبل أن يغادرها إلى بيت الهجرة والأمل الجديد فى نصر الله العظيم.

ولقد ظل بعيداً عن هذا البيت طيلة ثمانى سنوات، حتى عندما عاد بعد فتح مكة لم يجد ذلك البيت ضمن ما كان يملك فأقام فى خيمة بأعلى مكة قبالة جبل هند، حيث ضربت له قبة على مقربة من قبر أبى طالب وخديجة.

ويسوق لنا الدكتور هيكل دليلاً على ذلك فى قوله: لما سئل رسول الله ﷺ بشأن أن يستريح فى بيته، فأجاب: كلا، فما تركوا لى بمكة بيتاً!، وهذا ما سوف نعود إلى استعراضه تفصيلا فيما بعد.

* * *

أما المكان الثانى والمشهور فى مرحلة الهجرة من قبل الخروج من مكة، فكان هو بيت أبى بكر الصديق.. الذى ظل على شوقه لمصاحبة رسول الله ﷺ فى

هجرته إلى المدينة. ذلك البيت الذى توجه إليه محمد عليه الصلاة والسلام، بعدما خرج من بين أيدى الكفار الواقفين ببابه.

ويحكى الرواة عن ذلك بقولهم: وقصد النبى ﷺ دار أبى بكر رضى الله عنه، وأعلمه بأنه قد إذُن له بالهجرة فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله.. قال: الصحبة، فبكى أبو بكر فرحاً واستأجر عبدالله بن أريقط الديلمى، وكان مشركا ليدلهما إلى المدينة.. وكان خروجه عليه السلام من مكة يوم الخميس.. أول يوم من ربيع الأول..

كما حكت السيدة عائشة رضى الله عنها لنا وللتاريخ بعض اللقطات المضيئة كهذه اللحظات الطيبة.. فى حديث طويل نقله البخارى فى صحيحه، وكذلك نقل إلينا عميد السيرة النبوية محمد ابن إسحاق طرفاً من أحاديث السيدة عائشة بخصوص الهجرة ومصاحبة أبيها أبوبكر الصديق.

ومما رواه فى هذا الشأن قوله: حدثنى من لا أتهم، عن عروة بن الزبير، عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: كان لا يخطئ رسول الله ﷺ أن يأتى بيت أبى بكر أحد طرفى النهار، إما بكرة، وإما عشية، حتى إذا كان اليوم الذى أذن فيه لرسول الله ﷺ فى الهجرة، والخروج من مكة من بين ظهرى قومه، أتانا رسول الله ﷺ بالهاجرة «أى نصف النهار عند اشتداد الحر»ن فى ساعة كان لا يأتى فيها.

قالت: فلما رآه أبوبكر، قال: ما جاء رسول الله ﷺ هذه الساعة إلا لأمر حدث، قالت: فلما دخل، تأخر له أبوبكر عن سريره، فجلس رسول الله ﷺ، وليس عند أبى بكر إلا أنا وأختى أسماء، فقال رسول الله ﷺ: أخرج عنى من عندك، فقال: يا رسول الله، إنما هما ابنتاى وماذاك؟ فداك أبى وأمى، فقال: إن الله قد أذن لى فى الخروج والهجرة.

قالت: فقال أبوبكر: الصحبة يا رسول الله، قال: الصحبة قالت: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكى من الفرح، حتى رأيت أبى بكر يبكى يومئذ، فاستأجرا عبدالله بن أريقط - رجلاً من بنى الدئل بن بكر وكانت أمه

إمرأة من بنى وسهم بن عمرو، وكان مشركاً - يدلهما على الطريق، فدفعا إليه راحلتيهما، فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما»[1].

ويؤكد ابن اسحاق فيما ذكره فى سيرته بأن الرسول ﷺ عندما أتى أبى بكر فى داره وأخبره بالهجرة، خرجا من خوخة لأبى بكر فى ظهر بيته، منطلقين فى طريق الهجرة إلى المدينة.. قاصدين غار بثور وهو جبل أسفل مكة.

وبنجاح الرسول عليه الصلاة والسلام وصاحبه فى الوصول إلى ذلك الغار الذى أقاما به ثلاثة أيام على أرجح الآراء.. بدأت فعلاً أحداث الهجرة.. وتغير مسار الدعوة الإسلامية حيث الأمان والغلبة والقوة، ولذلك فنحن نعتبر غار جبل ثور من أهم وأعظم الأماكن المشهورة فى حياة الدعوة الإسلامية على الاطلاق.. ذلك لما لعبه من دور خطير فى حفظ صاحب الدعوة وصاحبه، بتوفيق من الله ورعاية جبريل عليه السلام.

وجميعنا نعرف ما حدث للرسول ﷺ وصاحبه داخل ذلك الغار الذى نجح فى الوصول إليه رموز المشركين.. وكادوا أن ينالوا منهما.. وكانت عناية الله ورعايته فوق كيد المشركين وغبائهم الذى صور لهم أنهم قد ظفروا به وبالدعوة الإسلامية، من بعد نجاحه عليه الصلاة والسلام فى الإفلات منهم، وهم وقوف بباب داره فى مكة.

* * *

وبتتبع واع لما ذكرته كتب السيرة عن رحلة الهجرة، ومن قبل دخوله عليه الصلاة والسلام وصاحبه إلى غار ثور، اكتشفنا أن أبى بكر الصديق كان قد أعد العدة من حيث الزاد والتمويل والتموين.. حفاظاً على حياة الرسول الكريم ﷺ وحياة الدعوة الإسلامية، ورغم ذلك فقد أصابه شيء من الخوف، وهو يسمع وقع أقدام من بعثت بهم قريشاً فى آثارهم، وما صبره على ما كان فيه من خوف وفزع إلا قول الرسول الكريم ﷺ.. «لا تخف إن الله معنا».

(١) مختصر سيرة ابن هشام - مرجع سابق.

وشاءت إرادة الله تعالى أن تمر أزمة الخوف هذه على خير، وأن يستعيد أبى بكر قوته ورباطة جأشه، استعداداً لذلك المشوار الطويل، الذى قيل إنه استغرق حوالى عشرة أيام حتى وصولهم إلى مشارف يثرب، فى يوم الاثنين ظهراً لاثنتى عشرة يوماً خلت من ربيع الأول، وكان عمره عليه الصلاة والسلام آنذاك ثلاث وخمسين سنة من مولده، أى فى ٢٨ يونيه عام ٦٢٢م.

وهناك أحاديث نبوية شريفة كثيرة قد أشارت إلى توقيت خروجه عليه السلام من مكة ووصوله إلى المدينة، كقول البخارى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنه قال: «بعث النبى ﷺ لأربعين سنة، فمكث فيها ثلاث عشرة يوحى إليه، ثم أمر بالهجرة: فهاجر عشر سنين، ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة».

وكانت هجرته عليه السلام فى شهر ربيع الأول سنة ثلاث عشرة من بعثته عليه السلام.. وذلك يوم الاثنين، كما رواه الإمام أحمد بن حنبل عن ابن عباس، أنه قال: ولد نبيكم يوم الاثنين، وخرج من مكة يوم الاثنين، ونبئ يوم الاثنين، ودخل المدينة يوم الاثنين، وتوفى يوم الاثنين.

* * *

ونظراً للأهمية الكبيرة التى لعبها غار ثور فى مسيرة الدعوة الإسلامية كأحد الأماكن المشهورة فى حياة محمد عليه الصلاة والسلام.. فإننا سوف نفرد له هذه المساحة.. لحديث أكثر تفصيلاً من حيث المكان جغرافيا وتاريخيا، وفق ما سطره غيرنا عنه[١]. وهو يُعتبر وفق إجماع علماء الجغرافيا أحد جبال مكة المشهورة، حيث يقع إلى الجنوب من مكة، وكان يعرف فى الجاهلية باسم ثور أطحل، على وزن أفضل نسبة إلى ثور بن عبد مناة الذى نزل حوله فنسب إليه، ولعل الشكل العام للجبل الذى يماثل شكل ثور له علاقة بهذا الاسم أيضا.

كذلك يُعد هذا الجبل من أعلى جبال مكة؛ حيث يزيد ارتفاعه عن ٧٥٩ متراً.. وكان يبعد عن الحرم المكى قرابة ٥ أميال، أما الآن فقد وصل عمران مكة

(١) لمزيد من التفاصيل.. هناك كتابنا «جبال الأنبياء»، وفيه فصل كامل من غار ثور.

إلى سفوحه الدنيا، ففى طرفه الشمالى يقع الآن «حى الهجرة»، وعلى طرفه الجنوبى الغربى يقع «حى بطحاء» قريش، وفى جنوبه الشرقى يقوم «حى العوالى» وهى الضاحية الجنوبية الجديدة بمكة المكرمة. . وجبل ثور كان فى موقع يناسب حال الاختفاء، حيث كان يوجد فى سطحه سهل به المراعى؛ مما أتاح «لعامر بن فهيرة» أن يرعى غنم أبى بكر فى مكان غير بعيد عن الغار؛ حتى يستطيع أن يصعد للغار ليلاً يحمل الألبان للرسول ﷺ وصاحبه.

هذا عن الجبل. . أما بالنسبة لغار ثور. . فهو يقع أعلى الجبل، وهو عبارة عن صخرة مجوفة أشبه بسفينة صغيرة مقلوبة على ظهرها إلى أعلى، وله فتحتان، فى المقدمةواحدة فى الجهة الغربية، وهى فتحة صغيرة دخل منها الرسول عليه الصلاة والسلام وصاحبه، أما الفتحة الثانية: فتقع فى الجهة الشرقية، وهى فتحة مستحدثة لتسهيل الدخول إلى الغار، حيث فتحت فى حدود عام ٨١٠هـ على ما يروى فى كتاب «شفاء الغرام».

كما قام الشريف عون الرفيق بعد توليه إمارة مكة بتوسيع الفتحة الغربية التى دخل منها الرسول الكريم ﷺ وذلك فى حدود عام ١٢٩٩هـ، على ما يرويه البتنونى فى كتابه «الرحلة الحجازية»، وهى الفتحة التى خيم فوقها العنكبوت وعششت عليها الحمائم.

* * *

وبعد أن هدات الأحوال فى خارج الغار ويأست قريش من العثور على الرسول ﷺ وصاحبه. .، وبعد أن استراح كل منهما داخل الغار فى مأمن من شرور هؤلاء الكفار غلاظ القلوب، خرج رسول الله ﷺ وصاحبه من ذلك الغار فى اتجاههما إلى المدينة المنورة. . وكانا على أغلب الروايات يركبان ما كان لديهما من وسائل انتقال خرجا بها من مكة المكرمة،وقد اختارا الليل تجنباً لحر النهار الشديد، واتقاء لعيون قريش وجواسيسها التى لم تنقطع لحظة واحدة عن المراقبة، وما قصة سراقة إلا واحدة من قصص المراقبة المتقنة، التى رُصدت لتنفيذها جائزة مالية وعينية ضخمة!.

ولقد ظل محمد عليه الصلاة والسلام وصاحبه على هذه الحالة.. حتى وصلا إلى مشارف يثرب، ولم يطمئنهما إلى وصولهما إلى حيث الأمان والمنعة.. إلا هذا الاستقبال المنقطع النظير.. بعدما وصلا فى أمان الله إلى حيث كانت تقيم قبيلة بنى سهم على مشارف ديار يثرب، وقد جاء إليهما شيخها بُريدة لكى يحييهما.. حيث عرف آنذاك أنهما قد وصلا فعلاً إلى يثرب.

* * *

وبعد مرور ثمانى سنوات قضاها رسول الله ﷺ فى الغربة بعيداً عن البلد الأمين.. يعود إليها فاتحاً من جديد تحقيقا لوعد الله بالنصر المبين، وقد أراد الله أن يبرهن للنبى الكريم ﷺ أنه لم يخذله أبداً.. وأنه كان دائما فى رعاية الله.. لذلك تجلت حكمته فى تدبير ذلك الصلح، الذى أطلق عليه المؤرخون صلح الحديبية.. والذى بانت من خلاله حرفية محمد عليه الصلاة والسلام فى مجال التفاوض السياسى.

وكما سوف نرى ذلك فقد وُقع هذا الصلح بالأحرف الأولى على مشارف مكة المكرمة كبداية جديدة لانطلاقة إسلامية وإيمانية، بدت نتائجها بجلاء وقوة بعد عقد هذا الصلح، ربما بأشهر قليلة، عندما تحقق وعد الله لنبيه وللمسلمين بدخولهم مكة فاتحين.

ولقد رأينا من اللازم إلقاء الضوء المبهر على تفاصيل ذلك الصلح، الذى وقع فوق أحد الأماكن المشهورة فى محيط مكة المكرمة، هذا الحديث رأيناه مدخلاً وافيا لحديث قادم ومهم.. عن فتح مكة، أو الفتح المبين كما صوره القرآن الكريم.

* * *

والحديبية وفق الإجماع هى بئر سمى المكان باسمها.. وهى قرية متوسطة ليست بالكبيرة ولا بالصغيرة وهى قريبة من مكة أكثر من المدينة.. وبعد أن كانت

فى الماضى تبعد عن مكة بنحو اثنى عشر كيلو متر، أصبحت اليوم تلتحم مبانيها مع مبانى مكة المكرمة.

ويقول بعض المؤرخين أن هناك منطقة معروفة وحتى الآن باسم «ذو الحليفة»، وهو المكان الذى وقف عنده رسول الله ﷺ هو وأصحابه من قبل دخول مكة، ومن قبل الوصول إلى بئر الحديبية. وفى هذا المكان أحرم رسول الله ﷺ ومن كانوا معه قبل التوجه إلى مكة المكرمة.

هذا عن المكان بين الماضى والحاضر، فماذا عما ارتبط به من أحداث على جانب كبير من الأهمية؟ وهى التى تناولها عديد من المؤرخين، الذين تحدثوا عنها بإسهاب، خاصة وأنها ترتبط بحدث دينى آخر ذكره القرآن الكريم وهو بيعة الرضوان، تلك التى تمت تحت الشجرة.. ويقال إنها قطعت فى عهد عمر بن الخطاب لما بلغه أن الناس يطوفون بها، فخاف رضى الله عنه من اتساع ذلك الأمر وظهور البدع.

ووفق ما هو مدون فى أغلب المصادر المكتوبة عن صلح الحديبية وبيعة الرضوان فإن المسلمين قد ظنوا أن رسول الله ﷺ سيهاجم خيبر أو مكة ليفك الحصار الذى ضربه عليهم المشركون آنذاك، ولكن محمد عليه الصلاة والسلام قد ارتأى حلا آخر لم يتوقعه الصحابة، حيث أمرهم جميعاً بالذهاب فى صحبة لأداء العمرة، رغم أن مكة كانت وإلى ذلك التوقيت تحت سيطرة مشركوها الذين يحملون الضغائن للرسول ﷺ وأصحابه.

ومع ذلك فقد صمم عليه الصلاة والسلام على الذهاب إلى مكة سلماً وبدون حرب، وقد ظن أصحابه أيضا أنه يريد فتحها.. فأجابهم بأنه يريد زيارتها لاحربها، وهكذا وفق الإجماع: صار رسول الله ﷺ ومعه ألفا رجل تقريبا، وعدة مئات من الجمال إلى مكة فى العام السادس من الهجرة الموافق ٦٢٨م.

وقد أحدثت هذه الزيارة زلزالاً قوياً، حين علم بها كفار قريش، خاصة فى

غيبة زعيمها أبوسفيان بن حرب، فاتفقوا على أن يخرج لملاقاة جيش المسلمين، وفد يضم مائتى فارس على رأسهم عكرمة بن أبى جهل كى يمنعوا المسلمين من دخول مكة.

ورغم ذلك، فقد أمر رسول الله ﷺ أصحابه بمواصلة المسير نحو مكة عن طريق ذى الحليفة الجبلى.. حيث وصلوا بعد عناء وعورة الطريق وشدة حرارة الشمس إلى الحديبية، وهو المكان الذى جرت فيه المفاوضات بين المسلمين ومشركى مكة، والتى أسفرت عن توقيع ذلك الحلف، وقد سبقه مبايعة المسلمين للرسول ﷺ على تنفيذ أوامره فيما يراه صالحاً فى هذا الشأن.

وقد سميت تلك المبايعة «ببيعة الرضوان»، والتى جاء ذكرها فى قوله تعالى: **﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾** [الفتح الآية ١٨].

ويقول بعض المؤرخين إن تلك البيعة قد أخذها محمد عليه الصلاة والسلام من أصحابه بعد وصوله نبأ مقتل عثمان بن عفان.. وكان هو المبعوث الشخصى للرسول ﷺ والذى رحل إلى مكة لاستكمال بقية بنود المفاوضات مع مشركى مكة. ولذلك لم يكن ذلك الخليفة العادل من أصحاب رسول الله ﷺ الذين حضروا بيعة الرضوان.

ولما علمت قريش بشأن هذه البيعة، خافوا وتشاروا فيما بينهم لأجل إتمام ذلك الصلح الذى عرف باسم «صلح الحديبية»، وفيه بنود كثيرة، تناولها المؤرخون وناقشوها باستفاضة فى العشرات من الكتب، بخلاف ما جاء بشأنها فى كتب السيرة.

ومما يقال فى سياق حديث هذا المكان أن محمداً عليه الصلاة والسلام قد أقام بالحديبية نحو عشرين يوماً وسط احتفالات أقامها المسلمون بعدما ذبحوا الابل وأطعموا الفقراء.

هذه المعاهدة كانت بحق كما ذكرنا من قبل البداية القوية نحو تحقيق الحلم

الكبير فى فتح مكة وعودة الرسول، ﷺ إلى البلد الأمين بعد غياب ثمانى سنوات.

ورغم هذه المدة الطويلة إلا أنها لم تغب عن فكره، فقد كانت مشاغل الدعوة، والتوسع فيها، ووضع أسس الدولة الإسلامية.. وانشغاله فى الحروب مع الذين وقفوا بالمرصاد للدين الإسلامى.. تؤجل كثيراً شوقه لإتمام هذه العودة.

ولما أذن الله له عاد إليها منتصراً رافعاً راية الإسلام، وفى رحلة العودة تلك وقعت أيضاً أحداث أخرى فى أماكن مشهورة متعددة، رأينا من الضرورى إلقاء الأضواء المبهرة عليها.. لنكن بذلك قد وفينا هذا البلد الأمين حقه، سواء فيما شهده من أحداث أو أماكن مشهورة شهدت هى الأخرى جانباً كبيراً من تلك الأحداث.

وكان من أشهر تلك الأماكن وفق الإجماع.. كل من دار أبى سفيان التى كانت فى أعلى مكة ودار حكيم بن حزام وكانت فى أسفل مكة.. ويتضح ذلك من قول رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام حين قدم مكة فاتحاً؛ لكى يؤمن قريشاً «من دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن».

وكان أبو سفيان قد أسلم يوم الفتح على يد العباس عم النبى الكريم،ﷺ وكذلك عاد للكعبة المشرفة رونقها وبهاؤها فى ذلك اليوم العظيم.

ومما يرويه الرواة بشأن البيت الحرام فى هذا السياق قول ابن اسحاق: وحدثنى محمد ابن جعفر بن الزبير عن عبيد الله بن عبدالله ابن أبى ثور عن صفية بنت شيبة، أن رسول الله ﷺ لما نزل بمكة واطمأن الناس خرج، حتى جاء البيت فطاف به سبعا على راحلته يستلم الركن بمجحن فى يده، فلما قضى طوافه، دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة، ففتحت له فدخلها، فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها، ثم وقف على باب الكعبة، وقد استكف «أى اجتمع» له الناس فى المسجد، وقال موسى بن عقبة: ثم سجد سجدتين ثم

انصرف إلى زمزم فاطلع فيها، ودعا بماء فشرب منها وتوضأ والناس يقلدون وضوءه والمشركون يتعجبون من ذلك.

وقال الإمام أحمد: حدثنا سليمان أنبأنا عبدالرحمن، عن موسى بن عقبة عن ابن الزبير بن العوام عن جابر قال: كان فى الكعبة صور، فأمر رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب أن يمحوها، فدخلها رسول الله وما فيها منها شيء.

وقال البخارى: حدثنا صدقة بن الفضل، حدثنا ابن عيينة، عن ابن أبى نجيح عن مجاهد عن ابن معمر، عبدالله وهو ابن مسعود قال: دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وحول البيت ستون وثلثمائة نصب، فجعل يطعنها بعود فى يده ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل، جاء الحق وما يبرئ الباطل وما يعبد».

وقد ثبت فى صحيح البخارى وغيره أنه عليه الصلاة والسلام صلى فى الكعبة تلقاء وجهة بابها من وراء ظهره، فجعل عمودين عن يمينه وعموداً عن يساره، وثلاثة أعمدة وراءه، وكان البيت يومئذ على ستة أعمدة، وكان بينه وبين الحائط الغربى مقدار ثلاثة أذرع.

وقال يونس بن بكير عن ابن إسحاق: حدثنى والدى: حدثنى بعض آل جبير ابن مطعم، أن رسول الله ﷺ لما دخل مكة أمر بلالاً فعلا على الكعبة على ظهرها، فأذن عليها بالصلاة.

ووفق الاجماع أيضًا فقد أقام رسول الله عليه الصلاة والسلام بمكة بعد فتحها خمسة عشر يوماً ينظم شئونها ويطمئن على أحوال سكانها بعد دخول أهلها الإسلام.. ثم مضى ومن كان معه من الأنصار إلى المدينة المنورة من جديد.

وفى هذين الأسبوعين اللذين قضاهما رسول الله، ﷺ بمكة محى كل آثار الوثنية فيها.. ولم ينتقل إلى الإسلام من مناصب البيت الحرام على حد قول الدكتور هيكل.. إلا سدانة الكعبة، وقد أقرها النبى فى عثمان بن طلحة وأبنائه من بعده.

٦- فى بلاد الشام

مما هو ثابت لدينا ـ من خلال الاطلاع على مئات المصادر المكتوبة تاريخياً . . فى القديم وفى الحديث ـ أن رسولنا الكريم ﷺ. . قد زار بلاد الشام مرتين من قبل بعثته عليه السلام، المرة الأولى وفق الإجماع تمت وهو صبى لم يتجاوز العاشرة من عمره. . أما الثانية فقد وقعت بعد هذا التاريخ ربما بعشر سنوات على الأقل.

وكان محمد عليه الصلاة والسلام فى كل من هاتين الزيارتين مشتغلاً بالتجارة. . سواء مع عمه أبوطالب، أو مع من بعثته بصحبته السيدة خديجة بنت خويلد من قبل أن تقترن به زوجاً.

كذلك شهدت هاتين الرحلتين أماكن متعددة زارها النبى ﷺ. . وإن لم يفصح عنها صراحة عديد من المؤرخين. . نظراً لانشغالهم بما وقع للرسول عليه السلام فيها من أحداث، ارتبطت إلى حد بعيد بنبؤات بعض أحبار اليهود. . بالبحث عن النبى الجديد والمكتوب عندهم فى التوراة. ولسوف نجتهد نحن كثيراً فى الوقوف على أهم الأماكن المشهورة فى حياة النبى الكريم ﷺ، خاصة فى رحلته إلى بلاد الشام. . سواء الأولى أو الثانية.

ليس هذا فقط، بل ولقد أرشدتنا المصادر نفسها إلى أن النبى الكريم عليه الصلاة والسلام قد زار بلاد الشام غازيا، ربما فى العام الخامس للبعثة النبوية على أكثر تقدير. . وإن كانت هذه الزيارة لم تستغرق سوى أيام معدودة. . عاد بعدها إلى المدينة، بعدما ترك لدى أهل دومة الجند أخباراً ببزوغ فجر الإسلام، وعليهم أن يدخلوا فى دين الله.

وهناك سؤال يفرض نفسه بقوة فى سياق ذلك الحديث. . عن أسباب ارتباط

النبى الكريم ﷺ ببلاد الشام سواء من قبل الدعوة الإسلامية أو من بعدها؟!، كان علينا أن نجيب على ذلك السؤال المهم من قبل الوقوف على تفاصيل هذه الرحلات التى قام بها نبينا الكريم ﷺ إلى بلاد الشام.. لبيان أهم ما كان بها من أماكن مشهورة ارتبطت برسالته عليه الصلاة والسلام.

ويبدو أن البحث عن الإجابة ذاتها كان هو الشغل الشاغل للمئات من المؤرخين من قبلنا، الذين تحدثوا عن تاريخ الدعوة الإسلامية وانتشارها شرقاً وغرباً.

وتعتبر بلاد الشام - كما يؤكد ذلك الدكتور محمد عزب دسوقى - من أهم الأقطار المجاورة لشبه جزيرة العرب على الإطلاق، فهى امتداد طبيعى لها حيث تتسم بالخصب والثراء، لذلك كانت هذه البلدان على مر العصور مستودعاً لكثير من سكان شبه الجزيرة العربية هاجروا إليها، وأقاموا فيها ورعوا فى مراعيها وتاجروا معها.

لذلك عندما دعا داعى الإسلام فى جزيرة العرب ودانت قبائلها بدوها وحضرها، كانت بلاد الشام أول الأقطار المجاورة فى العالم الخارجى التى اتصل بها النبى ﷺ، فكانت دعواته ورسله لأهلها على اختلاف أجناسهم لدخول الإسلام. ثم كانت غزواته وسراياه وبعوثه المتكرر إليها بمثابة بداية لفتح هذه البلاد[١].

معنى ذلك أن العلاقات بين بلاد الشام وجزيرة العرب لم تنقطع فى أى وقت من الأوقات، وقد غلب على هذه العلاقات الطابع التجارى وجلب الميرة والغذاء وبعض المصنوعات الأساسية، كما كانت طرق التجارة بين الشام والجزيرة كثيرة ومتعددة، وتعج بالقوافل الرائحة والغادية فى أى وقت من أوقات السنة، وأهمها طريق الحجاز - الشام، وهذا يفسر لنا هذه العلاقة المبكرة بين رسولنا ﷺ وبين بلاد الشام.. وسواء من قبل البعثة أو من بعدها

---

(١) القبائل العربية فى بلاد الشام منذ ظهور الإسلام إلى نهاية العصر الأموى.. تأليف د. محمد عزب دسوقى.

•• الرحلة الأولى إلى بلاد الشام:

ووفقًا لاتفاق المؤرخين.. فقد حدثت الرحلة الأولى للرسول عليه الصلاة والسلام إلى بلاد الشام، وهو لايزال صبياً أى فى عام ٥٨٢م.. مع الاختلاف فى تقدير عمره عليه السلام فى هذه الرحلة. فمن المؤرخين من يرى أنه كان فى الثانية عشرة من عمره مثل الدكتور محمد حسين هيكل.. ومنهم من يرى أنه كان ابن عشر سنين.. لكن الأرجح أن رسول الله ﷺ، قد سافر لأول مرة إلى بلاد الشام وهو يبلغ من العمر اثنتى عشرة عاماً.

ومن أهم البلاد التى نزل بها رسولنا الكريم،ﷺ هى مدينة بُصرى ببلاد الشام.. نظراً لارتباطها بحادث التقائه بالراهب بحيرة، الذى توسم فيه علامات النبوة.. وقد طلب من عمه أبى طالب وفق إجماع الروايات على ضرورة أن يغادر بهذا الصبى هذه المدينة فوراً، خوفاً عليه من اليهود!.

وبالفعل لم يتردد أبوطالب لحبه الشديد لابن أخيه من العودة فوراً بالرسول ﷺ، من قبل أن يكمل تجارته على عادة قبائل العرب آنذاك.

معنى ذلك أن محمد الصبى.. لم تستمر به الإقامة ببلاد الشام.. بل ولم يتجول فى بلادها نظراً لطول الرحلة.. وامتدادها لعدة أشهر..

لكن هناك من المصادر التى تؤكد أن رسولنا الكريم،ﷺ وفى هذه الرحلة قد تمتعت عيناه بأماكن كثيرة مر بها أثناء ذهابه إلى بلاد الشام، خاصة على طريق الحجاز - الشام.. طريق القوافل التجارية آنذاك.

ولسوف نحاول إلقاء الأضواء المبهرة على هذه الأماكن، وكذلك استبيان مكان مدينة بُصرى أو البصرة.. باعتبار أن هذه البلاد سواء فى أرض العراق أو أرض سوريا ولبنان وفلسطين كانت جميعها تسمى بلاد الشام.

ولعل من أشهر الأماكن المهمة التى مر بها رسولنا الكريم ﷺ فى رحلته الأولى إلى هناك.. كانت البلاد التى فى طريق القوافل آنذاك، والتى كانت مشهورة أيضا بأحداثها الدينية..

مثل مدين ووادى القرى وديار ثمود. . كذلك تمكن النبى ﷺ وهو فى هذه السن المبكرة من الوقوف على الحدائق الغناء اليانعة، التى أنسته حدائق الطائف، وما يروى عنها على حد قول الدكتور هيكل، والتى تبدت له جنات إلى جانب جدب الصحراء المقفرة والجبال الجرداء.

كذلك. . استطاع الرسول ﷺ رغم هذه الرحلة القصيرة. . أن يلم بأخبار الروم ونصرانيتهم، وسمع عن كتابهم وعن مناوأة الفرس لهم، وهم من عبدة النار.

وكان رسولنا الكريم ﷺ أيضاً على علم مسبق بأصل قبائل بلاد الشام من الذين انحدروا من بلاد الحجاز وأرض الجزيرة العربية.

ويرجح الكثير من المؤرخين أن هذه الرحلة لم يستفد منها عمه أبوطالب مالياً ولا تجارياً؛ نظراً لاستعجاله العودة إلى ديار مكة، مستندين فى ذلك على أن أبا طالب لم يكرر هذه الرحلة حتى توفاه الله، وقد استكفى الإقامة بمكة مع ماله القليل لرعاية أولاده وابن أخيه بالذات.

* * *

إذًا لقد كانت مدينة بُصرة أو بصرى من أهم الأماكن التى ارتبطت برحلة الرسول الأولى لبلاد الشام، وهو صبى لم يبلغ الثانية عشرة. . ولولا ارتباطها بحادث ظهور هذا الراهب الذى تنبأ به كنبى منتظر، لما استحوذت هذه المدينة على اهتمامات المؤرخين. . الذين صبوا كل هذه الاهتمامات فى اتجاه تتبع ذلك الحدث. . دون تحديد المكان المقصود بالضبط.

ويحضرنا فى هذا المقام بيان تفصيلى لما حدث بين هذا الراهب وبين عم رسولنا ﷺ، هذا البيان ربما يقربنا أكثر من المكان الذى كان يقيم فيه هذا الراهب فوق أرض بلاد الشام.

ولقد لاحظنا تكرار هذا البيان وما فيه من تفاصيل فى أكثر من مرجع. . حيث

نقلوه جميعا من المصدر الرئيسى للسيرة النبوية، التى كتبها ابن إسحاق رحمه الله. . والتى يقول فيها إن أبا طالب خرج فى ركب تاجراً إلى الشام، فلما تهيأ للرحيل، وأجمع المسير صَب به رسول الله ﷺ - «أى تعلق به فيما يزعمون» - فرق له أبوطالب وقال: والله لأخرجن به معى، ولا يفارقنى، ولا أفارقه أبداً. . أو كما قال، فخرج به معه، فلما نزل الركب بُصرى من أرض الشام، وبها راهب يقال له بحيرى فى صومعة له «وفى كتابات أخرى جاء اسمه بحيرا وهو ما سوف نلقى عليه الأضواء بعد لحظات»، وكان إليه علم أهل النصرانية - والكلام لايزال على لسان ابن إسحاق - ولم يزل فى تلك الصومعة منذ ما مضى من الزمان. . راهب، إليه يصير علمهم على كتاب فيها فيما يزعمون، يتوارثونه كابراً عن كابر.

فلما نزلوا ذلك العام ببحيرى، وكانوا كثيراً ما يمرون به قبل ذلك، فلا يكلمهم ولا يعرض لهم حتى كان ذلك العام، فلما نزلوا به قريبا من صومعته صنع لهم طعاماً كثيراً، وذلك فيما يزعمون عن شىء رآه وهو فى صومعته، يزعمون أنه رأى رسول الله ﷺ فى الركب حين أقبلوا، وغمامة تظله بين قومه.

قال: ثم أقبلوا فنزلوا فى ظل شجرة قريبا منه. . فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة، وتهصرت «أى مالت وتدلت عليه» أغصان الشجرة على رسول الله حتى استظل تحتها، فلما رأى ذلك بحيرى نزل من صومعته، ثم أرسل إليهم، فقال: إنى قد صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش، فأنا أحب أن تحضروا كلكم، صغيركم وكبيركم وعبدكم وحركم.

فقال له رجل منهم: والله يا بحيرى إن لك لشأناً اليوم، فما كنت تصنع هذا بنا، وقد كنا نمر بك كثيراً، فما شأنك اليوم؟.

قال له بحيرى: صدقت، قد كان ما تقول، ولكنكم ضيف، وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاماً فتأكلوا منه كلكم.

فاجتمعوا إليه، وتخلف رسول الله ﷺ من بين القوم، لحداثة سنة، فى رحال

القوم تحت الشجرة، فلما نظر بحيرى فى القوم لم ير الصفة التى يعرف ويجد عنده، فقال: يا معشر قريش، لا يتخلفن أحد منكم عن طعامى، قالوا له: يابحيرى: ما تخلف عنك أحد ينبغى له أن يأتيك إلا غلام، وهو أحدث القوم سنا، فتخلف فى رحالهم، فقال: لا تفعلوا، إدعوه فليحضر هذا الطعام معكم.. قال: فقال رجل من قريش مع القوم: واللات والعزى، إن كان للوم بنا أن يتخلف ابن عبدالله بن عبدالمطلب عن طعام بيننا، ثم قام إليه فاحتضنه وأجلسه مع القوم.

فلما رآه بحيرى جعل يلحظه لحظاً شديداً وينظر إلى أشياء من جسده، قد كان يجدها عنده من صفته، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا، قام إليه بحيرى، فقال له: يا غلام، أسألك بحق اللات والعُزى إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه، وإنما قال له بحيرى ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما، فزعموا أن رسول الله ﷺ قال له: لا تسألنى باللات والعُزى، فوالله ما أبغضت شيئاً قط بغضهما، فقال له بحيرى: فبالله إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه، فقال له: سلنى عما بدا لك.

فجعل يسأله عن أشياء عن حاله فى نومه وهيئته وأموره، فجعل رسول الله ﷺ يخبره، فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته، ثم نظر إلى ظهره، فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التى عنده[١]. قال بن هشام: وكان مثل أثر المحجم[٢].

ثم قال ابن إسحاق: فلما فرغ، أقبل على عمه أبى طالب، فقال له: ما هذا الغلام منك؟.. قال: ابنى، قال له بحيرى: ما هو ابنك، وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا، قال: فإنه ابن أخى، قال: فما فعل أبوه؟! قال: مات وأمه حُبلى به، قال: صدقت، فارجع بابن أخيك إلى بلده، وأحذر عليه يهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغته شراً، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم،

(١) ابن إسحاق - المصدر السابق.

(٢) سيرة ابن هشام - مصدر سابق.

فأسرع به إلى بلاده، فخرج به عمه أبوطالب سريعاً حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام.

فزعموا فيما روى الناس: إنه زرُيراً وتماماً ودريساً، وهم نفر من أهل الكتاب، قد كانوا رأوا من رسول الله ﷺ مثل ما رآه بحيرى، وذكرهم الله وما يجدون فى الكتاب من ذكره وصفته، وأنهم إن أجمعوا لما أرادوا به لم يخلصوا إليه، ولم يزل بهم حتى عرفوا ما قال لهم، وصدقوه بما قال، فتركوه وانصرفوا عنه، فشب رسول الله والله تعالى يكلؤه ويحفظه ويحوطه من أقدار الجاهلية، حتى بلغ أن كان رجلاً، أفضل قومه مروءة وأحسنهم خلقاً، وأكرمهم حسباً وأحسنهم جواداً، وأعظمهم حلماً، وأصدقهم حديثا، وأعظمهم أمانة وأبعدهم من فحش الأخلاق التى تدنس الرجال، تنزها وتكرماً حتى اسمه فى قومه إلا الأمين[١].

* * *

ومما لاحظناه فى السرد السابق، اختلاف اسم الراهب بحيرى فى أكثر من مصدر من المصادر التى اطلعنا عليها لتأكيد هذه الرواية.. حيث وجدنا أن اسمه «بحيرا بالألف.. وليس بحيرى بالياء».

وفى رأينا.. أن هذا الخلاف فى الاسم بين هذه المصادر مرجعه محاولة البعض ربطه بأحد الأسماء غير العربية للرهبان، الذين كانوا يتواجدون كثيراً فى مثل هذه الأيام، وبالذات على أطراف صحراء الجزيرة العربية، وهذا ما سوف يتضح لنا عندما نستعرض بعض الذى توافر لدينا من معلومات عن هذا الراهب.

أو ربما ناتج عن اختلاف من جانب الرواة العرب فى تسجيل اسمه.. واختيارهم الألف الممدودة بدلاً من الياء!، وهذا يحدث فى كثير من الكلمات خاصة المرتبطة بأسماء الأعلام.

وتقول صحيفة أحوال هذا الراهب، وبعض لقطات من تاريخ حياته: أنه راهب مسيحى كان يقيم فى الشام فى هذه الفترة، وقد ذكر فى الآداب البيزنطية أنه

(١) ابن إسحاق - المصدر السابق.

راهب نسطورى على مذهب أريوس ونسطور، وكان ينكر لاهوت المسيح، ويقول إن تسميته بإله غير جائز، بل يجب أن يدعى كلمة، وأن تدعى والدته مريم والدة الناموس، الذى هو مظهر الكلمة السامى لا والدة الله.

وكان بحيرا قساً عالماً فلكياً منجماً، وقد اتخذ صومعته بقرب الطريق الموصل للشام، وأقام هناك مدة، تمر عليه العربات والقوافل، فكان يأمرهم بعبادة الله الواحد الأحد وينهاهم عن عبادة الأصنام.

وله تلميذ اسمه مذهب، وكان من جملة المتتلمذين له.. سلمان الفارسى قبل إسلامه، وقال مذهب: إن بحيرا توفى قتيلاً بدسيسة بعض أشرار اليهود.

ومعنى بحيرا فى السريانية: عالم متبحر كما تقول دائرة المعارف.. والتى أضافت أن اسم بحيرا مشتق من كلمة أرامية بهذا الاسم ومعناها المنتخب فهو لقب له، وقيل إن اسمه الحقيقى فى التاريخ هو سرجيوس أو جرجيوس[1].

* * *

ولانزال فى رحاب أحداث الرحلة الأولى للنبى الكريم ﷺ إلى بلاد الشام.. حيث أصبح أمامنا فرصة طيبة لاستجلاء ذلك المكان الذى نزل به رسول الله ﷺ.. وهو مدينة بصرة أو بصرى بالشام.. لأجل إلقاء الأضواء المبهرة عليها وعلى موقعها فى ذلك الزمان.. وإن كنت أود أن أشير من قبل الانتقال إلى هذا البيان.. إلى وجود خلاف آخر بين المؤرخين حول اسم هذه المدينة، التى كان يقيم بها هذا الراهب؛ حيث ذكر أبا الحسن أحمد ابن فارس الرازى فى كتابه.. أوجز السير لخير البشر. أن هذه المدينة تسمى «تيماء»، وهى بلد كما جاء بمعجم ياقوت الحموى فى أطراف الشام، بين الشام ووادى القرى، على طريق حجاج الشام ودمشق.

والتيماء لغويا تعنى الأرض الواسعة، أو الأرض التى لا ماء فيها، ولكن وفق الاجماع حيث يكون منهجنا دائما فيما نتناوله من أحداث وأماكن - فإن هذا البلد

(١) محمد، ﷺ رسول الله - مصدر سابق.

يسمى «بصرى».. بالياء وليس بالتاء المربوطة كما يحلو للبعض كتابتها، وكانت آنذاك تابعة للدولة البيزنطية، التى كانت ترتبط مع بلاد العرب من الناحية التجارية، كما كانت من بلاد الحدود السورية المتاخمة لبلاد العرب أيضا، حيث لم تكن حكومة بيزنطة تسمح للتجار العرب بحرية الإقامة والتجارة إلا فى عدد ثابت من المدن السورية.. كانت على رأسها بُصرى حيث بها سوق تجارى كبير ومفتوح لمختلف الأجناس.

ولذلك نرى أن اسم هذه المدينة «بُصرى»، قد تردد فى كثير من أشعار العرب آنذاك خاصة فى الجاهلية، وكانت أيضا بُصرى مدينة شديدة الحصانة والمنعة؛ كى تقوم بوظيفتها كمراقب وحارس لبلاد الشام.

وكانت كذلك تؤلف المحطة التجارية الأخيرة لقوافل قريش، والسوق الكبرى للغلال بالنسبة للحجاز.. كما كانت تشتهر بأسلحتها ودروعها، وكانت أسواق هذه المدينة تقام خارج أسوارها، كما اشتهرت كذلك بقصورها وأسوارها العالية[1].

•• الرحلة الثانية وما بها من أماكن مشهورة:

وإذا كانت الرحلة الأولى لرسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام.. قد ارتبطت بحدث دينى مهم.. وكما أوضحنا من قبل هو التنبؤ بكونه نبى هذه الأمة.. وغيرها من الأمم، فإن الرحلة الثانية قد ارتبطت هى الأخرى بحدث مهم مماثل له.. إذ كانت سبباً مباشراً لارتباط هذا النبى العظيم ﷺ بزوجته أم المؤمنين السيدة خديجة.

وهذا فى معناه ومدلوله.. أن كل تحركات هذا النبى العظيم ﷺ منذ مولده إلى زواجه ثم مبعثه ثم وفاته كانت مأمورة من السماء، وتتم فى غاية الدقة.. لتحقيق أهداف بعينها، صحيح لم تظهر فى حينها.. إلا أن معانيها قد توالت على مر الأيام والسنين.

(١) تاريخ العرب فى الجاهلية ـ د. السيد عبد العزيز سالم مصدر سابق.

وكانت محصلتها النهائية.. ظهور هذا الدين العظيم.. على يد وعقل وقلب هذا الرجل العظيم.

والاختلاف الوحيد الذى ربما يظهر على سطح المقارنات بين هاتين الرحلتين.. أن هذا النبى الكريم ﷺ كان فى الأولى مجرد شاهد لحب الاستطلاع، وقد دفعه حبه لعمه أن يكون فى صحبته، أما الثانية.. فكان الرسول ﷺ مشاركاً أصيلاً فى تجارة هذه القافلة التى أثمرت الخير له ولزوجته.

وكانت الرحلة فى كلتا المرحلتين تنبؤاً مبكراً بخروج الإسلام من بقاع شبه الجزيرة العربية وانتشاره فى كل ربوع سوريا وما جاورها من بلاد.. حتى وصل إلى ما وصل إليه من انتشار غير مسبوق، منذ بزوغ شمسه وإلى الآن.

ولنا رأى نود أن نسوقه من قبل الإفصاح عن المزيد من التفاصيل عما ارتبط بالأماكن المشهورة فى هذه الرحلة.. وفق منهج هذه الأوراق.. مؤداه أن رسولنا ﷺ.. لم ينشغل بحب الاستطلاع الذى كان عليه فى رحلته الأولى.. بل كان شاغله أولاً ما لديه من تجارة اؤتمن عليها من جانب إحدى سيدات قريش.. وقد سمى آنذاك بالصادق الأمين... لذلك كان همه الأول والأخير، تحقيق الربح الحلال لهذه القافلة التجارية عساها أن تتكرر، وقد ترسله هذه السيدة مرة أخرى بتجارة وبقافلة أخرى.

وهو لا يدرى أن هذه القافلة وهذه التجارة كانت سبيله إلى قلب هذه المرأة التى آمنت به وصدقته، وكانت خير سفير ووزير ومؤازر له فى شدته بعد الرسالة وبعد ظهور الإسلام.

ولا شك أن اهتمام هذا النبى الأمين بما كان فى جعبته من أموال وبضاعة وسلع متنوعة.. قد شغله قليلاً عن التفكير فيما كان حوله من مظاهر طبيعية، لفتت أنظاره فيما سبق.

وربما نتجرأ ونقول إضافة إلى ذلك.. أن هذا الانشغال فى التجارة والبيع والشراء قد ساهم فى أن تغفل عنه عيون هؤلاء اليهود، الذين باتوا يطاردون خطواته وفق ما رويناه سابقاً.

وقد حفظته عناية الله أولاً وأخيراً، حتى رجع إلى أهله سالما غانماً، وقد أصبح الزوج الذى كانت تنتظره هذه السيدة التى رفضت غيره من سادات قريش؛ حتى يكون زوجاً بدلاً من ذلك الذى رحل منذ فترة غير قصيرة وترك لها أولاد وبنات، وكان أيضا من سادة قريش ومن أغنيائها.

وشيء آخر مهم رأينا التنويه عنه فى هذا السياق.. وهو أن الرسول ﷺ.. ربما قد قصد فى هذه الرحلة أيضاً «مدينة بصرى»، التى كانت كما مر علينا من أهم الأسواق التجارية للعرب فى ذلك الوقت.. وقد أكد ذلك بعض المؤرخين.. بل ونراهم قد زادوا على ذلك ومنهم الدكتور محمد حسين هيكل: أن رسول الله ﷺ قد اتصل فى هذه البلدة، وفى هذه الرحلة أيضا ببعض أهل الكتاب.. وذكروا فى هذا المقام الراهب نسطور، تلميذ الراهب بحيرا.. كما قالوا أيضا: خرج محمد ﷺ مع ميسرة غلام خديجة بعد أن أوصاه أعمامه به، وانطلقت القافلة فى طريق الصحراء إلى الشام مارة بوادى القرى ومدين وديار ثمود.. وبتلك البقاع الأخرى التى مر بها محمد ﷺ مع عمه أبى طالب وهو فى الثانية عشرة من عمره. وأحيت هذه الرحلة فى نفسه ذكريات الرحلة الأولى، كما زادته تأملاً وتفكيراً فى كل ما رأى وما سمع من قبل، عن العبادات والعقائد بالشام وبالأسواق المحيطة بمكة.. فلما بلغ بُصرى اتصل بالنصرانية بالشام، وتحدث إلى رهبانها وأحبارها، وتحدث إليه راهب نسطورى وسمع منه[1].

وكان عمر رسول الله ﷺ آنذاك يسمح بهذا الاتصال.. إذ كان عمره آنذاك خمسة وعشرين عاماً؛ أى أن هذه الرحلة قد حدثت بالتاريخ الميلادى فى عام ٥٩٥م، وهو كما نعلم سن رجاحة العقل والاتزان والتفكير والتدبر.

●● الرحلة الثالثة إلى دومة الجندل:

رغم أن دومة الجندل تقع اليوم داخل حدود الجزيرة العربية، بل هى جزء أصيل من تكوين مدن وعواصم البلدان الآن داخل المملكة العربية السعودية، إلا أنها كانت فى عهد الرسول ﷺ تتبع إدارياً وحدودياً بلاد الشام.

---

(١) حياة محمد - المصدر السابق.

وقد أكدت ذلك عدة مصادر تاريخية وجغرافية مكتوبة ومرورية.. لذلك سوف نتحدث عنها كبلد من بلاد الشام التى زارها رسول الله ﷺ.. بل وغزاها بعد بزوغ فجر الإسلام بعدة سنوات.. وفيها الكثير من الأماكن المشهورة التى ارتبطت برحلة الرسول ﷺ الثالثة لبلاد الشام..

ولتأكيد هذه المعلومات وتوثيقها علمياً، تعالوا نقرأ ما كتبه الدكتور محمد عزب دسوقى، الذى قال: كانت دومة الجندل فى بادية الشام بالقرب من دمشق هى بداية اهتمام النبى ﷺ، لأنها كانت بابا من أهم أبواب الشام إلى الجزيرة العربية، ويسكنها قوم من بنى كلب بن وبرة من قضاعة القحطانية، يدينون بالنصرانية، وكانوا يظلمون من مر بهم من الضافطة «وهم من الذين كانوا يكرون الابل من موضع إلى موضع، وقيل هم تجار كانوا يحملون الطعام».هؤلاء كانت لهم سوقاً كبيرة.

ودومة الجندل هذه جغرافيا كان بينها وبين دمشق آنذاك مسيرة خمس ليالى، كما كان بينها وبين المدينة خمس عشرة ليلة أو ست عشرة، وهى أرض ذات نخل وزروع، وحولها عيون كثيرة، وكان لها سور ولها حصن مشهور أيام العرب فى الجاهلية[1].

ورغم أن هذه المدينة الحصينة كانت تتبع فى ذلك الوقت سلطان الإمبراطورية الرومانية.. إلا أن الرسول ﷺ لم يعبأ بذلك، ولا بما كان فيها من سكان ينتمون إلى قبائل الغساسنة العربية،إذ رأى أن المصلحة الإسلامية تقتضى المسير إليها وغزوها.

وتقول تفاصيل هذا الغزو: إنه فى ربيع الأول سنة ٥هـ ندب النبى ﷺ الناس للغزو، واستعمل على المدينة سباع بن عرفطة الغفارى.. وخرج فى ألف من المسلمين، فكان يمشى الليل ويكمن النهار حتى لا يسير بخبره الركبان، ويضمن لنفسه مباغتة عدوه.

(١) القبائل العربية فى الشام - مصدر سابق.

وكان دليله فى مسيره هذا رجل.. من بنى عذره، وهى من قبائل قضاعة القحطانية الضاربة بالشام، فيما بين دمشق ودومة الجندل.. كما ذكر ذلك السمعانى فى كتاب الأنساب، ولذلك كان على علم بطرق الناحية ودروبها، رغم أنه لم يمكن يعلم إن كان مسلما أو مستأجراً، فقد قام بمهمته على خير وجه.

فلما اقترب من دومة الجندل، أخبر النبى ﷺ بسوائم لبنى تميم ترعى فى الطريق فسار، حتى هجم على ماشيتهم ورعائهم فأصاب ما أصاب، وهرب من هرب.

وجاء الخبر أهل الدومة.. فتفرقوا ونزل النبى ﷺ بساحتهم ليدعوهم إلى الإسلام أو يقاتلهم، إلا أنه لم يجد بها أحداً فأقام أياماً، وبث السرايا فى كل اتجاه، وجئ له برجل فسأله عن قومه؟ فأخبره بهروبهم البارحة، وعرض عليه الإسلام فأسلم وعاد النبى ﷺ إلى المدينة غانما ولم يقاتل،وذلك وفق ما جاء بسيرة ابن هشام.

* * *

ورغم أن هذه الزيارة.. كما أسلفنا لم تستغرق سوى أيام معدودات، عاد بعدها رسولنا الكريم إلى المدينة.. إلا أن موقع دومة الجندل قد جعل النبى ﷺ يعاود غزو هذا البلد، ولكن من دون حضوره إليها هذه المرة.

وتقول التفاصيل: إنه فى العام التالى، أى فى شهر شعبان سنة ٦ هـ، كلف النبى عبدالرحمن بن عوف بالخروج إلى دومة الجندل على رأس سرية عسكرية، لدعوة أهلها إلى الإسلام، أو تحديد موقفهم من حكومة النبى بالمدينة، وتأدية الجزية.

كما أمره بأن يتزوج من ابنة ملكهم.. لتوثيق عرى هذه الطاعة وإعطائهم الأمان.. وكان ملك دومة الجندل هو إكيدر بن عبد الملك، ويرجع نسبه إلى بنى كندة واخو السكاسك بن كندة، من قبائل عريب بن كهلان القحطانية الضخمة.

وكان نصرانيا فى طاعة هرقل ملك الروم. وقد استجاب كثير من قومه للإسلام وعلى رأسهم كما يقول عديد من المصادر الاصبع بن عمر الكلبى وكان هو أيضا نصرانيا من أشراف دومة الجندل، كما تزوج عبد الرحمن بن عوف من ابنة حاكم الدومة «تماضر».

ولقد ظلت هذه البلدة فى مخيلة النبى ﷺ حتى بعد ذلك.. إذ أوفد إليها خالد بن الوليد لتأكيد الإسلام فى نفوس أهلها.. حتى أتى بحاكمها الإكيدر، الذى قبل بدفع الجزية وبالتالى كتب له كتاباً فيه الأمان.

* * *

وفى العصر الحديث.. كان من نصيب هذه المدينة التى زارها رسولنا الكريم ﷺ بعد الهجرة بخمس سنوات.. أن تتحول إدارياً وسياسياً إلى حوزة المملكة العربية السعودية.. وهى الآن جزء أصيل من منطقة الجوف المنسوبة لما يسمى حاليا بجوف السرحان، أحد الأدوية الواقعة فى الطرف الشمالى للنفود الكبير بالسعودية.

كما تقع دومة الجندل حاليا بالقرب من مدينة «سكاكا» الى الجنوب الغربى، قرب الحافة الشمالية للنفود الكبير. وقرب الطرف الجنوبى لوادى السرحان، كما تشكل حالياً منخفضاً طبيعياً، يمتد بطول ٣٠٠ كيلو متر فى محاذاة الحدود السعودية - الأردنية.

وتبلغ مساحتها حالياً ١٥ كيلو متراً مربعاً، وعدد سكانها ١٣٥ ألف نسمة، وتشتهر الدومة كذلك بصناعة السيوف والخناجر والبنادق. كما تشتهر بصناعة بعض الأدوات الحجرية، إلى جانب السجاد اليدوى.

وتعتبر الدومة حالياً من أهم المناطق الزراعية بالمملكة.. ومن أهم آثار هذه المدينة حالياً مسجد عمر بن الخطاب، الذى قيل عنه أنه أنشأه فى حياته عام ١٧ للهجرة أثناء توجهه لبيت المقدس.

وقد بنى المسجد من الحجر، ورمم أكثر من مرة، وتوجد حوله مدينة دومة الجندل القديمة، التى زارها النبى ﷺ فى العام الخامس للهجرة.

٧- فى الطائف

إذا مارجعنا إلى السيرة النبوية، وأردنا تتبع مسيرة حياة الرسول ﷺ.. منذ مولده عليه السلام حتى رحيله، سوف نكتشف أن هذه الحياة الشريفة قد بدأت فى مكة المكرمة.. من حيث المولد والنشأة، وسط عشيرة طيبة وقبيلة ضاربة فى التاريخ.

هذه الحياة التى امتدت لما يقارب الأربعين عاماً قبل البعثة الإسلامية.. وخلال هذه الفترة الطويلة.. قد ارتبطت بمكانين أو ببلدين مهمين.. هما مكة المكرمة وبلاد الشام، التى رحل إليها فى صيف أحدى سنوات ما قبل البعثة، وذلك ما أوضحناه فى الأوراق السابقة، كما ارتبط بتلك البلاد أيضاً من بعد ظهور الإسلام.. ثم بزوغ فجر الإسلام، وانتشار نوره على أرض مكة.. وسط معارضة شديدة من كفارها.

وعلى مدى عشر سنوات، واجه الرسول الكريم ﷺ معارضة وبغضاء وحقداً.. أدى به إلى التفكير فى هجرته عليه الصلاة والسلام إلى المدينة المنورة، وخلال فترة وجوده داخل مكة. وحتى من قبل الهجرة، ارتبطت مسيرة حياته كذلك بعدة أماكن أوضحناها من قبل، لكننا هنا نعيد الحديث عنها باقتضاب حتى تكون مسايرة لحياته عليه السلام ووفق ما دُون فى كتب السيرة.. ومتناغمة مع ما نكتبه هنا عن الأماكن المشهورة خلال رحلة هذه الحياة الطيبة.

والأماكن التى قصدها الرسول ﷺ خلال هذه الفترة القصيرة، قد انحسرت بين الطائف، التى رحل إليها بحثاً عن أعوان جدد للدين الإسلامى، بعدما خذله أهله وأهل قبيلته، وطاردوه وآذووه. ثم من بعد الطائف.. وما واجهه فيها عليه السلام

من عناد المشركين هناك أيضاً. . وما أصاب الرسول الكريم ﷺ خلالها من حزن وغم شديدين. . رزقه الله بزيارة خاصة للسموات السبع فى رحلة المعراج.

وقد سبقتها زيارة أخرى أكثر خصوصية. . إلى كل من طور سيناء وبيت لحم. . من قبل وصوله عليه الصلاة والسلام إلى بيت المقدس. . فى رحلة الإسراء.

* * *

إذاً، ووفقاً للترتيب الزمنى لمسيرة الدعوة الإسلامية. . من بعد مبعث محمد عليه الصلاة والسلام. . نجد أن زيارته عليه السلام للأماكن المشهورة فى مدينة الطائف تحتل المرتبة الثانية بعد مكة المكرمة.

أما بالنسبة للترتيب العام للأحداث والأماكن المشهورة فوق هذه الأوراق، فهى تحتل المرتبة السابعة.

هذا الترتيب الزمنى قد وجدناه مدوناً بالسيرة النبوية وفق الاجماع، وإن اختلف بالنسبة لنا وفق ما اخترناه من منهج، قام فى الأساس على الاختيار والمنزلة التى رأيناها تناسب كل مقام.

بدليل أننا بدأنا حديثنا فوق هذه الأوراق بزيارة محمد عليه الصلاة والسلام إلى السموات العلا. . وليس بمكة المكرمة كما كان يجب أن يكون، ثم أتبعنا ذلك بحديث آخر عن بقية تفاصيل رحلة الإسراء. . وما ارتبط بها من أماكن سواء فى بيت المقدس أو فى غيرها من الأماكن، التى ذكرها رسول الله ﷺ فى حديثه الشريف السابق التنويه عنه أيضاً.

ولسوف يشعر المتابع لنا أن أمور هذا الترتيب قد استقامت منذ وقوفنا على أطلال الطائف. لنتعرف على ما كان بها من أماكن مشهورة سجلها التاريخ، وارتبطت بزيارة محمد عليه الصلاة والسلام.

* * *

ولقد لاحظنا من خلال متابعة متأنية لما جاء فى كتب السيرة عن زيارة محمد عليه الصلاة والسلام إلى بنى ثقيف بالطائف، وجود تلازم عجيب فيما سجله أهل السيرة النبوية، بين ثلاثة أحداث مهمة.. الأول هو موت عمه أبو طالب؛ حيث ذكر الرازى فى كتابه «أوجز السير لخير البشر» أن هذا الموت قد وقع والرسول عليه السلام يبلغ من العمر تسع وأربعين سنة وثمانية أشهر وأحد عشر يوماً، والثانى: هو موت السيدة خديجة أم المؤمنين.. حيث ذكر المصدر السابق أن هذا الرحيل قد وقع بعد ثلاثة أيام من موت أبى طالب.

ولما رحل هذين العنصرين الأساسيين فى حياة محمد الآمنة.. بدأت قريش تزيد فى تحرشها به عليه الصلاة والسلام.

ورغبة منه فى زيادة رقعة التأييد لهذا الدين الجديد، نبعت فكرة زيارته عليه السلام لمدينة الطائف ولقاء بنى ثقيف.

وكانت هذه الرحلة هى الضلع الثالث من أضلاع الأحداث المهمة فى تاريخ الدعوة الإسلامية، والتى كانت المقدمة الطبيعية لرحلة الإسراء والمعراج.

بل وهناك من المؤرخين الذين يلحقون بزيارة محمد عليه الصلاة والسلام إلى الطائف حدثاً جديداً آخر.. وهو استماع نفر من الجن للقرآن الكريم.. وقالوا إن استماعهم له.. حدث فعلاً فى رحلة عودة الرسول ﷺ من ثقيف بالطائف مهموماً حزيناً، لما أصابه من أهلها من تجاهل وإيذاء.

* * *

ومهما يكن من أمر هذه التفاصيل، وهذه الأحداث المرتبطة ببعضها أو غير المرتبطة.. فقد كان هناك إجماع فى كل كتب السيرة أن محمداً عليه السلام قد زار فعلاً مدينة الطائف، وأن بها أماكن مشهورة تستحق إلقاء الأضواء عليها، وفق المنهج القائم عليه العمل والتدوين فوق هذه الأوراق.

ولقد رأينا من الضرورى أن ننقل تفاصيل هذه الرحلة، مما سجله ابن إسحاق،

رضى الله عنه فى سيرته المشهورة باعتباره عمدة كتب السيرة على إطلاقها.

قال ابن إسحاق: ولما هلك أبو طالب، نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن منه فى حياة عمه أبى طالب، فخرج رسول الله إلى الطائف، يلتمس النُّصرة من ثقيف، والمنعة بهم من قومه، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل، فخرج إليهم وحده.

وقال ابن إسحاق أيضاً فى السياق نفسه: فحدثنى يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القُرظى، قال: لما انتهى النبى ﷺ إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف، هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم وهم إخوة ثلاثة عبد ياليل بن عمرو بن عمير ومسعود ابن عمرو بن عمير، وحبيب بن عمرو ابن عمير بن عوف بن عقدة بن غيرة بن عوف بن ثقيف.

وعند أحدهم امرأة من قريش من بنى جُمح، فجلس إليهم رسول الله ﷺ ، فدعاهم إلى الله وكلمهم بما جاءهم له من نُصرته على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه، فقال له أحدهم وهو يمرط ثياب الكعبة (أى ينزعها): إن كان الله أرسلك. وقال الآخر: أما وجد الله أحداً يرسله غيرك؟ وقال الثالث: والله لا أكلمك أبداً.. لئن كنت رسولاً من الله كما تقول، لأننى أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام. ولئن كنت تكذب على الله، ما ينبغى لى أن أكلمك.

فقام رسول الله من عندهم وقد يئس من خير ثقيف، وقد قال لهم ـ فيما ذكر لى ـ إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عنى، وكره رسول الله أن يبلغ قومه عنه، فيذئرهم ذلك عليه (أى يجرئهم ويثيرهم) فلم يفعلوا وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس، وألجئوه إلى حائط لعتبة ابن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد إلى حبلة من عنب (أى شجرة) فجلس فيه، وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما لقى من سفهاء أهل الطائف، وقد لقى رسول الله ـ فيما ذكر لى ـ المرأة من بنى جمح، فقال لها: ماذا لقينا من أحمائك (أى من أقارب زوجك).

ولما اطمأن رسول الله ﷺ قال ـ فيما ذكر لى ـ اللهم إليك أشكو ضعف قوتى، وقلة حيلتى وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربى، إلى من تكلنى؟!.. إلى بعيد يتهجمنى؟ أم إلى عدو ملكته أمرى، إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى، ولكن عافيتك هى أوسع لى، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بى غضبك أو يحل على سخطك، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولاقوة إلا بك.

ثم أضاف ابن إسحاق أيضاً إلى ما سبق قوله: فلما رآه ابنا ربيعة عتبة وشيبة، ومالقى، تحركت له رحمهما (أى القرابة) فدعوا غلاماً لهما نصرانياً، يقال له عداس. فقالا له: خذ قطفاً من هذا العنب، فضعه فى هذا الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل، فقل له يأكل منه، ففعل عداس ثم أقبل به حتى وضعه بين يدى رسول الله، ثم قال له: كل، فلما وضع رسول الله فيه يده قال: بسم الله، ثم أكل، فنظر عداس فى وجهه ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله ﷺ : ومن أى البلاد أنت يا عداس؟ وما دينك؟ قال: نصرانى، وأنا رجل من أهل نينوى، فقال رسول الله: من قرية الرجل الصالح يونس بن متى، فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسول الله: ذاك أخى، كان نبياً وأنا نبى، فأكب عداس على رسول الله يقبل رأسه ويديه وقدميه.

* * *

ولم تنته رواية ابن إسحاق عند هذا الحد.. بل ربط بها رواية إضافية.. عن لقاء الرسول ﷺ بالجن، الذين استمعوا إلى القرآن الكريم.

ومما قاله فى هذا السياق: قال ابن إسحاق: بما أن رسول الله ﷺ انصرف من الطائف راجعاً إلى مكة، حين يئس من خير ثقيف، حتى إذا كان بنخلة يقال إنها كانت على كثب من مكة، قام من جوف الليل يصلى، فمر به النفر من الجن الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى وهم ـ فيما ذكر لى ـ سبعة نفر من جن أهل

نصيبيين فاستمعوا له، فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين، قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا.

فقص الله خبرهم عليه ﷺ فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾.[الأحقاف الآية ٢٩]

* * *

ولاشك كانت هذه الرحلة.. أليمة فى حياة رسولنا الكريم،ﷺ وقد تركت آثارها غير الطيبة على نفسه.. وقد ثبت فى الصحيحين عن طريق عبد الله بن وهب بسنده: أخبرنى عروة بن الزبير أن عائشة حدثت أنها قالت لرسول الله ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد؟!. قال: «مالقيت من قومك كان أشد منه يوم العقبة. إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلاب فلم يجبنى إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فنادانى جبريل فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك ما ردوا عليك، وقد بعث لك ملك الجبال، لتأمره بماشئت فيهم ثم نادانى ملك الجبال فسلم علىَّ، ثم قال: يا محمد قد بعثنى الله، إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال قد بعثنى إليك ربك لتأمرنى ماشئت، إن شئت تطبق عليهم الأخشبين، فقال رسول الله: «أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله لايشرك به شيئاً»[1].

وهكذا صارت جميع روايات أصحاب السيرة، ما بين زيادة ونقصان فيما يخص زيارة الرسول الكريم إلى الطائف.. وقد أردنا أن ننقل إليكم من المصدر الرئيسى.. عن هذه الحكاية.. وإن حاول البعض الاجتهاد فى الاضافة سواء للأحداث أو للأشخاص دون الأمكنة.. وهو ما سوف نحاول نحن إضافته هنا.. لأجل أن يستقيم السرد وفقاً للمنهج الذى اتبعناه من قبل فوق هذه الأوراق، والقائم على بيان أهم الأماكن المشهورة فى حياة محمد عليه الصلاة والسلام.

(١) صفوة السيرة لابن كثير ـ الجزء الثانى.

ومن ذلك على سبيل المثال ما ذكره محمد رضا فى كتابه «محمد رسول الله»:
أن النبى سافر إلى الطائف لثلاث بقين من شوال سنة عشر من المبعث أى يناير - فبراير عام ٦٢٠م، وكان معه مولاه زيد بن حارثة.

وقوله أيضاً فى السياق نفسه أن الرسول ﷺ عندما رجع إلى مكة دخلها بجوار أو فى حماية مطعم بن عدى.. وأنه أقام بالطائف عشرة أيام.

وكذلك ما ذكره الدكتور محمد حسين هيكل.. عن اشتداد أذى قريش للنبى الكريم ﷺ بعد عودته من الطائف.. عندما وصلهم خبر ما كان من شأن أهل ثقيف وردهم بالرفض لدعوته.. مما جعل رسولنا ﷺ يطلب أن يجيره أحد من سادة العرب.. لمزيد من الحماية.. حتى يستمر فى دعوته إلى الإسلام.

والواقع أننا بخلاف ذلك، قد لمسنا وجود عديد من الإضافات المرتبطة بالمكان.. جغرافياً وتاريخياً.. بعيداً عن كتب السيرة.. حيث اهتم بها مجموعة كبيرة من أساتذة التاريخ الإسلامى.. وقد دونوها فى كتبهم.. كما اهتموا بما فى الطائف من أماكن مشهورة.. إضافة إلى بعض الكتيبات الإعلامية التى تصدرها وزارة الإعلام السعودية من آن لآخر.

وقد حرصنا على الرجوع إلى بعض هذه المصادر لاستكمال مسيرة الأماكن المشهورة خاصة فى المطائف.

ففى كتاب «تاريخ العربى فى العصر الجاهلى» كتب الدكتور السيد عبد العزيز سالم استاذ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، يقول: إن مدينة الطائف، هى مدينة صغيرة، قديمة البنيان، تقع قريبا من مكه وعلى بعد ٦٥ ميلاً تقريبًا.

كما سميت بهذا الاسم لأن، رجلاً من الصدف يقال له الدمون بن عبد الملك، وكان تاجراً «ثرياً» قد قتل ابن عم له بحضر موت، ثم خرج هاربًا حتى نزل بأرض الطائف، فخالف مسعود بن معتب الثقفى، وتزوج من ثقيف.

وفى مقابل ذلك أقام لهم طوقاً مثل الحائط حتى لا يصل إلى ثقيف أحد من

العرب من الذين يهددونه. . ويكون هذا الطواف حصناً لثقيف فبناه بماله وسمى الموضع لذلك الطائف.

وأعتقد أن الطائف ـ والكلام لا يزال على لسان المؤلف ـ إنما سميت كذلك من الطواف حول بيت اللات، وأن تسمية الطائف كانت نتيجة لأهمية الطائف الدينية؛ باعتبارها المركز الوثنى الثانى فى الحجاز بعد مكة، وكانت تسمى فى القديم باسم «وج» وهو اسم وادى وج الذى ينسب إلى وج بن عبد الحى من العماليق.

وتقع الطائف على ظهر جبل غزوان من جبال السراة، وبغزوان قبائل هذيل. كما يحيط بالطائف نطاق من المزارع والبساتين، تمتد إلى نحو ثلاثة أو أربعة كيلو مترات من المركز العمرانى للمدينة ويطوق جبل غزوان جانبا من هذه المزارع.

وإلى الشرق من الطائف يقع وادى لية، وكان ـ يسكنه بنو نصر من هوازن. وقد مر النبى ﷺ بهذا الموضع عند منصرفه من حنين متجهًا، إلى الطائف، وأمر وهو بلية بهدم حصن مالك بن عوف. . قائد غطفان.

* * *

كما خصصت الدكتورة سعاد ماهر جزءًا مهما من كتابها عن مساجد فى السيرة النبوية لكى تحدثنا عن أهم الأماكن المشهورة، التى شهدت هذه الرحلة، والتى تحولت فيما بعد إلى مساجد يذكر فيها اسم الله.

فمن هذه الأماكن التى يستحب فيها الدعاء فى الطائف موقف أو مكان يوجد بجبل أبى زبيدة، فى طريق الذاهب إلى وج من جبل يقال له القرين. وأثر هذا الموقف ظاهر فى صخرة بركن المسجد المشهور بمسجد الموقف، أو كما يطلق عليه الآن أهل قرية الخدام مسجد الكوع. .

هذه القرية هى الآن أحد أحياء الطائف، وكانت فى أيام الرسول ﷺ قرية تعرف باسم أم خُبز. ثم اصبح اسمها قرية الخدام. وفيها الآن أيضا ضريح ابن عباس.

كما يوجد بالطائف أيضا من الأماكن المشهورة هناك والمرتبطة برحلة الرسول ﷺ إليها موقف عند وج يقال إنه وقف عنده ﷺ وعنده شجرات سدر وشجرة ذكار وحماط. وإلى ناحية هذا الموقف يوجد بئر يقال إن محمدًا ﷺ شرب من مائها.. وبخلاف ذلك هناك بجانب الموقف حظيرة، يقال إن النبى قد صلى بها[1].

ومسجد الموقف أو الكوع ما يزال موجودًا حتى الآن بوادى «وج» وإن كان بناؤه يرجع إلى عهد حديث.. والمسجد عبارة عن زاوية صغيرة، تبلغ مساحتها سبعة أمتار طولاً وأربعة عرضًا.

وكذلك من الأماكن المشهورة فى تلك المدينة.. أيضا مسجد الخبزة الذى يقع عند شجرة سدر بوج، ويذكر أن النبى ﷺ جلس تحت هذه الشجرة، حين أتاه عداس بطبق العنب.

ويقع المسجد الآن فى بساتين فى «وج» عند أقدام «أم خبز»، وهو مربع الشكل ويبلغ طول ضلعه ١٢ مترًا. ويحيط بهذا المسجد من جهتين فقط صحن مكشوف.. وهو مسجد جامع إذ يحتوى على منبر ومأذنه.

أما ثالث هذه الأماكن المشهورة، فهو مسجد عداس الذى يقع على الأطراف الجنوبية لبساتين «وج» عند سفح جبل، يقال له أبو الأخلية.. وكان فى الأصل معبدًا لعداس، فلما أسلم إقيم مكانه مسجد، عرف باسم مسجد عداس أو مسجد المثناه، وأثر الموقف ظاهر فى صخرة بركن المسجد المشهور بمسجد عداس. وهو مسجد جامع به مئذنة ومحراب ومنبر، وقد جدد حديثا.

* * *

من كل ما تقدم يتضح لنا أن رسول الله ﷺ.. عندما نزل الطائف.. لم يتجول كثيرًا فى ربوعها.. وقد فاجأته تلك المعاملة غير المتوقعة من أهلها.. الأمر الذى عجل برجوعه إلى مكة مرة أخرى.. وهو فى طريق عودته.. دخل ذلك

(١) مساجد فى السيرة النبوية ـ مصدر سابق.

البستان المشهور، والذى تذوق فيه حبات العنب، وهو يؤمنذ من أملاك عتبة وشيبة بن أبى ربيعة.

ومع ذلك فقد ظل هذا البلد فى مخيلة رسولنا الكريم ﷺ. . حيث عاد إليه، عندما اشتد عود الإسلام وقوى وكثر أنصاره بعد الهجرة وإقامة الدولة الإسلامية.

هذه العودة ارتبطت فى واقع الأمر بفتح هذا البلد وضمه إلى الإسلام، وذلك عندما عزم الرسول ﷺ على هذا الأمر.

ففى العام الثامن للهجرة عندما انصرف من موقعة حنين. تحصن أهلها - أى أهل الطائف - فى حصونهم، فنصب لهم منجانيق اتخذها سلمان الفارسى، وقد حاصرها المسلمون بقيادة الرسول ﷺ خمسة عشرة يومًا وقيل شهراً.

فلما استهل شهر ذو الحجة رجع معتمراً إلى مكة. ثم تجهز بعد الأشهر الحرم لمعاودة حصار الطائف، فلما بلغ ذلك أهلها بعثوا وفدهم إلى النبى للمفاوضة فى الصلح، وبعدها دخلوا إلى الإسلام.

* * *

وعندما أسلم أهل الطائف. . بعد تدمير اللات التى كانوا يعبدونها. . تحولت إلى مدينة إسلامية. . وقد دخلت فى نطاق البلاد التى أشرف عليها نور الإسلام وظلت كذلك إلى يومنا هذا. وهى الآن تقع بين المدن الحجازية التى تخضع للدولة السعودية. . وقد ظلت أحوالها فى الماضى تتقلب ما بين التحسن والتقهقر نظراً لأهميتها الاستراتيجية. . إلى أن فتحت صفحة جديدة بشأنها حينما انضمت إلى الملك عبد العزيز آل سعود عام ١٩٢٤، وكانت مساحتها أنذاك لا تزيد عن ٢,٥ كيلو متراً. . ثم نمت هذه المساحة نمواً كبيراً، واتسعت رقعتها حتى بلغ عدد سكانها الآن ٣٣٠ ألف نسمة، وهى تعتبر من أهم المواقع السياحية والمصايف فى السعودية.

وعن أهم ما تبقى بها من آثار فى عصر رسول الله ﷺ. ماذكره كتاب «هذه

بلادنا» بشأن وجود سوق عكاظ، الذى لازالت أطلاله قائمة إلى اليوم!. إلى جانب بقايا العديد من الحصون إلى أقامها أهلها دفاعًا عنها.. وعدد كبير من المساجد: مثل مسجد ابن عباس رضى الله عنه، ومسجد عداس ومسجد السنوسى.

***

ولا ننسى أن نشير فى السياق نفسه ـ وما ارتبط بالأماكن المشهورة بالطائف ـ إلى إحدى الغزوات المهمة فى تاريخ الدعوة الإسلامية. وهى غزوة حنين التى وقعت فى ١٠ شوال من عام ٨ هـ الموافق فبراير عام ٦٣٠م.. فى واد فى طريق الطائف إلى جنب ذى المجاز التى تبعد مسافة ٣ ليالى من مكة...

وهى من المعارك الحربية التى جاء ذكرها فى القرآن الكريم. وكان سبب وقوعها أن أشراف قبيلة هوازن وثقيف قد خافوا أن يغزوهم رسول الله ﷺ بعد نجاحه فى فتح مكة. وقد خرج رسول الله حين علم بنية هوازن فى الحرب. يوم السبت لست خلون من شوال سنة ٨ من الهجرة.. وأهل مكة معه ركبانا ومشاة حتى النساء، ومن لم يكمل إسلامه. وجاء النصر حليف المسلمين رغم انكسارهم فى بداية هذه المعركة.

٨- فى المدينة المنورة

يمثل وصول محمد عليه الصلاة والسلام. . إلى يثرب سالماً. . هو وصاحبه أبو بكر الصديق. . بداية حقيقية لانطلاق دعوة الإسلام. . وانتشارها على أسس موضوعية، تمثلت فى عدة مبادئ. . بدأ رسولنا الكريم ﷺ فى تطبيقها منذ أن وطأت قدماه الشريفتان أرض يثرب ومن حولها من حواضر وأماكن.

وكان فى مقدمة تلك المبادئ. . احترام حقوق الآخرين من أبناء يثرب على اختلاف مللهم. ثم عدم التفرقة بالنسبة لهذه الحقوق بين رجل وطفل، أو بين رجل وامرأة.

إذ نظر محمد عليه الصلاة والسلام. . إلى جميع البشر نظرة واحدة وبصرف النظر عن المكانة أو الرئاسة أو القوة أو الضعف.

وقد بدأ هو بنفسه وكما سوف نرى. . حين رفض رفضاً باتاً قبول تلك الأرض الفضاء التى اختيرت لإقامة مسجده الشريف. . مجاناً. . بل ودفع لها مقابل يناسب تقديرات ذلك الزمان.

وهناك أيضا تم تطبيق العشرات من المبادئ والقيم الأخرى التى نص عليها دين الله. . وقد أصبحت فى الوقت نفسه أهم نصوص الدستور الدنيوى، الذى قام فى الأصل على نصوص القرآن الكريم وعلى تطبيقات رسول الرحمة.

ووفق الإجماع، فقد وصل رسول الله ﷺ إلى مشارف يثرب يوم الاثنين من شهر ربيع الأول قرب الظهر. . وذلك بعد أن قضى حوالى عشرة أيام. . داخل دروب الصحراء منذ خروجه من مكة مهاجراً.

ولدينا صورة رائعة سجلها ابن كثير فى كتابه عن كيفية استقبال أهل يثرب

للرسول ﷺ. . سوف ننقل بعض ملامحها، من قبل أن نتحدث عن أهم الأماكن المشهورة فى هذا البلد الذى أقيمت فيه دولة الإسلام، والتى أسست على التقوى والإيمان.

وقد نقل ابن كثير هذه الصورة مما سجله ابن إسحاق رضى الله عنه، والذى قال فى وصفه لوصول النبى إلى ديار يثرب: حدثنى رجال من قومى من أصحاب رسول الله ﷺ ومنهم عبد الرحمن بن عويم بن ساعدة. قالوا: لما بلغنا مخرج النبى من مكة وتوكفنا قدومه. . كنا نخرج إذا صلينا الصبح إلى ظاهر حرتنا ننتظر النبى ﷺ ، فوالله ما نبرح حتى تغلبنا الشمس على الظلال، فإذا لم نجد ظلاً دخلنا، وذلك فى أيام حارة، حتى إذا كان اليوم الذى قدم فيه رسول الله ﷺ جلسنا كما نجلس، حتى إذا لم يبق ظل دخلنا بيوتنا، وقدم رسول الله ﷺ حين دخلنا البيوت، فكان أول من رآه رجل من اليهود فصرخ بأعلى صوته: يابنى قيلة هذا جدكم قد جاء.

فخرجنا إلى رسول الله ﷺ وهو فى ظل نخلة ومعه أبو بكر فى مثل سنه، وأكثرنا لم يكن رأى رسول الله قبل ذلك. وتجمع الناس، وما يعرفونه من أبى بكر، حتى زال الظل عن رسول الله فقام أبو بكر فأظله بردائه، فعرفناه عند ذلك.

* * *

وإذا ما أفسحنا مجال الحديث لذكر الأماكن المشهورة فى يثرب أو المدينة المنورة كما أطلق عليها رسولنا الكريم ﷺوقت نزوله إليها. . لابد لنا من الإشارة إلى أننا سوف نتناول بالحديث عن هذه الأماكن فى مرحلتين. . الأولى هى مرحلة الزيارة فى الطفولة والصبا. . حيث لم ينقطع رسولنا ﷺ عن يثرب رغم ارتباطه الشديد بمكة مسقط رأسه ورأس والديه. . وفى هذه المرحلة. . كان رسولنا الكريم ﷺ يتردد على يثرب لأمرين. . الأول لزيارة قبر والده الذى توفاه الله فيها، ودفن بإحدى مقابرها. . كما أوضحنا ذلك من قبل، وثانياً لزيارة قبر أمه التى ماتت بالأبواء على مشارف يثرب، بل ودفنت هناك أيضاً.

ولما كنا قد ألقينا من قبل بعض الأضواء المبهرة على هذين المكانين بالذات.. عند الحديث عن حياة محمد ومولده عليه السلام.. فإننا سوف نكتفى هنا بالإشارة إليها مرة أخرى لأجل إحداث نوع من الربط بين كل الأماكن المشهورة وبين ما فى يثرب من أماكن تستحق التعليق والإشارة إليها.

ثم يأتى بعد ذلك حديث المرحلة الثانية.. وهى التى أطلقنا عليها مرحلة الاستقرار والإقامة الدائمة، وقد بدأت منذ أن وطأت قدماه الشريفتان أرض يثرب حتى توفاه الله ودفن بها أيضاً.

هذه المرحلة قد شهدت هى الأخرى عديداً من الأماكن المشهورة.. والتى نعتبرها من حيث الكثرة والأهمية عما شهدته مكة المكرمة.. رغم قصر مدة إقامة رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام بها.. بالقياس إلى مكة.. والسبب فى ذلك يرجع أساساً لارتباط يثرب بعديد من الأحداث المهمة فى حياة محمد عليه السلام وفى تاريخ الدعوة الإسلامية كلها.

* * *

ولقد رأينا من قبل الإفصاح تفصيلاً عن الأماكن المشهورة فى هاتين المرحلتين ضرورة الوقوف على بعض ما كتبه المؤرخون والجغرافيون عن يثرب. هذه الكتابات سوف تكون مدخلاً مهماً لحديث الأماكن المشهورة.، وكان أول ما لفت أنظارنا فى تاريخ هذه المدينة هو أن عديداً من المؤرخين ذكروا أن يثرب مدينة قديمة، ربما أقدم من مكة المكرمة. وقد ورد ذكرها فى الكتابات المعينية، كما كانت أيضاً من المواضع التى أقامت بها جاليات من معين.

ثم آل أمرها إلى السبئيين بعد أن زالت دولة معين، كما جاء ذكر يثرب فى جغرافية بطليموس.

ويثرب هى أم قرى المدينة وحددوا مواقعها إلى الشمال الغربى من المدينة المنورة حالياً. وفى العهد الإسلامى استعمل الاسمان لهذا المكان الطاهر الشريف.. ثم غلب الاسم الجديد على استخدامها بين الناس.

كما وردت كلمة يثرب فى القرآن الكريم فى إحدى الآيات الكريمة؛ مما يدل على بقاء هذا الاسم حق من بعد دخولها فى الإسلام، وذلك فى قوله تعالى: ﴿**يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا**﴾.. [الأحزاب الآية١٣]. أما كلمة المدينة ،فقد ذُكرت فى ثلاث سور مدنية وفى الأحزاب والتوبة.

والمؤرخ الدكتور السيد سالم يؤكد فيما كتبه عن يثرب أن الإخباريين قد اختلفوا فيما كان هذا الاسم يخص المدينة كلها أو لموضع مخصص من أرضها أو اسم الناحية التى منها مدينة الرسول. كما ذكر هؤلاء الأخباريون أن ليثرب أو المدينة ٢٧ اسماً، هى: المدينة ـ طيبة ـ طابة ـ المسكينة ـ العذراء، الجابرة ـ المحببة ـ المحبورة ـ يثرب ـ الناجية ـ الموفية ـ أكالة البلدان ـ المحفوفة ـ المسلمة ـ المجففة ـ الجنة ـ القدسية ـ العاصمة ـ المرزوقة ـ الشافية ـ الخيرة ـ المحبوبة ـ المرحومة ـ جابرة ـ المختارة ـ المحرمة ـ القاصمة وطبابا[1]، وأضاف إليها بعضهم أسماء أخرى مثل البارة ـ دار الأبرار ـ دار الأخبار ـ دار الإيمان ـ دار السنة ـ دار الهجرة. وكل هذه الأسماء وغيرها قد عرفت بها يثرب بعد الهجرة. أى فى العصر الإسلامى.

ليس هذا فقط، بل تحدث هؤلاء المؤرخون أيضاً عن أصل تسمية يثرب والمدينة.. فقالوا عن الأولى: أنها سميت يثرب نسبة إلى يثرب بن قانية ابن مهلائيل بن إرم بن عبيل بن عوص ابن أرم بن سام بن نوح، وهو أول من نزل عند تفرق ذرية نوح. وهذا قول المسعودى فى كتابه مروج الذهب. وزعم آخرون أن اسم يثرب مأخوذ من الثرب بمعنى الفساد أو التثريب أو المؤاخذة بالذنب. وذكروا فى هذا السياق أن النبى ﷺ نهى عن تسمية يثرب بهذا الاسم. وسماها طيبة، وهناك بخلاف ذلك أقاويل أخرى عن سبب تسمية يثرب بهذا الاسم.

* * *

هذا عن تاريخ مدينة الرسول ﷺ .. فماذا عن جغرافيتها وموقعها بالنسبة لبقية بلاد الحجاز؟!.

---

(١) ياقوت الحموى ـ معجم البلدان.

تقع المدينة على الخط التجارى الممتد من جنوب الجزيرة العربية إلى شمالها. وهذا الموقع خلق فيها مزيداً من الإلف والسماحة، حيث كان حسن استقبال التجار وخدمتهم، على حد قول المؤرخ الإسلامى الدكتور أحمد شلبى وسيلة للكسب والثراء.

كما تقع المدينة على بعد ٥٠٠ كيلو متر من مكة فى بسيط من الأرض مكشوف من سائر الجهات، وهى أرض كثيرة المياه والشجر والزروع، وأقرب الجبال إليها هو جبل أحد، ويقع فى الشمال، فى حين يقع جبل عير فى جنوبها الغربى وجبل عير، جبلان أحمران متقاربان ببطن وادى العقيق، أحدهما يسمى عير الوارد، والآخر عير الصادر.

وإلى الشرق يوجد بقيع الغرقد، وإلى الجنوب قرية قباء، التى تبعد عن يثرب بنحو ميلين مما يلى القبلة، وإلى الجنوب منها تقع قرية الفرع على الطريق المؤدى إلى مكة.

ويعتبر وادى العقيق من أخصب مناطق يثرب، وهو يبعد عنها من جهة الغرب بنحو ثلاثة أميال، وبخلاف وادى عقيق هناك وادى بطحان الذى يقع إلى الغرب من يثرب.

* * *

وعندما تحدث العلماء والمؤرخون عن أصل سكان المدينة.. قالوا كلاماً كثيراً.. ومما ذكروه فى هذا السياق أن أول من عمر ديار هذه المدينة هم العماليق، من بنى عملاق بن أرفخشد بن سام بن نوح. وكان يسكن المدينة منهم بنوهف وسعد بن هفان، وبنو مطرويل، ثم نزل اليهود بيثرب، وقد أقاموا بها حصوناً يلجأون إليها فى أوقات الغارات ويتحصن فيها النساء والأطفال والشيوخ عندما يخرج رجالهم الى القتال. كما سكن هذه الديار العرب من قبل نزول اليهود إليها، وهى كما قلنا قبائل تنسب إلى العماليق.. إلا أن اليهود الوافدين قد تغلبوا على العرب هناك، وبالتالى أصبحت لهم السيادة عليهم.

وقد ذكر ابن النجار أنه كان يسكن يثرب مع اليهود بطون عربية من اليمن ومن بلى ومن سليم بن منصور بن عكرمة من قيس عيلان، وبقايا من العماليق، ثم كانت هجرة الأوس والخزرج اليمنيين إلى يثرب، بعد هدم سد مأرب هناك، وقد نزل الأوس والخزرج إلى يثرب وأقاموا مع اليهود.

وحتى عندما هاجر رسولنا ﷺ إلى يثرب، وجد بها هذه الأصول السكانية التى تمثلت فى كل من اليهود وقبيلتى الأوس والخزرج إضافة إلى بعض القبائل العربية الأخرى مثل قبيلة بنو النجار أخوال والد النبى عليه الصلاة والسلام.

•• فى مرحلة الزيارة:

لقد سبق لنا القول بأن محمداً عليه الصلاة والسلام رغم إقامته الدائمة بمكة.. إلا أنه كان من حين لآخر يزور المدينة أو يثرب.. خاصة فى مرحلة طفولته وصباه.. حيث كان له فى هذه المرحلة مكانين على جانب كبير من الأهمية والشهرة. الأول المكان الذى مات فيه أبو عبد الله ثم دفن به.. وكما مر علينا آنفاً فقد مات عبد الله وهو فى طريق عودته من رحلة الشام، بعد ما أصابه مرض فألجأه إلى المدينة أو إلى يثرب عند أخواله من بنى النجار.. أملاً فى الشفاء، ثم اللحاق مرة أخرى بالقافلة التى سبقته إلى ديار مكة.

وهناك قضى حوالى شهراً وهو طريح الفراش.. ثم توفى لشهرين من تاريخ حمل ابنه محمد عليه الصلاة والسلام. ودفن عبد الله بدار النابغة فى الدار الصغرى، إذا دخلت هذه الدار على يسارك فى البيت.. وكان عمره آنذاك وفق الاجماع ٢٥ عاماً. وكان محمد عليه السلام دائم الزيارة لقبر أبيه، خاصة فى صحبة أمه آمنة.

ويؤكد الدكتور هيكل أن محمداً عليه الصلاة والسلام بعد هجرته إلى المدينة كان دائماً يقص على أصحابه حديث الرحلة الأولى للمدينة بصحبة أمه.

والغريب فيما يروى أن الوفاة قد أدركت أم النبى الكريم ﷺ .. بعد انقضاء زيارتها لقبر زوجها حيث مرضت فى الأبواء، ثم ماتت ودفنت بهذا المكان الذى

كان يبعد بمقدار ٢٣ ميلاً عن المدينة، وقد أصبح مكان قبره أمه عليه الصلاة والسلام، هو المكان الثانى الذى كان يزوره نبينا من آن لآخر، إما بصحبة أحد أقاربه، عندما كان صغيراً أو بمفرده بعدما قوى عوده وصار شاباً.

وقد حدد بعض المؤرخين تاريخ وفاة أم النبى الكريم، فقالوا إنها وقعت فى عام ٥٧٥-٥٧٦م. وكان عمر النبى عليه الصلاة والسلام آنذاك ست سنوات، كما كان عمر والدته عليه السلام فى حين وفاتها ثلاثين سنة.

وفى الحديث الشريف، أن رسول الله ﷺ قد زار قبر أمه فى ألف مقنع، فبكى وأبكى. . أى فى ألف فارس مغطى بالسلاح.

ويقدم لنا الدكتور خالد مصطفى فى مؤلفه المهم «آثار رسول الله ﷺ» وصفاً حديثاً لمكان قبر أم رسول الله ﷺ. . يقول فيه: الأبواء، هو محل بين مكة والمدينة. . على بعد حوالى ٣٠٠ كيلو متر من المدينة المنورة فى طريق مكة القديم بعد تخطى مدينة بدر الشهداء، ثم عند مدينة مستورة يتجه الذاهب يساراً فى طريق صحراوى مسافة ٣٠ كيلو متراً لبلدة صغيرة تسمى خريبة، وعلى طرفها جبل عال عليه مقام السيدة آمنة.

ومما لاحظناه فى كتب السيرة والتاريخ والأحاديث النبوية. . هو وجود اهتمام كبير حتى من جانب رسولنا ﷺ بالحديث عن قبر والدته دون قبر أبيه، فقد روى عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه قال: : خرج النبى ﷺ يوماً وخرجنا معه حتى انتهينا إلى المقابر فأمرنا فجلسنا، ثم تخطى القبور حتى انتهى إلى قبر منها، فجلس إليه فناجاه طويلاً ثم ارتفع صوته ينتحب باكياً فبكينا لبكائه عليه الصلاة والسلام. ثم أن رسول الله ﷺ أقبل إلينا فتلقاه عمر بن الخطاب، فقال: ما الذى أبكاك يا رسول الله ﷺ، فقد أبكانا وأفزعنا، فأخذ بيد عمر ثم أومأ إلينا فآتيناه فقال: إن القبر الذى رأيتمونى أناجيه قبر أمى آمنة بنت وهب، وأنى استأذنت ربي فى زيارتها فأذن لى.

ولما مر رسول الله ﷺ بالأبواء فى عُمرة الحديبية، قال: إن الله أذن لمحمد فى

زيارة قبر أمه فأتاه وأصلحه وبكى عنده وبكى المسلمون لبكائه، وقيل له لما ذلك فقال: أدركتني رحمتها فبكيت.

* * *

•• فى مرحلة الإقامة والإستقرار:

علمنا من قبل أن رسولنا الكريم ﷺ.. قد جاء المدينة مهاجراً بعد ما أذن له الله.. وكان فى صحبته عليه السلام أبى بكر الصديق.. وقد أقام النبى الكريم ﷺ فى المدينة قرابة ثلاثة عشرة سنة.. على رأى الاجماع.. هذه الفترة غير الطويلة بالقياس لما قضاه فى مكة المكرمة، قد شهدت أماكن كثيرة اشتهرت بشهرة أحداثها الجسام. وارتبطت فى المقام الأول بنشأة الدولة الإسلامية، وحرص قائدها وزعيمها النبى العظيم على تحقيق أكبر قدر من الاستقرار أولاً فى داخل مكان الإقامة الجديد.. وذلك تمهيداً لتحقيق المزيد من الانتشار أولاً حول ربوع المدينة وضواحيها.. ثم مابعدها من بلاد ومدن وعواصم وأمم، امتدت إلى مشارف بلاد الشام. وقد أخذ الإسلام من بعد هذه الخطوة فى الزحف فى ثبات ناحية كل أنحاء المعمورة حتى بات إلى ما هو عليه الآن.

وبنظرة فاحصة لتلك الأماكن المشهورة فى المدينة المنورة، والتى ارتبطت بمسيرة وحياة محمد عليه السلام ومسيرة الدولة الإسلامية.. وجدناها تنقسم إلى نوعين من الأماكن.. الأول: ما ارتبط بحواضر يثرب.. وما كان حولها من قرى كانت تقيم بها بعض القبائل العربية. هذه الحواضر. شهدت بداية المناوشات العسكرية بين المسلمين وبين كفار قريش.

ولسوف نبين ذلك بالتفصيل بعد بيان الأماكن الخاصة بالنوع الثانى.. والتى ارتبطت بالأحداث التى وقعت داخل يثرب نفسها، سواء كانت أحداثاً دينية أو غير دينية. شهدها الرسول الكريم.. بل وساهم فى صنعها.. وتأكيد هويتها ووجودها.

ونبدأ رحلتنا عبر هذه الأماكن المشهورة بالحديث المفصل عن الأماكن الخاصة بمسيرته عليه السلام حول يثرب وحواضرها. سواء فى السلم أو فى الحرب. وأول ما يستوقفنا فى هذا المقام.. الحديث عن أول مكان وصل إليه محمد عليه السلام.. من قبل دخوله إلى يثرب فى ظهيرة يوم الاثنين.. كما سبق وأوضحنا.

وقد لعب ذلك المكان دوراً عظيماً فى حياة محمد وحياة الدعوة الإسلامية.. إذ كان بمثابة بداية دخوله فى نطاق الأماكن الآمنة.. التى انطلق من بعدها فى رعاية الله، وحوله كل المسلمين من الأنصار والمهاجرين، فى بداية قوية لعصر جديد.

ونقول هنا بداية دخوله المكان الآمن الذى هاجر إليه.. ذلك لأن رسولنا ﷺ، قد ظل طوال خمسة عشر يوماً مطارداً من زبانية قريش وفتيانها.. داخل الصحراء.. ولم ينقذه من غدرهم بعد رعاية الله وفضله إلا المسير بالليل، تحت أضواء النجوم التى كانت ترعاه بفضل الله. واللجوء إلى طرق لم تكن مطروقة من قبل.

ولبيان ما كان فيه رسولنا من حال يستحق الإسراع للوصول إلى نقطة الأمان كما يقولون فى الاصطلاحات العسكرية.. ننقل إليكم هذا التصوير البليغ، والذى كتبه الدكتور هيكل، عندما قال: «وانطلق محمد ﷺ وصاحبه يقطعان بطون تهامة فى قيظ محرق تتلظى له رمال الصحراء، ويجتازان إكاماً ووهاداً ولايجدان أكثر الأمر ما يتقيان به شواظ الهاجرة، ولايجدان ملجأ من قسوة ما يحيط بهما، وأمنا مما يتخوفان أن يفاجأهما إلا صبرهما وحسن ثقتهما بالله وعظيم إيمانهم بالحق الذى أنزل على رسوله. وظلا هكذا سبعة أيام متتالية، ينتحيان فى حمارة القيظ ويسريان على سفينة الصحراء الليل كله، يجدان فى سكينته وفى ضوء النجوم اللامعة فى ظلمته ما يطمئن له قلباهما وتستريح له نفساهما».

* * *

ولنا أن نتصور حال الحبيب عليه الصلاة والسلام وصاحبه، وهما على هذه الحالة من الهلع، وكيف كانا يتوقان للوصول إلى بر الأمان.. الذى شعرا به بعد

دخولهما فى النطاق الجغرافى ليثرب، عند موقع قبيلة بنى سهم. وكانت من القبائل العربية التى سمعت بالإسلام، وبنبوة محمد عليه السلام.. بل وربما قد أسلم زعيم هذه القبيلة، وهو الشيخ بريدة، الذى استقبلهما بترحاب أزال عنهما مخاوفهما وطمأنهما على أنهما الآن قد أصبحا آمنين، حيث باتت يثرب على بعد أمتار قليلة، وأن أهلها من المهاجرين والأنصار فى انتظار مقدمهما على مشارف جبال يثرب.

بل وكان هؤلاء القوم ينتظرونهما دوماً منذ أن سمعوا بخبر خروجهما من مكة مهاجرين، وفى تصورنا أن مكان إقامة قبيلة بنى سهم فى مدخل يثرب.. قد انضم إدارياً للمدينة المنورة، التى شهدت عديداً من التوسعات، التى حدثت لها على مر الأيام والسنوات.

وبعد أن استراح محمد عليه الصلاة والسلام داخل ديار قبيلة بنى سهم.. انطلق وصاحبه فى اتجاه ديار يثرب.. وقد أسلفنا كيف استقبل أهلها الرسول الكريم وصاحبه، وكان أول وصوله داخل يثرب إلى قرية قباء، التى تبعد حالياً نحو ميلين عن المدينة، وكانت قرية خصبة التربة وبها حدائق من أعناب ونخيل ورمان.. وقد أقام بها محمد عليه السلام أربعة أيام.. حيث دخلها يوم الاثنين وغادرها يوم الجمعة صباحاً.

وخلال هذه الأيام القليلة، وضع الرسول الكريم ﷺ حجر الأساس، بل وبدأ فى بناء مسجد قباء كأول مسجد أقيم بالمدينة بعد الهجرة، وهو المسجد الذى أسس على التقوى من أول يوم، وجاء ذكره بهذه الصفة فى القرآن الكريم.

وأثناء وجود رسولنا ﷺ بقباء أقام عند كلثوم بن الهدم ابن امرئ القيس، وكان شيخاً كبيراً أسلم قبل مقدم الرسول ﷺ إلى يثرب.. ووفق الاجماع فقد أقام الرسول ﷺ عند كلثوم بن الهدم أربعة أيام. كما أقام أبى بكر الصديق عند حبيب بن إساف، وكان يقيم أنذاك بمنطقة السنح إحدى محال يثرب القريبة من قباء.

وعندما قدم على بن أبى طالب ومعه الفواطم وأم أيمن وولدها أيمن وجماعة من ضعفاء المسلمين، وبعد أن أدى عن رسول الله ﷺ الودائع التى كانت عنده إلى الناس، نزل أيضاً عند كلثوم بن الهدم اقتداء بالرسول ﷺ.

ويقال إن على بن أبى طالب، كانت قد تورمت قدماه لأنه كان يسير بالليل ويكمن بالنهار حتى تفطرت قدماه، وقد عاوده الرسول وبكى لأجله لما رآه فيه من تورم فى قدميه.

ويقال أيضاً إن علياً قد قضى فى هذه الرحلة أسبوعين كاملين، حتى لحق بالرسول الكريم ﷺ بقرية قباء. كما يقال إن محمداً عليه الصلاة والسلام دخل قباء يوم جمعة، وربما يقصدون بذلك وصول رسولنا ﷺ إلى المدينة فى هذا اليوم.. لأن هناك مصادر أخرى أكدت أن محمداً ﷺ وصل إلى مشارف يثرب ودخل قرية قباء يوم الاثنين.

ولابن اسحاق رحمة الله عليه رأى آخر بالنسبة للمكان الأول، الذى نزل به رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام.. خاصة داخل قرية قباء، وقد قال فى هذا الرأى: «.. فنزل رسول الله ﷺ ـ فيما يذكرون ـ على كلثوم بن هدم، أخى عمرو ابن عوف، ويقال: بل نزل على سعد بن خيثمة، ويقول من يذكر أنه نزل على كثوم بن هدم.. إنما كان الرسول ﷺ إذا خرج من منزل كلثوم بن هدم جلس للناس فى بيت سعد بن خيثمة. وذلك لأنه كان أعزباً لا أهل له.. وكان منزل الأعزاب من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين، فمن هنالك يقال: نزل على سعد ابن خيثمة، وكان يقال بيت سعد بيت الأعزاب، فالله أعلم أى ذلك كان.. كلا قد سمعنا».

* * *

ولقد ذكرنا آنفاً.. أن محمداً عليه الصلاة والسلام.. قد شرع فى بناء مسجد قباء فى الفترة القصيرة، التى أقام بها فى هذه القرية، وكان بذلك أول مسجد تم بناؤه فى يثرب كلها.. وهو مسجد شريف فاضل نزل فيه قوله تعالى ﴿لَّمَسْجِدٌ

﴿أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة الآية ١٠٨].

ومما يقال فى كتب السيرة بشأن بناء مسجد قباء أن رسول الله ﷺ كان أول من وضع حجراً فى قبلته، ثم جاء أبو بكر بحجر فوضعه إلى حجر رسول الله ﷺ، ثم أخذ الناس فى البنيان.

كما يقولون أن أرض هذا المسجد كانت فى الأصل مربداً لكلثوم بن هدم.. وهو المكان الذى يبسط فيه التمر ليجف.

وقد ظل رسول الله ﷺ يزور مسجد قباء، ويصلى فيه، وكان يؤمهم الصحابى معاذ بن جبل، ولما توفى الرسول ﷺ لم تزل الصحابة تزوره وتعظمه.

وفى صحيح البخارى، كان سالم مولى حذيفة رضى الله عنهما يؤم المهاجرين الأولين من أصحاب رسول الله، فى مسجد قباء، وفيهم أبى بكر وعمر.

* * *

ولما اعترى مسجد قباء الخراب فى خلافة عثمان بن عفان جدده وزاد عليه، وبقى على هذه الحالة إلى أن تولى عبد الملك بن مروان فزاد فيه أيضاً، ولما بنى عمر بن عبد العزيز مسجد النبى ﷺ بنى مسجد قباء، ووسعه وبناه بالحجارة والجص، وأقام فيه الأساطين من الحجارة فى جوفها عمد من حديد ورصاص، ونقشه بالفسيفساء وعمل له منارة، وسقفه بالسياج، وجعل أروقة المسجد فى وسطه رحبة.

ثم تهدم هذا المسجد على طول الزمان.. حتى جدد عمارته جمال الدين الأصفهانى وزير بنى زنكى ببلاد الموصل، وذلك فى عام ٥٥٥ هـ، ثم جدد بعد ذلك عدة مرات فى زمن الدولة العثمانية. كما جدد أيضاً فى عصر الدولة السعودية.

---

(١) ياقوت الحموى ـ معجم البلدان مصدر سابق.

وهناك أحاديث شريفة كثيرة عن مسجد قباء.. فقد روى البخارى فى صحيحه أن رسول الله ﷺ لبث فى بنى عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة، وأسس المسجد الذى أسس على التقوى. وعن ابن عمر قال: كان رسول الله ﷺ يزور مسجد قباء كل سبت راكباً وماشياً، ويصلى فيه ركعتين، أخرجه الستة إلا الترمذى[1].

وعن سهل بن حنيف رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من خرج حتى يأتى مسجد قباء فصلى فيه ركعتين كان له كعدل عمرة». أخرجه النسائى.. وروى الطبرانى ورجال ثقات عن الشموس بنت النعمان، قالت: نظرت إلى رسول الله ﷺ حين قدم ونزل وأسس هذا المسجد، مسجد قباء، فرأيته يأخذ الحجر أو الصخرة حتى يصهره أى يميله، وأنظر إلى بياض التراب على بطنه وسرته فيأتى الرجل من أصحابه فيقول: بأبى وأمى يارسول الله أكفيك، فيقول: لا.. خذ مثله.. حتى أسسه. ويقول إن جبريل عليه السلام: هو يؤم الكعبة، قالت: فكان يقال إنه أقوم مسجد قبلة.

ولأهمية هذا المسجد، فإن الصحابه رضوان الله عليهم أجمعين قد اهتموا به ودعوا الناس للصلاة فيه.. ومما يروى فى هذا السياق على لسان أبى غزية، قال: كان عمر بن الخطاب يأتى مسجد قباء يوم الاثنين ويوم الخميس، فجاء يوماً من تلك الأيام، فلم يجد فيه أحداً من أهله، فقال والذى نفسى بيده، لقد رأيت رسول الله ﷺ فى أصحابه وأبا بكر ينقلان حجارته على بطونهما، حيث يؤسسه رسول الله بيده. وجبريل عليه السلام يؤم به البيت، ويحلف عمر بالله لو كان مسجدنا هذا بطرف من الأطراف، لضربنا إليه أكباد الإبل. ثم قال: اكسروا لى سعفة واجتنبوا العواض ـ أي ما يلى القلب من السعف، فقطعوا السعف، فأتى بها، فأخذ وذمة أي سيراً. فربطها فمسحه، فقالوا نكفيك يا أمير المؤمنين فقال: لا تكفونيه.

وتؤكد الدكتورة سعاد ماهر أن بالمسجد حالياً عدة نصوص قرآنية، أحدها نص

(١) مساجد فى السيرة النبوية ـ د. سعاد ماهر ـ مصدر سابق.

أعلى محراب القبلة.. ونص فى مكان مبرك الناقة، التى كانت تقل الرسول ﷺ من مكة.

* * *

وفى صباح يوم الجمعة.. قرر محمد عليه الصلاة والسلام استكمال رحلته إلى داخل يثرب.. ولما ارتحل عليه السلام من قباء، وهو راكب ناقته القصواء على حد قول ابن كثير، أدركه وقت الزوال وهو فى دار بنى سالم ابن عوف على مشارف قرية قباء فى اتجاه يثرب، فصلى بالمسلمين الجمعة هناك. فى واد يقال له «وادى رانوناء».. فكانت بذلك أول جمعة يصليها النبى بالمسلمين خارج مكة أو داخلها.. ذلك لأنه على حد قول الاجماع، لم يكن يتمكن هو وأصحابه من الاجتماع معاً، حتى يقيموا بها جمعة ذات خطبة وإعلان بموعظة، وماذاك على حد قول بن كثير إلا لشدة مخالفة المشركين له وإيذائهم إياه.

وقيل عن الموضع الذى أقيمت فيه أول صلاة جمعة فى الإسلام أنه مكان على يمين السالك نحو قباء، وقد أقيم فى البقعة نفسها حالياً مسجد بهذا الاسم، وكان عدد الذين أمهم الرسول فى هذه الصلاة نحو مائة من الصحابة.

ولعلنا تشريفاً وتعظيماً بهذه الصلاة الجامعة، التى اعتبرها المؤرخون أول صلاة جمعة فى الإسلام.. نورد هنا نص خطبة الرسول ﷺ التى ألقاها من فوق منبره الشريف..

«الحمد الله أحمده وأستعينه وأستغفره وأستهديه وأؤمن به ولا أكفره وأعادى من يكفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، والتى قال فيها: أرسله بالهدى ودين الحق، والنور والموعظة على فترة من الرسل، وقلة من العلم، وضلالة من الناس، وانقطاع من الزمان، ودنو من الساعة، وقرب من الأجل، من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى وفرط وضل ضلالاً بعيداً. أوصيكم بتقوى الله، فإنه خير ما أوصى به المسلم، المسلم أن يحضه على الآخرة، وأن يأمره بتقوى الله عز وجل، فاحذروا

ما حذركم الله من نفسه، ولا أفضل من ذلك ذكراً، وإن تقوى الله لمن عمل به على وجل ومخافة من ربه عون صدق على ما تبغون من أمر الآخرة، ومن يصلح الذى بينه وبين الله تعالى من أمره فى السر والعلانية لا ينوى بذلك إلا وجه الله، يكن له ذكراً فى عاجل أمره وذخراً فيما بعد الموت، حين يفتقر المرء إلى ما قدم. وما كان مما سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمد بعيد ﴿ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد﴾ هو الذى صدق قوله، وأنجز وعده، لا خُلف لذلك، فإنه يقول عز وجل: ﴿ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد﴾. فاتقوا الله فى عاجل أمركم وآجله، فى السر والعلانية، فإنه ﴿ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً﴾. ومن يتق الله فقد فاز فوزاً عظيماً. وإن تقوى الله توقى مقته وتوقى عقوبته وتوقى سخطه، وإن تقوى الله تبيض الوجوه وترضى الرب وترفع الدرجة، فخذوا بحظكم، ولا تفرطوا فى جنب الله، فقد علمكم كتابه، ونهج لكم سبيله، ليعلم الذين صدقوا وليعلم الكاذبين. فأحسنوا كما أحسن الله إليكم، وعادوا أعداءه، وجاهدوا فى سبيل الله حق جهاده، هو اجتباكم وسماكم مسلمين: ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة﴾. ولا حول ولا قوة إلا بالله، فأكثروا ذكر الله تعالى واعملوا لما بعد الموت، فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفيه الله ما بينه وبين الناس، ذلك بأن الله يقضى على الناس ولايقضون عليه، ويملك من الناس ولايملكون منه. الله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم»[1].

ويؤكد الدكتور مصطفى الشكعة أن هذه الخطبة هى فعلاً أول خطبة صلى بها النبى فى هذه الجمعة، بدليل ما ذكره فى شأنها ابن عباس طبقاً لرواية بن كثير.

بل ويضيف: أن مجتمع المؤمنين فى المدينة كان مشوقاً إلى سماع كلام رسول الله ﷺ قبل أن يؤمهم فى صلاة أول جمعة يوم حل بديارهم. . ومن ثم فقد خطب فيهم أكثر من مرة فى اليوم نفسه. وكانت خطبته الثالثة هى خطبة الجمعة.

* * *

(١) تاريخ الطبرى ـ تفسير القرطبى ـ سبل الهدى والرشاد ـ البيان المحمدى للدكتور مصطفى الشكعة.

ويقترب بنا الرسول الكريم ﷺ أثناء رحلته المباركة فى اتجاه يثرب إلى المكان الذى أقيم فيه مسجده عليه الصلاة والسلام. . بعدما ترك قرية قباء وحضرته أول صلاة جمعة فى بطن وادى بنى سالم بن عوف. وقد ركب ناقته القصواء يريد المدينة، وقد أرخى زمامها بعدما طلب من رجال بنى سالم أن يخلوا سبيلها، حيث إنها مأمورة من الله تعالى. . حيث عرضوا عليه أن يقيم عندهم ضيفاً من قبل مواصلة المسير، فانطلقت على قول ابن إسحاق حتى إذا وازنت دار بنى بياضة، تلقاه زياد بن لبيد، وفروة بن عمرو، فى رجال من بنى بياضة، فقالوا: يا رسول الله: هلم إلينا، إلى العدد والعدة والمنعة، قال: خلوا سبيلها فإنها مأمورة، فخلوا سبيلها، فانطلقت حتى إذا مرت بدار بنى ساعدة، اعترضه سعد بن عبادة، والمنذر ابن عمرو فى رجال من بنى ساعدة، فقالوا: يارسول الله هلم إلى العدد والعدة والمنعة، قال: خلوا سبيلها فإنها مأمورة، فخلوا سبيلها، حتى إذا وازنت دار بنى الحارث بن الخزرج اعترضه سعد بن الربيع وخارجة بن زيد وعبد الله بن رواحة فى رجال من بنى الحارث بن الخزرج، فقالوا: يارسول الله هلم إلينا إلى العدة والعدد والمنعة، قال: خلوا سبيلها، فإنها مأمورة، فخلوا سبيلها.

فانطلقت حتى إذا مرت بدار بنى عدى بن النجار وهم أخواله لأم عبد المطلب، سلمى بنت عمرو، إحدى نسائهم - اعترضه سليط بن قيس وأبو سليط أسيرة ابن أبى خارجة، فى رجال من بنى عدى بن النجار. فقالوا: يارسول الله ﷺ هلم إلى أخوالك، إلى العدد والعدة والمنعة، قال: خلوا سبيلها فإنها مأمورة، فخلوا سبيلها، فانطلقت. حتى إذا أتت دار بنى مالك بن النجار، بركت على مسجده (ولعل ما ينبغى أن يقال: وبركت فى المكان الذى سيكون فيه باب المسجد)، وهو يومئذ مربد (أى موضع يجفف فيه التمر) بغلامين يتيمين من بنى النجار، ثم من بنى مالك بن النجار، وهما فى حجر معاذ بن عفراء، سهل وسهيل بن عمرو.

فلما بركت، ورسول الله ﷺ عليها لم ينزل، وثبت فسارت غير بعيد، ورسول الله ﷺ واضع لها زمامها لايثنيها به، ثم التفتت إلى خلفها، فرجعت إلى مبركها أول مرة، فبركت فيه، ثم تحلحلت (أى لزمت مكانها ولم تبرحه)،

وزمت ووضعت جرانها (أى ما يصيب الأرض من صدر الناقة). فنزل عنها رسول الله ﷺ، فاحتمل أبو أيوب خالد بن زيد رحله، فوضعه فى بيته، ونزل عليه رسول الله ﷺ، وسأل عن المربد لمن هو؟ فقال له معاذ بن عفراء: هو يارسول الله لسهل وسيهل ابنى عمرو (ابنا رافع بن عمرو بن أبى عمرو بن عبيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار). وهما يتيمان لى، وسأرضيهما عنه فاتخذه مسجداً.

* * *

ومن قبل استقصاء بقية الأماكن المشهورة داخل يثرب، وكل ما يتعلق بهذا المكان الجديد الذى اختارته عناية الله لرسوله صلى الله عليه وسلم كى يقيم فيه، ويقيم به مسجده النبوى الشريف، رأينا من الواجب الوقوف ولو للحظات أمام قصة هذا الاختيار الربانى، والذى قضت حكمته تعالى أن يجعل الناقة الشريفة القصواء بما كانت تؤمر به من أن تختار ذلك المكان.

ولو أعدنا قراءة تفاصيل تلك الخطوات السابق الإشارة إليها، منذ أن ترك رسولنا الكريم ﷺ قرية قباء وحتى وصوله إلى أرض هذا المربد.. سوف نكتشف العشرات من المعانى السامية.. والتى استطعنا أن نحصرها فى ثلاثة أمور: الأول: أن الله تعالى بهذا الاختيار قد أراد تكريم نبيه الكريم فى بلد المهجر، التى لم يكن له فيها من سند عائلى، سوى قلة من المهاجرين، الذين اصطحبوه أو سبقوه إلى بلاد الأنصار.. هذ التكريم اتضح فى اختيار الله تعالى لأرض هذين اليتيمين؛ لكى تكون أرضاً مباركة تشرف بإقامة الرسول وزوجاته ثم مسجده النبوى العظيم، تقديراً من العلى القدير للأيتام والحض على الرأفة بهم، وذلك من قبل أن تنزل الآيات التى حضت على هذا الأمر، ثم تكريماً للرسول ﷺ الذى ولد يتيم الأب وكذلك الأم.

أما الأمر الثانى: فهو اختيار رب العالمين لأرض فضاء تابعة لأحد أبناء أخوال أبوه عبدالله.. أو لأحد من الأسر أو العائلات التى كانت تنتمى لقبيلة بني

النجار، الذين استضافوا والد النبى الكريم، بل ودفن فى أرضهم. . وهذا نعتبره نوعاً من التكريم أيضا، رزقه به الله تعالى، وأعز به وجوده فى أرض المهجر الجديدة.

وثالث هذه الأمور: هو أن الله تعالى لم يشأ بما يعلمه من عباده أن يجعل هناك نوعاً من التفرقة بين قبائل العرب وبطونها من الذين كانوا يسكنون يثرب آنذاك. . من حيث تقدير الرسول لهم إذ لو اختار الرسول ﷺ أن يقيم عند أحد من هؤلاء من دون غيرهم، لحدثت هذه التفرقة. . وزاد الخصام بين تلك القبائل التى كانت تعيش أغلبها فى خصام ونزاع دائم امتد لأزمنة طويلة، وكلنا نعرف ما كان بين قبيلتى الأوس والخزرج من نزاعات، لم يحسمها إلا الإسلام وسماحته.

أضف إلى ذلك ما كان بين العرب وبين يهود يثرب فى الوقت نفسه، وما كان لرسولنا العظيم ﷺ بما حمله فى قلبه وفى صدره من حب وسماحة وطيبة قلب أن يسمح بأن يحدث كل ذلك، وهو قد جاء لكى يكون رحمة للعالمين، وما كان لهذا النبى ﷺ أن يقترف مثل ذلك. . وهو الرجل القائد القادم برسالة رب العالمين، لكى ينشرها على الناس جميعاً.

وفى ذلك، فقد صدقت هذه العبارة التى كان يرددها رسول الله ﷺ عندما كانوا يشيرون عليه بأن يقيم عند أحدهم، وهو يقول دائما: «خلوا سبيلها، فإنها مأمورة». .

ولقد رأينا من قبل أنه عليه الصلاة والسلام. . قد رفض أيضا أن يقيم عند أحد من بطون قبيلة بنى النجار أخوال والده عبدالله.

* * *

وبعد أن استقر الاختيار على أرض هذين اليتيمين. . بدأت الخطوات التنفيذية لاقامة مجتمع المدينة الجديد، الذى أصبح مركزه مسجد الرسول وبعض حجرات أقام بها وزوجاته، والذى تحول مع مرور الأيام إلى مركز لعاصمة الإسلام الأولى. . إذ حرص كل المسلمين من المهاجرين والأنصار على إقامة مساكنهم حول بيوت الرسول ﷺ وحول مسجده الشريف.

وكانت أولى بدايات هذه التنفيذ.. هو البحث من مكان يقيم به رسولنا الكريم ﷺ لحين بناء بيته داخل هذه الأرض، وبالقرب من مسجده.. وقد مر علينا آنفا أن أبى أيوب هو الذى تقدم، وحمل عن رسولنا ﷺ رحاله من فوق ناقته القصواء بعدما بركت فى أرض سهل وسهيل.

وكان ذلك علامة رضى من الرسول بأنه سوف يقيم ولو لأيام قليلة.. فى بيت هذا الأنصارى.. حتى تنتهى أعمال إنشاء وإقامة داره الجديدة.

واختلف الرواة فى المدة التى أقام خلالها رسولنا ﷺ فى بيت أبى أيوب.. فقال الواقدى: سبعة أشهر، وقال غيره أقل من شهر.. وقال ابن كثير.. والله أعلم، ومما لا شك فيه أن دار أبى أيوب الأنصارى التى أقام بها محمد عليه الصلاة والسلام كانت قريبة من هذه الأرض الفضاء، التى تم اختيارها لمنازل الرسول ﷺ وزوجاته وبناء مسجده عليه السلام، وذلك حتى يتمكن النبى ﷺ من الإشراف، بل والمشاركة فى هذا البناء، حيث تروى كتب السيرة.. أن كل المهاجرين والأنصار قد ساهموا فى هذا البناء وكان فى مقدمتهم الرسول الكريم ﷺ.

ودليل ما سبق وقلناه عن قرب هذه الدار التى نزل بها رسول الله ﷺ من هذه الأرض الفضاء.. ما ذكرته الدكتورة سعاد ماهر منقولاً من أكثر من مصدر من مصادر السنة النبوية الشريفة وتاريخها، حين قالت: «وجاء أبو أيوب والقوم يكلمونه - أى النبى ﷺ - فى النزول عليهم فأخذ رحله فأدخله، فنظر رسول الله ﷺ إلى رحله وقد حط فقال: المرء مع رحله، على أن الرسول ﷺ لم ينزل حين بركت ثم بثت فسارت غير بعيد، ثم التفتت خلفها فرجعت إلى مبركها الأول، فنزل آنذاك رسول الله ﷺ فقال: أى الدور أقرب؟! فقال أبو أيوب دارى وهذا بابى، وقد حططنا رحلك فيها، فقال: المرء مع رحله.

وفى رواية أخرى قالت د. سعاد ماهر عن السياق نفسه: وروى ابن زبالة أنها أى الناقة لما بركت بباب أبى أيوب جعل رسول الله ﷺ يريد أن ينزل فتحللها «أى

تحركت»، فيطيف حولها أبو أيوب فيجد جبار بن صخر أخا بنى سلمة ينخسها برجله، فقال أبو أيوب: يا جبار عن منزلى تنخسها، أما والذى بعثه بالحق لولا الإسلام لضربتك بالسيف، فنزل رسول الله ﷺ فى منزل أبى أيوب، وقر قراره واطمأنت داره ونزل معه زيد بن حارثة(١).

كما أكدت الدكتورة سعاد ماهر أيضا على ما سبق وأكدنا عليه من قبل.. بشأن هداية الله للناقة القصواء.. حيث اختارت ما أملى عليها.. ويبدو ذلك فى قولها: «.. وهكذا نرى أن الاختيار بالنسبة لمكان المسجد وموضعه لم يكن لأحد فيه رأى، إنما تم بناء على إلهامات ربانية، وهو حيث بركة ناقة رسول الله ﷺ.»

* * *

إذًا وفقا للترتيب العام للأماكن المشهورة التى ارتبطت بحياة محمد عليه الصلاة والسلام فى يثرب أو المدينة المنورة، يحتل المسجد النبوى، وما كان حوله من بيوت خاصة للنبى الكريم ﷺ أقام بها وهو وزوجاته.. الرقم الخامس بعد كل من منزل كلثوم بن هدم الذى نزل عنده رسولنا الكريم ﷺ حين دخوله قرية قباء.. ثم مسجد قباء، ومسجد الجمعة، وهو المكان الذى أقيمت فيه أول صلاة جمعة فى بطن أحد وديان المدينة.. ورابعا بيت أبى أيوب الأنصارى.

ومما لاحظناه فى كل التاريخ الإسلامى وكتب السيرة النبوية.. أن هناك من المؤرخين الذين توسعوا كثيراً فى ذكر وقائع ما اتصل بأصحاب المربد، الذى اختارته ناقة رسول الله ﷺ بإمارة من السماء، وكل ما يعنينا من هذه الروايات هو الوقوف على طبيعة ذلك المكان.. من قبل أن تبدأ فيه حركة البناء التى أثمرت عن إقامة مسجد رسول الله ﷺ.. وهو المسجد النبوى الشريف.

وما نود أن نشير إليه كذلك فى هذا الموضع.. هو أن رسولنا ﷺ قد اشترى هذه الأرض من الغلامين اليتمين بعشرة دنانير ذهب دفعها أبوبكر الصديق من ماله الخاص، الذى جلب بعضه معه بعد الهجرة.

---

(١) مساجد فى السيرة النبوية - مصدر سابق.

ولما أخذ الرسول الكريم ﷺ هذه الأرض، على قول الاجماع، كان فيها نخل وقبور للمشركين، فأمر بالنخل فقطع، وبقبور المشركين فنبشت، وقد صفوا النخيل قبلة له.

وجاء فى الصحيح على قول ابن كثير: كان مسجد رسول الله على عهد ﷺ مبنياً باللبن وسقفه جريد وعُمده خشب النخل، كما كان فى جوف الأرض، قبور جاهلية فأمر الرسول ﷺ بالقبور فنبشت فرمى عظامها.. وكان بالمربد ماء مستنجل - أى قليل - فسيره حتى ذهب.

ويصف لنا ابن سعد فى طبقاته كيف تم بناء المسجد النبوى فى أول عهده، وكذلك من عمل به من المتخصصين فى طرق البناء بالطمى واللبن فقال: وجاء رجل يحسن عجن الطين وكان من حضر موت، فقال رسول الله ﷺ، رحم الله أمرأ أحسن صنعته، وقال له: إلزم أنت هذا الشغل فإنى أراك تحسنه.

وتؤكد كل كتب السنة أن النبى الكريم ﷺ قد ساهم بيده الشريفة فى بناء مسجده إلى جانب أصحابه، وكان ينقل الحجارة بنفسه حتى يرّغب المسلمون فى العمل، فعمل معه المهاجرين والأنصار ودأبوا فى العمل.

ويقول السمهودى أنه أساسه بنى من الحجارة، ثم رفعت الجدران بعد ذلك باللبن، ولم يكن للمسجد فى بداية الأمر سقف، فشكا المسلمون إلى رسول الله ﷺ فأمر بعمل ظلة من ثلاثة صفوف من الأساطين.

وقد جعلت قبلة هذا المسجد تجاه بيت المقدس فى حجارة منضودة بعضها على بعض، وجعلت حيطانه باللبن وعمده من جذوع النخل، وقد ظلت القبلة فى اتجاه بيت المقدس قرابة سبعة أشهر، ثم حولت إلى الكعبة قبل غزوة بدر بشهرين، حينما نزلت الآية الكريمة فى قوله تعالى: ﴿**قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ**﴾ [البقرة الآية ١٤٤][١].

(١) المسجد النبوى بالمدينة المنورة ورسومه فى الفن الإسلامى، د. أحمد رجب محمد.

وتضيف المصادر أن رسولنا الكريم ﷺ كان قد ألحق بالمسجد بيتين لزوجتيه عائشة وسودة رضي الله عنهما على بناء المسجد نفسه، من لبن وجريد النخيل، ولما تزوج رسول الله ﷺ بعد ذلك بأخريات بنى لنسائه حجراً وهى تسعة بيوت، اختلف الرواة فى تحديد مكانها.

وعلى أصدق الروايات كانت هذه المساكن فى شرق المسجد، وقد أدخلت جميعها على مر السنين داخل حرم المسجد النبوى، حتى صارت جزءاً من بناء هذا المسجد.

وبعد سبع سنوات ضاق المسجد على المصلين فعزم رسول الله ﷺ على زيادة مساحته.. حيث كانت هناك قطعة أرض فضاء بجانب المسجد، فاشتراها عثمان ابن عفان، وتم توسعة المسجد بها من ثلاث جهات.

وقد قام عدد من علماء الآثار بعمل رسوم تخطيطية للمسجد النبوى فى عهد الرسول ﷺ، ومن هؤلاء العلماء كريسويل وبوتى ومحمود عكوش، ولكن على حد قول الدكتور أحمد رجب تبين أنها جميعا بها أخطاء، ويستنتج الدكتور رجب أنه من خلال استعراض لكل ما خطط من جانب علماء الآثار بالنسبة لمسجد الرسول ﷺ اتضح أن مساحته الأولى كانت ستين ذراعاً فى سبعين، كما كان المسجد يشتمل على ظلة قبلة بها ثلاثة صفوف من الأروقة، وكان بكل صف منها فى المسجد الأول ست سوارى من جذوع النخيل، ثم أصبحت تسع سوارى بعد زيارة المسجد سنة ٧ هـ، وكان للمسجد ثلاثة أبواب، الأول فى مؤخرته وباب فى الجهة الشرقية وباب فى الجهة الجنوبية.

ولقد أخذ المؤرخون يحدثوننا عن التطور العمرانى الذى لحق بالمسجد النبوى.. بعد رحيله عليه الصلاة والسلام.. وأهم الإضافات والتعديلات، التى أجريت عليه حتى وصل إلى شكله ومساحته الحالية.

وقد بدأت هذه الإضافات والتعديلات وفق الإجماع فى عهد عمر بن الخطاب،

رضى الله عنه، الذى زاد فى مساحته وأعاد عمده خشباً. . ثم غيره عثمان بن عفان فزاد فيه زيادة كبيرة، وبنى جدرانه بالحجارة المنقوشة، وجعل أعمدته من حجارة منقوشة وسقفه بالساج. كما زاد فى عدد أبوابه فأصبح هناك باب للنساء وباب مروان، أى الباب المعروف الآن بباب السلام، والباب الذى يقال له باب النبى ﷺ أى المعروف بباب جبريل وبابين فى مؤخرة المسجد.

كما أُحدث بالمسجد المقصورة التى بناها مروان بن عبد الحكم، والذى يرجع إليه الفضل أيضاً وفق الإجماع فى إدخال حجرات أزواج النبى ﷺ إلى ساحة المسجد.

إلا أن هناك روايات أخرى تؤكد أن حُجر أزواج النبى ﷺ قد أدخلت إلى ساحة المسجد بأمر الوليد بن عبد الملك، وتنقل إلينا الدكتورة سعاد ماهر فيما روته عن المسجد النبوى رؤية شاهد عيان عاصر إدخال هذه الحجرات إلى المسجد. . وهو ما صرح به عطاء الخرسانى، الذى قال: «أدركت حُجرات أزواج النبى من جريد على أبوابها المسوح من شعر أسود، فحضرت كتاب الوليد بن عبد الملك يُقرأ بإدخال حُجر أزواج النبى ﷺ، فما رأيت يوماً كان فيه أهل المدينة باكياً من ذلك اليوم».

وجاء عصر عمر بن عبد العزيز، الذى هدم كذلك الدور الملاصقة للمسجد النبوى من جهاته الثلاثة، وأدخلها فى ساحة المسجد، ومن أهم هذه الدور دار عبدالرحمن بن عوف ودار عبد الله بن مسعود، التى يقال لها دار الشعراء، كما أدخلت أبيات هاشم بن عتبة بن أبى وقاص، ومن الجهة الغربية أدخل داراً كانت لطلحة بن عبيد الله، وداراً لعمار بن ياسر، كذلك أدخل بعض دور العباس ابن عبد المطلب.

ولقد ظل خلفاء المسلمين بعد ذلك يهتمون اهتماماً بالغاً بتجديد عمارة المسجد النبوى. . كما اهتم عدد كبير من الملوك والأمراء بإصلاح وعمارة المسجد وزينته وزخرفته.

ويؤكد كتاب «هذه بلادنا» الذى يتحدث عن الأماكن المقدسة بالمملكة العربية السعودية فى العصر الحديث.. أن عمارة السلطان العثمانى عبد المجيد الثانى، والتى تمت فى ١٢٦٥هـ.. كانت من أجمل عمارات المسجد وتوسعاته، ويرجع إليه الفضل فى طلاء قبة الروضة الشريفة باللون الأخضر، لذلك فقد تم الإبقاء على جزء كبير منها، عند تنفيذ المراحل الأولى من التوسعات السعودية.

وقد ظل المسجد النبوى على حاله هكذا لأكثر من مائة عام.. إلى أن جاء عصر الملك عبد العزيز آل سعود وأولاده من بعده.. الذين تولوا رعاية وتوسعة وصيانة المسجد النبوى الشريف، سواء فى عهد الملك فيصل آل سعود أو الملك خالد، أو عصر خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز، والذى بلغت مساحة المسجد النبوى الشريف فى عصره ١٦,٥٠٠ متر مربع، ثم إلى ١٦٥,٠٠ متر مربع وهى مساحته الحالية، وقد وضع حجر أساس هذا المشروع العملاق فى شهر المحرم من عام ١٤٠٦هـ.

* * *

ووفقا لترتيب مراحل حياة محمد عليه الصلاة والسلام.. عندما قدم المدينة التى أشرقت بنوره ونور القرآن الكريم.. فقد رأينا أن هناك مكانين قد أتى ترتيبهما فى مسيرة حياة الرسول بعد استقرار الأوضاع الإيمانية والأمنية، فور الانتهاء من بناء المسجد النبوى، وما كان حوله من ديار المهاجرين والأنصار وهما.. مسجدى القبلتين، والضرار.

ولما كان هناك كلام كثير عنهما فى السيرة النبوية وتاريخ الدعوة الإسلامية.. إضافة إلى ارتباطهما بالأماكن المشهورة فى يثرب.. فقد وجب علينا الوقوف عند أطرافها لتجاذب الحديث عنهما وفق ما نقلته هذه الكتب وهذه المصادر.

أما بالنسبة للحديث عن مسجد القبلتين.. فقد لاحظنا وجود بعض الخلافات بين بعض المؤرخين حول تحديد هذا المسجد بالذات! فقد ذكر فريق من هؤلاء أنه عندما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً،

وكان يحب أن يصرف إلى الكعبة لما بلغه أن اليهود قالوا: يخالفنا محمد ويتبع قبلتنا.

وجعل إذا صلى إلى بيت المقدس، يرفع رأسه إلى السماء، فنزلت عليه: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ [البقرة الآية ١٤٤]، فوجه إلى الكعبة.

ويقال إن الرسول ﷺ، كان قد صلى ركعتين من الظهر فى مسجده، ثم أمر أن يتوجه إلى المسجد الحرام فاستدار ومعه المسلمون.

بل ويقال إن رسول الله ﷺ قد زار أم بشر بن البراء بن معروف فى بنى سلمة فصنعت له طعاماً وحانت صلاة الظهر فصلى رسول الله ﷺ بأصحابه ركعتين، ثم أُمر أن يتوجه بصلاته إلى الكعبة واستقبل الميزاب. فسمى هذا الموضع مسجد القبلتين، وذلك يوم الاثنين للنصف من رجب على رأس ثمانية عشر شهراً، وقال جمهور آخر من العلماء والمؤرخين إنما صرفت فى النصف من شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من الهجرة.

وتؤكد الدكتورة سعاد ماهر فى كتابها عن مساجد السيرة النبوية على القول الأخير حيث تؤيده. ويبدو ذلك واضحاً من قولها عن مسجد القبلتين: «وهو فى الشمال الغربى للمدينة فى رابية على شفير وادى العقيق الصغير، والمسافة بينه وبين بئر رومة المسمى «ببئر عثمان بن عفان» رضى الله عنه التى فى شمال المسجد مسيرة خمس عشرة دقيقة، ولم يبق منه إلا جدرانه.. وتم تجديده لأول مرة على يد شاهين الجمال عام ٨٩٣هـ».

ثم جدده السلطان سليمان فى ٩٥٠هـ، وقد سمى مسجد القبلتين لما رواه يحيى بن عثمان محمد بن الأخنس، قال: زار رسول الله ﷺ أم بشر بن البراء فى بنى سلمة، فصنعت له طعاماً فأكل هو وصحبه، ثم حانت صلاة الظهر فصلاها بأصحابه فى مسجد القبلتين، ولما آن صلى ركعتين منها أُمر أن يتوجه إلى الكعبة فاستدار هو وأصحابه.

ليس هذا فقط، بل وهناك من المؤرخين من يطلق على مسجد قباء أيضا مسجد القبلتين!، لما روى فى الصحيحين عن ابن عمر، قال: بينما نحن فى صلاة الصبح بقباء جاءنا رجل، فقال: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه قرآن، وقد أُمر أن يستقبل الكعبة.. ألا فاستقبلوها، وكانت قبلة الناس إلى الشام، فاستداروا وتوجهوا إلى الكعبة، وقد قدمت لنا الدكتورة سعاد ماهر وصفا معمارياً دقيقاً لمسجد القبلتين .. المقام فى بنى سلمة، والواقع فى الطرف الجنوبى للمدينة المنورة.

* * *

وأما البقعة الثانية أو المكان الثانى الذى ارتبط برحلة المساجد فى الإسلام، والتى زارها رسولنا ﷺ.. وبالتالى أصبحت من الأماكن المشهورة رغم وصفه بأنه مسجد ضرار كما جاء بالقرآن الكريم..

وتعود قصة هذا المسجد كمكان مشهور فى تاريخ السيرة النبوية.. لما انضوى عليه من نوايا سيئة بات عليها أصحابه من دون علم رسول الله.. وهم جماعة من المنافقين الذين قرروا أن يقيموا مسجداً، يحاولون فيه تحريف كلام الله وإحداث الفرقة بين المسلمين.. فى منطقة كانت تدعى «ذى أوان» على مسافة نحو ساعة من المدينة.

ولما انتهوا من بناء المسجد الضرار، دعوا رسول الله ﷺ لافتتاحه والصلاة فيه.. ويقال إن طلبهم هذا كان قبل معركة تبوك! فاستمهلهم النبى الكريم حتى يعود من هذه المعركة.

ولما عاد عرف أمر ما فى هذا المسجد من مؤامرات، أرشده إليها رب العالمين، فأمر المسلمين بإحراقه، وقد جاء ذكره فى القرآن الكريم.

ويقال إن هذا المسجد كان فى ناحية قباء.. حيث أقامه المنافقون مضاهاة لهذا المسجد لإضرار المسلمين وتفريق كلمتهم!.

ومما ذكره القرآن لكريم فى شأن هذا المسجد الملعون، قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ

اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ [التوبة الآيات ١٠٧-١٠٨].

* * *

ووفقا للترتيب السابق فيما يخص الأماكن المشهورة لمحمد عليه الصلاة والسلام أثناء إقامته بالمدينة المنورة.. تجئ منطقة البقيع فى المرتبة التالية من حيث الأهمية، ومن حيث المكانة التى كان يوليها رسول الله ﷺ لهذه الأماكن.. إذ كان يزور البقيع دوماً للترحم على شهداء المسلمين؛ خاصة فى معركتى بدر وأحد. وكذلك كان يزورها للترحم على آل بيته وأولاده.

وهناك عديد من الأحاديث النبوية المشهورة، التى رويت بشأن البقيع وتكرار زيارة محمد على الصلاة والسلام لها ودعائه لأهل البقيع بالرحمة والمغفرة.

فعن عبدالله بن عمرو عن «أبى مويهبة» مولى رسول الله ﷺ قال: «قال لى رسول الله ﷺ: إنى قد أُمرت أن أستغفر لأهل البقيع، فانطلق معى، فانطلقت معه فى جوف الليل، فلما وقف عليهم قال: السلام عليكم يا أهل المقابر ليهنكم ما أصبحتم فيه مما أصبح فيه الناس، أقبلت الفتن لقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها، الآخرة أشد من الأولى، ثم أقبل علىّ فقال: يا أبا مويهبة إنى قد أوتيت بمفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة، فخيرت بين ذلك.. وبين لقاء ربى، قلت: بأبى أنت وأمى خذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة قال: لا والله يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربى، ثم استغفر لأهل البقيع، ثم انصرف، فبدئ رسول الله ﷺ فى وجعه الذى مات فيه».

وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يخرج من آخر الليل إلى البقيع فيقول: السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وآتاكم ما توعدون غداً مؤجلون، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، اللهم اغفر لأهل البقيع».

* * *

والبقيع فى اللغة كما جاء فى دائرة سفير للمعارف الإسلامية: يعنى المكان المتسع، وكل ناحية أو فضاء من الأرض، كما يطلق على الموضع الذى فيه أصول الشجر من أنواع شتى.

أما البقيع فى الاصطلاح فيطلق عليه عدة أمكنة معروفة بالمدينة المنورة.. منها بقيع المصلى، وهو موضع سوق المدينة المجاور للمصلى، ويوجد عند دار زيد ابن ثابت رضى الله عنه، وقد دخل فى حرم المسجد النبوى.. وبقيع الزبير، الذى أقطعه إياه الرسول ﷺ، وبقيع بطحان، وهو ينسب إلى واد من أشهر أودية المدينة، ولايزال معروفاً حتى الآن، ثم بقيع الغرقد.. وهو مقبرة أهل المدينة المنورة.. ووجهتنا فوق هذه الأوراق، وقد سمى بذلك لأنه كان فى الأصل من قبل قدوم محمد عليه الصلاة والسلام منبت شجر الغرقد، وهو نوع من الأشجار التى لها شوك.. وكان يملأ هذا المكان المواجه للمكان الذى اختاره الرسول ﷺ لإقامة مسجده الشريف.

وقد أمر الرسول الكريم ﷺ بإزالة ما فيه من أشجار شوك وتسوية المكان، وإزالة ما به من صخور ونباتات برية.. وأنشأ فيه مدفن أهل المدينة، وهو يقع الآن فى الجهة الجنوبية الشرقية للمسجد النبوى.. وفى الجهة الشرقية للمدينة المنورة، وهو يضم رفات الكثير من أهل بيت النبوة والصحابة، رضوان الله عليهم والتابعين والأئمة المشهورين.

ويؤكد الدكتور عبدالعزيز غنيم.. أن أول من سكن مقبرة البقيع من المهاجرين هو عثمان بن مظعون، الذى مات بعد أن شهد غزوة بدر، وقد بكاه الرسول لقوة إيمانه ورسوخ يقينه، وكان لذلك كلما قبض واحد من أهله وذريته، وأدناه القوم من شفير قبره، قال له: إلحق بالسلف الصالح، بعثمان بن مظعون، هكذا قال عليه الصلاة والسلام لابنته زينب ولابنه إبراهيم رضوان الله عليهما.

أما سعد بن زرارة فكان أول من سكن البقيع، من الأنصار، ويوم أن مات ودعه رسول الله ﷺ إلى قبره، وقرأ على روحه الآية الكريمة ﴿ **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ**

الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[1] [الفجر الآيات ٢٧-٢٨-٢٩-٣٠].

وهناك العشرات من غير هذين الصحابيين الذين دفنا فى البقيع من أهل البيت والصحابة والعلماء والمحدثين.

هذا.. وقد أدخلت على منطقة البقيع عدة توسعات وتجديدات على مر الأزمنة، حيث أضيفت إليها منطقة «حوش كوكبى»، وهى بستان يقع بالقرب من البقيع اشتراه عثمان بن عفان ودفن فيه، ثم اشترى الخليفة عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه من زيد بن على وأخته داراً لهما بالبقيع، فهدمها وأدخلها إلى البقيع.

ثم قامت المملكة العربية السعودية ببعض التعديلات والتجديدات، فبنت إستراحات للحفارين وحفظ آلاتهم.. كما أنشأت طرقاً أسمنتية لسهولة المرور عليها أيام الأمطار، كما أحاطت مقبرة البقيع حاليا بسور عال كبير.. وجعلت للمقبرة بوابة كبيرة، تطل على المسجد النبوى فى اتجاه مدخله الرئيسى من ناحية الجزء الأصلى للمسجد والقريب من مدفنه الشريف.

* * *

ويتبقى لنا من حديث الأماكن المشهورة فى حياة محمد ﷺ أثناء إقامته بالمدينة المنورة.. ما ذُكر بشأن السرايا والغزوات، التى وقعت إما داخل المدينة أو يثرب أو بالقرب منها أو فى المنطقة المحيطة بها جغرافيا.

وقد حفلت كل كتب السيرة النبوية بهذه المعارك والغزوات، بل إن هناك كتباً بعينها قد خصصها أصحابها للحديث عن غزوات ومعارك الرسول ﷺ، سواء فى المدينة أو فى خارجها أو فى أماكن أخرى، وارتبطت كلها بمرحلة مهمة من مراحل الدعوة الإسلامية ونشر دين الله.

وقد استطعنا حصر هذه الغزوات فى ثلاث معارك رئيسية، دارت رحاها بداخل المدينة أو حولها.. وهى بدر وأحد والخندق.

---

(١) الرسول فى المدينة المنورة - د. عبدالعزيز غنيم.

بخلاف ذلك كانت هناك معارك أخرى، ولكنها لم تصل إلى مستوى هذه المعارك الثلاثة سواء من حيث العدة أو العتاد أو النتائج. . ولذلك فإن الكثير من المؤرخين يعتبرونها مجرد مناوشات عسكرية، كان الهدف منها اكتشاف إمكانيات الخصم، والوقوف على نقاط الضعف والقوة فيه.

ولسوف نحاول جاهدين ونحن نستعرض هذه المغازى أن نلتزم بنص التاريخ فيما ذكره من ترتيب زمنى لوقوعها. . سواء ما كان منها قبل غزوة بدر أو أحد أو الخندق أو من بعدهم، أو فيما بينهم.

وما نريد التنويه عنه من قبل الارتماء فى أحضان أوراق التاريخ والسيرة النبوية لمعرفة تفاصيل هذه المغازى، هو أن ذكرنا لها ليس المقصود منه تكرار سرد ما سبق أن قاله عنها الآخرون. . بل إن هدفه فى الأساس هو بيان الأماكن، التى وقعت بها هذه المعارك باعتبارها تدخل فى نطاق حديث هذه الأوراق.

لذلك سوف يكون ذكرنا لها قائم على الاختصار، وبيان المفيد؛ خاصة وأن عدد هذه الغزوات التى قادها الرسول ﷺ بلغت سبعة وعشرين غزوة.

***

وبداية هذا الحديث وفق الترتيب الزمنى لوقوع هذه المغازى لابد وأن يكون من غزوة «ودان»، التى تسمى كذلك بغزوة الأبواء. . وكانت فى صفر سنة اثنتين من الهجرة، على رأس اثنى عشر شهراً من مقدم رسول الله إلى المدينة.

ولقد سبق ومر علينا. . ما كان من أمر الأبواء وموقعها، عندما تحدثنا عن أم النبى الكريم ﷺ السيدة آمنة التى دفنت فى هذا الموضع، وفى هذه الغزوة خرج النبى ﷺ من المدينة غازياً، مستعملاً عليها سعد بن عبادة.

و«ودان» كما فى كتب الجغرافيا هى قرية من نواحى الفرع بين مكة والمدينة، وتعتبر من أولى الغزوات العسكرية، التى قادها محمد عليه الصلاة والسلام بنفسه، وقد وقعت فى أقوال أخرى فى ربيع الآخر إلى تمام عام مقدمه إلى المدينة

مستعملاً عليها السائب بن عثمان بن مظعون، حتى بلغ بواط من ناحية رضوى، ثم رجع إلى المدينة دون حرب.

«وبواط» هذه موقعها فى جهينة قرب ينبع وهى منطقة جبلية، وكان الرسول فى مائتين من أصحابه يطلب عير قريش وفيها أمية ابن خلف، ولما رجع رسول الله إلى المدينة أقام بها بقية ربيع الآخر وبعض جمادى الأولى، ثم خرج فى غزوة العشيرة فى مائة وخمسين، ويقال مائتين من المهاجرين يعترض عيراً لقريش، واستخلف على المدينة أبا سلمة بن عبدالأسد، وأقام هناك عدة ليال من جماد الأخرة ووادع فيها بن مُدلج، ثم رجع إلى المدينة دون حرب.

هذه المناوشات الثلاث.. كانت المقدمة الكبرى لأهم وأشهر حرب فى تاريخ الدعوة الإسلامية وهى غزوة بدر الكبرى.. والتى وقعت لسبع عشرة ليلة من رمضان فى السنة الأولى من الهجرة، وقد سبقها أيضاً ما أسماه المؤرخون بغزوة بدر الصغرى التى وقعت فى شهر ربيع الأول.. والتى يسمونها أحيانا بغزوة سفدان وهى منطقة ناحية بدر، وذكر ابن إسحاق أن هذه الغزوة حدثت بعد غزوة العشيرة بعشرة أيام.

* * *

وفى «غزوة بدر الكبرى».. كانت هناك ثلاثة أماكن مشهورة، ارتبطت برسول الله ﷺ ووجوده بأرض المعركة.. المكان الأول: بالقرب من بئر ماء بدر بعدما أشار عليه النزول بالقرب منها الحباب بن المنذر.. وكان رسولنا الكريم أول ما نزل بعد وصوله أرض بدر بأدنى ماء من بدر.

وهناك أمر رسول الله ﷺ ببناء حوض يملأ بالماء من هذه البئر ليشرب منه المسلمون ويمنع منه المشركون، ثم مكان العريش الذى بُنى للرسول ﷺ على تل مشرف على ميدان القتال، بناء على مشورة سعد بن معاذ، فكان فيه رسول الله ﷺ ومعه صاحبه الصديق يحرسه.

هذا العريش وفق رؤية معظم المؤرخين قد لعب دوراً كبيراً فى سير المعركة، إذ

اتخذ منه رسول الله ﷺ مكاناً آمناً يصلى فيه ويبتهل إلى ربه أن ينصره، ويمده بجنود من السماء، وقد استجاب رب العالمين لهذا الرسول الصادق الأمين فيما دعى به إلى الله، فنزلت الملائكة لتحارب مع المسلمين ضد المشركين.

وكان الرسول الكريم ﷺ .. يدعو ربه قائلاً: «اللهم أنجز لى ما ودعتنى، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام، فلا تُعبد فى الأرض أبداً» وظل يدعو بهذا الدعاء حتى سقط عنه رداءه، فأخذه أبوبكر فرده على منكبه.

ولما التقى الجمعان.. أخذ رسولنا ﷺ وهو أمام هذا العريش حفنة من التراب والحصى، ورش بها قريشا فوسعتهم الرمية وعمتهم، وملأت أعينهم وأنوفهم وأفواههم.

أما المكان الثالث: فهو ذلك المكان الذى أمر رسولنا الكريم ﷺ بحفره كمقبرة جماعية لأهل الشرك.. وقد أخذ ينادى عليهم مذكراً إياهم بنصر الله وهزيمة الأعداء من المشركين.. وهو ما أطلق عليه اسم «القليب».

وكان أول من طرح فيه أمية بن خلف، ويقال إن الرسول ﷺ قد وقف على شفير هذا القليب بعد ثلاثة أيام من إلقائهم فيه، وكان ذلك ليلاً ومعه أصحابه.

ويقول شاهد عيان ذهب مؤخراً إلى ميدان معركة بدر.. إن هذا الميدان يقع على الطريق بين جدة ومكة، وهو واد ينقسم إلى قسمين أحدهما ترابى والثانى آخر صخرى ورملى.. ووادى بدر يقع بين جبلين أحدهما شرقى ويدعى «العدوة القصوى» وغربى ويدعى «العدوة الدنيا»، ويطل عليه من الجنوب جبل يدعى «الأسفل»، وكان فى هذا الوادى فى صدر الإسلام عدد من الينابيع، تتوقف حولها قوافل مكة فترتوى وتستريح[١].

* * *

ثم تتابعت بعد ذلك الغزوات الصغيرة، الأقل شأنا وأهمية من غزوة بدر..

---

(١) أحمد ﷺ - د. أمين الساعاتى.

والتى كانت فى الوقت نفسه مقدمة للغزوة الكبرى الثانية فى تاريخ الإسلام، وهى غزوة أحد.

فبعد غزوة بدر.. غزا الرسول الكريم ﷺ «بنو قينقاع»، وهم أحد أحبار اليهود بالمدينة.. وكانت هذه الغزوة قد وقعت فى النصف الثانى من شهر شوال من السنة الثانية للهجرة، وقد حاصرهم محمد عليه الصلاة والسلام لمدة ١٥ يوماً إلى هلال ذى القعدة، فنزلوا على حكمه وأمرهم بأن يجلوا عن المدينة، فلحقوا بأرض الشام، وفيها أخذ الرسول ﷺ من سلاحهم ثلاثة أسياف ودرعين، وكانوا من أوائل اليهود، الذين نقضوا ما بينهم وبين النبى من عهود.

وهناك من المؤرخين الذين يرون أن غزوتى «بن سليم» و«السويق» قد سبقتا غزوة «بنو قينقاع..» ومن هؤلاء ابن عبدالبر.. وآخرون.. وغزوة بن سليم التى كانت عند ماء يقال له الكدر.. وقد وصلها الرسول ﷺ بعد أن انصرف من بدر بسبعة أيام فقط.. لكنه رجع إلى المدينة دون حرب، بعد أن استخلف عليها سباع بن عرفطة الغفارى.

ثم كانت غزوة «السويق» فى مكان قريب من المدينة فى ذى الحجة من السنة الثانية للهجرة، وذلك عندما كان أبوسفيان بن حرب قد خرج من مكة سراً فى ثلاثين فارساً فى جبل من جبال المدينة، وبعث رجلاً أو رجلين من أصحابه وأمرهما أن يحرقا أدنى نخل يأتيانه من نخل المدينة ففعلا، وانطلق أبوسفيان راجعاً، فخرج رسول الله ﷺ حتى بلغ قرقرة الكدر، ففاته أبوسفيان، وركب المسلمون فى آثارهم، فأعجزوهم وتركوا أزوادهم وسويقاً كثيراً، يتخففون منها للنجاة، فأخذها المسلمون، فسميت غزوة أبى سفيان بغزوة السويق، ومعناها فى اللغة هو طعام من مدقوق القمح والشعير.

* * *

وفى يوم السبت الموافق ١٥ شوال فى العام الثالث للهجرة وقعت غزوة «أحد».. عند جبل أحد.. أحد جبال المدينة المشهور، وهو على ثلاثة أميال منها.

ومثلما كانت فى يوم بدر أماكن مشهورة ارتبطت بالرسول ﷺ، أيضا توجد أماكن مشهورة متعددة فى غزة أحد، وقد ارتبطت هى الأخرى بمسيرة محمد عليه السلام.. ومسيرة الدعوة الإسلامية فى هذا اليوم العصيب.

وأولى هذه الأماكن: مسجد قباء الذى كان فى هذه الفترة بمثابة القاعدة العسكرية التى يجتمع فيها القائد برجاله.. وفى هذا المسجد تلقى رسول الله ﷺ رسالة من عمه العباس، الذى كان يراقب تحركات جيش قريش واستعداداتهم العسكرية، وقد قرأ عليه الرسالة أبى بن كعب فأمره بالكتمان، وعاد رسول الله ﷺ مسرعاً إلى المدينة ليتبادل الرأى مع قادة المهاجرين والأنصار، وظلت المدينة من هذه اللحظة فى استنفار عام، لا يفارق رجالها السلاح حتى وهم فى الصلاة استعداداً للطوارىء[1].

كما قامت قوة حراسة خاصة من الأنصار تبيت أمام منزل رسول الله ﷺ.. فى الوقت الذى قامت فيه قوة أخرى تحرس مداخل المدينة؛ خوفاً من أن يؤخذوا على غرة.. إضافة إلى قيام الدوريات حول الطرق التى يحتمل أن يسلكها المشركون.

وثانى هذه الأماكن: مكان يقال له الشيخان، وهو تلان صغيران فى أطراف المدينة. حيث قام رسول الله فى هذه المنطقة باستعراض وتفقد الجيش الذى بلغ قوامه ألف رجل.

وفى هذا الموقع أيضاً أدركت المسلمين صلاة المغرب، وبعدها جاءت صلاة العشاء فقرر الرسول ﷺ المبيت فى الشيخان، وكانت ليلة السبت الموافق ١٥ شوال سنة ٣ هجرية، ثم تحرك الرسول وجيش المسلمين من منطقة الشيخان، ولما وصل إلى منطقة الشوط «وهو بستان يقع بين المدينة وأحد».. أدركته صلاة الصبح، فصلى فى الجيش وعليهم السلاح وعلى مشهد من العدو.

وعن طريق أحد الأدلة ويدعى أبو قميئة أخو بنى حارث بن الحارث سلك طريق آمن نحو جبل أحد، بحيث تحاشى المشركين الذين كانوا يعسكرون فى منطقة السبخة بوادى قناة، وذلك لكى يصل إلى أحد سفوح أُحُد الغربية. وفعلاً

(١) معركة أحد - د. محمد فتحى الشاعر.

وصل الرسول ﷺ وجيشه شرقاً حتى عبر وادى قناة، فوصل إلى طنف يقع فى سفوح أحد. . هذا الطنف مرتفع ومطل على وادى قناة الذى يرابط فيه المشركون.

وفى هذه المنطقة بالذات اتخذ جيش المسلمين تشكيل المعركة مستقبلاً المدينة وجاعلاً ظهره إلى جبل أحد، كما أصبح خلفه الوادى الذى يؤدى إلى قمم أحد، و كان جيش المشركين حاجزا بينه وبين المدينة.

أما المكان الأكثر شهرة فى معركة أحد. . بعد الجبل: فهو «قبة عينين»، أو ذلك الجبل قليل الارتفاع الذى تمركز فوقه رماة المسلمين، والذى كان تركهم أماكنهم فوق هذا الجبل بمثابة تغيير جذرى فى سير المعركة. . حيث نزلوا إلى أرض المعركة بعد شوط الانتصار الأول وأخذوا فى جمع الغنائم، غير عابئين بنصائح القائد العظيم رسول الله ﷺ، وقائد منطقة عينين عبدالله بن جبير، حيث بقى وحده فوق هذه القبة ومعه تسعة رماة فقط!! . . مما مكن المشركين بقيادة خالد بن الوليد من استعادة زمام الأمور وتنظيم جيش المشركين مرة أخرى، ثم هزيمة المسلمين وإصابة الرسول ﷺ فى هذه المعركة. . بعدها أخذ المشركون يقذفون المسلمين بالسهام والحجارة لقرب المسافة بين الفريقين المتحاربين!. حتى أن بعض المشركين رددوا كذباً مقتل رسول الله. . مما أثر كثيراً فى معنويات بقية جيش المسلمين، فبدأ بعضهم بالهرب نحو جبل أحد. . أو باتجاه المدينة.

ولما هدأت الأحوال ووجد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن طريقه أصبح أمنا، انسحب ومعه أصحابه باتجاه الوادى الذى يقع خلفه، وتسلق المنحدر الشديد الذى يبلغ ارتفاعه ٤٠٠ قدم، وفى شق من الصخور يشبه البريئة. . وقف رسول الله ينظر إلى ميدان المعركة، والممتد أمامه ولم يبق من بين الثلاثين مقاتلاً الذين صمدوا معه فى هذه المحنة سوى ١٤ رجلاً، معظمهم كانوا مصابين.

ومن هذا المكان المرتفع، أخذ رسول الله ﷺ يصبح بأعلى صوته مناديا المسلمين، وشاهد كعب بن مالك، وكان يملك صوتا قويا فتسلق صخرة كبيرة بالقرب من جبل أحد وصاح: «يا معرش المسلمين. . أبشروا هذا رسول الله» . . فأشار إليه رسول الله أن ينصت لغرض المحافظة على الكتمان، ومنع تكالب المشركين عليه فى هذا الوقت العصيب.

ثم أخذت قريش فى الانسحاب من أرض المعركة، وقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه لينزلوا معه إلى أرض المعركة لتفقد قتلى المسلمين؛ حيث استشهد منهم سبعين رجلاً. وقد أمر عليه الصلاة والسلام بدفنهم فكانوا يدفنون الاثنين والثلاثة فى قبر واحد..

* * *

وجاءت «غزوة الخندق» كأحدى الغزوات الرئيسية فى تاريخ الدعوة الإسلامية والمرتبطة كذلك بالمدينة المنورة من حيث المكان.. وقد سبقتها عدة مغازى أخرى. مثل غزوة «بنى النضير».. و«غزوة ذات الرقاع» و«غزوة بنى المصطلق من خزاعة» والتى ارتبطت بحديث الأفك. ثم كانت «غزوة الخندق».. وهى غزوة الأحزاب.. وكانت فى شوال.. وقيل فى ذى القعدة من السنه الخامسة من الهجرة.

فلما تجهزت قريش وجمعوا عبيدهم وأتباعهم حتى بلغوا ٤ ألاف رجل، وتلقتهم الأحزاب من بنى سعد وقزارة وأشجع وبنى مرة.. فكان جميع الأحزاب عشرة آلاف.. فى مقابل ٣ ألاف عدد المسلمين.

وقد أشار سلمان الفارسى بحفر الخندق حول المدينة و الذى شارك فى حفره الرسول صلى الله عليه وسلم إلى جانب بقية المسلمين من المهاجرين والأنصار. كما أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن كان معه من المسلمين قرابة عشرين ليلة أمام ذلك الخندق.. وأمام جيش المشركين. ولم يكن بينهم إلا رمى النبال والحصى. حتى بدأت المعركة بالمبارزة بين على بن أبى طالب وعمرو بن عبد ود، الذى لم يشارك فى جيش المشركين من قبل.

كما بعث الله عليهم بريح شديدة فرقت جمعهم، فعاودا من حيث آتوا. وعن ذلك يقول الله تعالى: « **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا** » [الأحزاب الآية ٩].

وذكر ابن اسحاق بأنه استشهد من المسلمين يوم الخندق ستة لاغير. ثلاثة من الأوس وثلاثة من الخزرج. أما عدد قتلى المشركين فثلاثة أيضا.


BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

٩ـ في خيبر

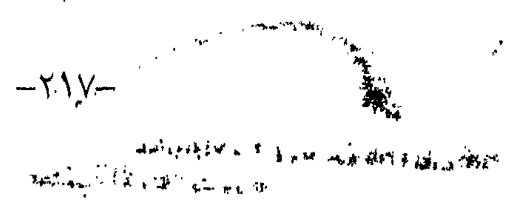
من واقع ما سجله أغلب الرواة والمؤرخين وكتاب السير، اتضح لنا أنه حين يتطرق الحديث فى أوراقهم عن خيبر - ذلك المكان المشهور فى حياة محمد عليه الصلاة والسلام وحياة وتاريخ الدعوة الإسلامية - لابد وأن يطفو إلى سطح هذه الأوراق حديث الغزوة وتفاصيلها.. وقد يسبق ذلك فى بعض الأحيان إلقاء، بعض الأضواء المبهرة على سيرة اليهود وتاريخهم فوق أرض الحجاز؛ لبيان ما كانوا يتصفون به من مكر وخداع ونفاق حملهم على عدم الاستمرار فى حياة شريفة قائمة على حسن الجوار مع المسلمين.

وكانت «خيبر» بالنسبة لليهود آخر المعاقل التى لجأوا إليها، من قبل طردهم جميعا من بلاد العرب .. وبعد ذلك بسنوات قليلة.

كما تبارى هؤلاء الرواة والمؤرخون فى ذكر تفاصيل كثيرة بشأنهم ومواقفهم، التى لم تعد تحتمل فى ظل هذا الدين الجديد.. والذى كان يسعى إلى تحقيق الأمن والسلام لكل البشر..

وعندما يأتى ذكر اليهود أيضا، كان لابد لنا وأن نتذكر علاقة رسولنا الكريم ﷺ بهم، هذه العلاقة، التى بدأت فى واقع الأمر منذ نعومة أظفاره، سواء وهو صبى أو من بعد ذلك. وقد سبق لنا أن بيننا ذلك عند الحديث المفصل عن رحلتيه عليه السلام إلى بلاد الشام. وما وقع من الراهب بحيرا الذى حذر عمه أبا طالب بالإسراع والعودة من حيث أتى، خوفا عليه من مكائد اليهود، الذين يبحثون عن ذلك النبى الجديد الذى وجدوه عندهم مكتوباً فى التوراة.

ومما لاشك فيه أن محمداً عليه السلام قد بلغته هذه المخاوف، وعرف بها فى



حينها. . وبالتالى صارت فى نفسه الشريفة حيطة ويقظة تجاه اليهود! رغم أنه كان فى هذه الفترة المبكرة من حياته على غير علم بما سوف يأتيه من أمر السماء وتكليفه بالرسالة الإسلامية السامية.

ليس هذا فقط بل ولعلنا نجزم أيضا أن هذه الحيطة وهذا الحذر قد بدأ ينمو بقوة داخل نفس وقلب النبى الكريم ﷺ أثناء إقامته الشريفة وسط أهله وعشيرته بمكة؛ مما كان يسمعه عن مكر اليهود ومكائدهم وما اقترفته أيديهم ضد أنبيائهم.

ولاشك أيضا أن هذه الريبة، وهذا الحذر قد ازداد أكثر وأكثر، وأخذ شكل العداء المستتر. . بعدما أتاه صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام وتكليفه برسالة الإسلام. .

ولما هاجر رسولنا صلى الله عليه وسلم بنجاح إلى مقر دار الإسلام الجديدة فى يثرب. . وكان ما كان من أمر أهلها من اليهود، وما كان ينزل عليه من قرآن عظيم فى شأنهم، كل ذلك لاشك قد أكد ذلك اليقين القديم داخل نفس رسولنا الكريم ﷺ، وبالتالى فقد أخذ المبادرة لضربهم فى معاقلهم داخل يثرب، حتى قضى عليهم وأجلاهم عنها جميعا.

ثم اتجه بعد ذلك لتخليص الجزيرة العربية كلها من شرورهم، حيث تجمعوا داخل حصون خيبر، وهو ما سوف نلقى عليه الأضواء المبهرة، بعدما نستكمل معا حديث اليهود من حيث النسب والأصول. . وكيفية دخولهم أرض العرب قبل الإسلام.

وهناك عديد من المصادر التاريخية القديمة والحديثة، التى تناولت تاريخ اليهود فى الجزيرة العربية. . ومن بين هذه المصادر المهمة ما سجله الأستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم فى كتابه عن تاريخ العرب فى عصر الجاهلية، وذلك أثناء حديثه عن طبيعة سكان الأماكن المأهولة فى الحجاز. . ومن بينها بطبيعة الحال يثرب وغيرها من الأماكن التى استوطنها اليهود بعد فرارهم من أرض الشام. .

حيث أدت الثورات التى ضد الرومان إلى تشريدهم وطردهم من فلسطين.

ولم يكن أمامهم من سبيل للهروب مما لاقوة من اضطهاد وتعذيب سوى جزيرة العرب.. فاستوطن بعضهم أخصب بقاع الحجاز فى يثرب وفدك وخيبر ووادى القرى وتيماء، كما نزل بعضهم بأرض اليمن، وتمكنوا هناك من تهويد جماعة من أهلها.

وعندما هاجر اليهود إلى يثرب، كانت تسكن بها بعض جماعات يهودية صغيرة، نزحت إلى هذا البلد العربى فى عصور قديمة، وتغلبت على سكانها الأصليين من العماليق.. وكان ذلك فى عام ٧٠م على أقرب الآراء.. ثم انضم إليهم اليهود الجدد، الذين فروا من اضطهاد الرومان فى بلاد الشام خاصة فى فلسطين.

وعندما تجمع هؤلاء اليهود فى يثرب، أقاموا على عادتهم الحصون العالية المنيعة.. على نظام التجمعات السكنية المستقلة، كما أقاموا فى أحياء خاصة بهم، ولم ينخرطوا فى سكانها من العرب، كما أقاموا أيضا فى قرى أعدوا فيها الحصون والاطام.

وقد أشاد رب العالمين فى قرآنه الكريم إلى هذه القرى المحصنة فى قوله تعالى: «لا يقاتلونكم جميعا إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون».. سورة الحشر الآية ١٤.

* * *

وفى يثرب كان لليهود بيت يعرف باسم بيت «المدراس»، وكان يجلس فيه علماؤهم وأحبارهم يتدارسون فيه التوراة، ووفق الإجماع فقد بلغ عدد قبائل اليهود فى يثرب وحدها عشرين قبيلة أشهرهم بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع وبنو ثعلبة.

فى حين كانت قبائل العرب آنذاك محصورة بين قبيلتين فقط.. هما: الأوس والخزرج.

وحتى داخل يثرب نفسها فقد قسم اليهود جماعاتهم بين سهولها.. والمناطق القريبة من السهول ومنابع المياه.. فنزل بنو قريظة وأخوانهم بالعالية، وكانوا أول من احتفر بها الآبار واغترس الأشجار، وكان بنو قينقاع يسكنون عند منتهى جسر بطحان مما يلى العالية.

وقد تأثر اليهود بجيرانهم العرب فانقسموا إلى قبائل وبطون، كما اتخذوا أسماء عربية تتداخل فيها الرطانة العبرية. ومع ذلك فقد ظلوا يؤلفون طبقة متحاجزة عن العرب، فكانوا يحافظون على انتسابهم إلى المدن والأقاليم التى قدموا منها. كما أنهم وضعوا لمعالم يثرب ومواضعها أسماء عبرية، مثل: وادى بطحان ومهزور وخلافه. كما كان هؤلاء اليهود يخشون على أنفسهم من جيرانهم العرب، لذلك فقد عمدوا إلى الإكثار من بناء الآطام والحصون.

ولما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم يثرب، كان أول من رآه أحد يهود من سكانها.. وقد أبلغ أهلها بأن صاحبه قد آتى لتوه.

وعندما استقر محمد عليه الصلاة بيثرب وسط أهلها من المهاجرين والأنصار وجد أن هناك تحالفاً عظيماً بين قبيلتى الأوس والخزرج وبين بعض جماعات اليهود..

فقد كانت بنو قريظة والنضير من حلفاء الأوس وبنو قينقاع حلفاء الخزرج، وقد شعروا بأن وجودهم بات فى خطر، منذ أن وطأت أقدام رسولنا الشريفة هذه الأرض الطيبة، إذ كان أول شيء فعله هو إنهاء حالة الحرب المستعرة بين هاتين القبيلتين العربيتين.

كما عاهد اليهود وأقرهم على دينهم وأموالهم؛ حتى يضمن شرهم بعض الوقت، ورسولنا صلى الله عليه وسلم كان يعلم علم اليقين بأن ذلك كان بشكل مؤقت.

وقد صدق ما توقعه إذ نقضت اليهود كل عهودها مع الرسول صلى الله عليه وسلم، ولما رأى منهم الغدر وشدة العناد ودس الدسائس والتحالف مع المنافقين، أراد التخلص منهم، وقد بدأ هذه الخطوة المهمة على إجماع الآراء بعد انتصار المسلمين العظيم فى غزوة بدر، عندما دعا الرسول صلى الله عليه وسلم بنى قينقاع إلى الإسلام، فلما أبوا وأجابوا بالرفض غزاهم وأجلاهم إلى بلاد الشام.

وفى السنة الرابعة غزا قبيلة بنى النضير، وأجلاهم أيضا عن المدينة، فمنهم من سار إلى الشام، ومنهم من ذهب إلى خيبر المعقل الحصين ليهود جزيرة العرب آنذاك.

وفى السنة الخامسة غزا بنى قريظة؛ لأنهم من الذين جمعوا أحزاب الكفار من قريش ضد المسلمين بالمدينة، وتسببوا فى غزوة الخندق، حيث انضموا إلى أعداء المسلمين فى أحرج المواقف.

وبعد نجاح رسولنا الكريم ﷺ فى إجلاء بنى قريظة عن المدينة، لم تقم لليهود قائمة.. وكما قضى على المنافقين، ومن بعدها تحولت المدينة من دار كفر إلى مركز للسلطة الدينية العظيمة، ممثلة فى دولة الإسلام بزعامة النبى الكريم ﷺ.. كما تمكنت المدينة ﷺ من إخضاع بقية جزيرة العرب - فى سنوات قليلة!

* * *

ولقد ظن اليهود عندما تجمعوا وراء حصونهم فى خيبر، أنهم قد أصبحوا فى مأمن من إيذاء المسلمين. وبالتالى أخذوا هم من جانبهم يفكرون فى وضع العراقيل والمشاكل والصعوبات فى طريق انطلاق الدعوة الإسلامية داخل شبه جزيرة العرب، بل وفى كل المدن خارجها.

من ناحية أخرى لم تكن أهدافهم الخبيثة ببعيدة عن فكر هذا النبى العظيم ﷺ.. إذ شعر فعلا بأن خطر هؤلاء اليهود لم ينته بعد رغم إبعادهم عن عاصمة الإسلام.

لذلك فقد رأى الرسول ﷺ بعد أن عقد مع قريش صلح الحديبية أن يهاجم خيبر حيث يقيم اليهود الذين تجمعوا من فلول قبائل بنى قينقاع وبنى النضير، وكان الحظر من قبلهم على المدينة لايزال متوقفا، فتأهب الرسول ﷺ للخروج إليهم فى السنة السابعة للهجرة وأمر أصحابه بالتجهز للغزو، وأعلن بينهم ألا يخرج معه إلا كل راغب فى الجهاد[1].

ثم صار قاصدا خيبر على رأس ألف وأربعمائة فارس من المسلمين، الذين كانوا معه فى الحديبية وكان أهلها من اليهود و ـ على حد قول الدكتور أمين ساعاتى ـ إذ ذاك يقيمون بحصون على نحو ما كان يفعل بنو جلدتهم فى يثرب.

ولم يدر بخلدهم أن الرسول ﷺ سيغزوهم لمنعتهم ووفرة سلاحهم وكثرة عددهم. لكن الرسول ﷺ ما لبث أن نزل بساحتهم ليلاً على حين غفلة منهم، بحيث لم يستيطيعوا أن يضموا إليهم حلفاءهم.

فلما أصبح الصبح وشرعوا يتأهبون لآداء أعمالهم، فوجئوا بمشاهدة المسلمين أمامهم فذعروا وولوا هاربين.

وكان لانتصار المسلمين فى خيبر أهمية خاصة.. فقد ترتب عليه أنه أصبح لدولتهم الناشئة أراض مملوكة خارج المدينة، يحصلون منها على الخراج. كما أدى كذلك إلى وجود جماعة من اليهود، يشملها السلطان السياسى للدولة الإسلامية.

ومما هو ملاحظ.. فإن هناك عشرات من المؤرخين المسلمين وغير المسلمين من الذين تناولوا بالتفصيل مادار فى خيبر من معارك.. انتهت بانتصار الإسلام ولسوف نشير إلى بعضها ونحن نتحدث تفصيلا عن الأماكن المشهورة التى ارتبطت بتلك الغزوة.

ويؤكد الدكتور محمد حسين هيكل فى قوله عن خيبر: أن رسولنا صلى الله عليه وسلم لم يقم بالمدينة بعد عودته من الحديبية، إلا خمس عشرة ليلة على

١- ابن سعد ـ كتاب الطبقات الكبير. ج ٣.

قول، وشهراً على قول آخر، ثم أمر الناس بالتجهز لغزو خيبر، على ألا يغزو معه إلا من شهد الحديبية، ويكون متطوعاً وليس له من الغنائم شيء.

وبعد أن تجمع المسلمون، الذين بلغ عددهم ألف وستمائة مقاتل ومعه مائة فارس، اتجهوا إلى خيبر بقيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد قطعوا الطريق ما بين خيبر والمدينة فى ثلاثة أيام.. لم يشعر بهم أحد حتى وصلوا على مشارفها وباتوا أمام حصونها، ولما أصبح الصباح وغدا عمال خيبر خارجين إلى مزارعهم، فلما رأوا جيش المسلمين ولوا مدبرين يتصايحون: «هذا محمد والجيش معه».. وقال الرسول حين سمع قولهم. «ضربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين».

على أن يهود خيبر كانوا يتوقعون أن يغزوهم محمد عليه الصلاة والسلام وفق تأكيد الدكتور هيكل.. وكانوا يودون إيجاد الوسيلة إلى الخلاص من هذا الغزو. وقد تشاوروا.. واختلفوا حيث أشار بعضهم إلى تأليف كتلة منهم، ومن يهود وادى القرى وتيماء ويثرب، والاعتماد على البطون العربية المناوئة للمسلمين آنذاك.

وأما الآخرون فكانوا يرون أن يدخلوا فى حلف مع الرسول ﷺ.. لأجل نجاتهم جميعا.. وقد انتصر الرأى الأول فاتصلوا بقبائل غطفان.. إلا أن جيوش المسلمين التى حاصرت خيبر وما حولها قد حالت دون تحقيق تلك المساعدة.

ولقد وقف المسلمون بقيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم أمام حصون خيبر متأهبين للقتال والغزو.. فى الوقت الذى استمرت فيه مشاورات اليهود فيما بين زعمائهم للبحث عن مخرج.. وقد أشار عليهم زعيمهم سلام بن مشكم بضرورة تنفيذ خطة تقوم على أمرين، الأول: هو إخفاء كل أموالهم وأولادهم غير القادرين على القتال فى حصن «الوطيح والسلالم» وإخفاء أسلحتهم فى حصن «ناعم».

والأمر الثانى.. هو دخول المقاتلين من يهود خيبر إلى حصن «نطاة».. أقوى

حصونهم على الإطلاق، وقد دخل معهم هذا الحصن زعيمهم سلام بن مشكم ليحرضهم على الحرب.

والتقى الجمعان على حد تعبير الدكتور محمد حسين هيكل حول هذا الحصن ودارت بين اليهود والمسلمين معركة حامية.. حتى قيل إن جرحى المسلمين فى هذا اليوم بلغ خمسين جريحاً..

ثم توفى سلام بن مشكلم زعيم اليهود فى هذه المعركة، وتولى بدلا منه قيادة اليهود الحارث بن أبى زينب، الذى خرج من حصن ناعم يريد منازلة المسلمين.. فتصدى له جنود المسلمين من بنى الخزرج؛ حتى اضطروه للعودة إلى حصنه مرة أخرى!

ثم بدأ المسلمون حصاراً شاملاً على كل حصون خيبر واليهود يستميتون دفاعاً عن تلك الحصون، إيماناً منهم بأن هزيمتهم أمام محمد هى القضاء الأخير على بنى إسرائيل.

* * *

وتتابعت الأيام بالمسلمين وهم أمام حصون خيبر يريدون اقتحامها وفتحها.. حتى فتح الله على على بن أبى طالب، الذى ظل يقاتل أمام أحد هذه الحصون إلى أن تمكن من فتحها.. وجعل من بابه قنطرة اجتاز المسلمون عليها إلى داخل أبنية بقية الحصون.

وقد استولى المسلمون أولا على حصن ناعم، ثم توالت بعد ذلك بقية الحصون التى سقطت تباعاً فى أيد المسلمين بقيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان آخر تلك الحصون هو حصن الزبير، الذى تسبب قطع المياه عن أهله فى الاستيلاء عليه بعد أن لاذ سكانه بالفرار.

أما حصنى الوطيح والسلالم بمنطقة الكتيبة.. فقد تمنعا على المسلمين لشدة بنائهما.. ولم يدخلهما المسلمين إلا بعد أن طلب يهود هذين الحصنين الصلح والتسليم!.

وكما سبق وذكرنا فإن هناك عديداً من المصادر التاريخية، التى تناولت هذا الحدث العظيم بتفاصيل كثيرة. . ولم تبتعد تلك المصادر بتفاصيلها عما ذكره كل من ابن اسحاق وابن هشام اللذين تخصصا فى نقل وقائع السيرة النبوية من فوق أفواه من استمعوا لبعض تفاصيلها أو عاشوا بعض أحداثها. وكانت خيبر على قائمة الأحداث التى روى عنها الكثير من الذين استعان بهم كل من هذين القطبين الكبيرين، فى مجال رواية السيرة النبوية.

كذلك لاحظنا أن كل من ابن اسحاق وابن هشام قد اهتما اهتماماً كبيراً بذكر التفاصيل الدقيقة. . حتى الأقوال التى نُقلت على ألسنة الصحابة، والتى نسبوها إلى رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم.

ومما ذكره ابن اسحاق فى هذا السياق قوله: «وحدثنى من لا أتهم، عن عطاء ابن أبى مروان الأسلمى، عن أبيه عن أبى معتب بن عمرو، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لما أشرف على خيبر، قال لأصحابه وأنا فيهم: قفوا، ثم قال: «اللهم رب السموات وما أظللن، ورب الأرضين وما أقللن، ورب الشياطين، وما أضللن، ورب الرياح وما أذرين، فإنا نسألك خير هذه القرية، وخير أهلها، وخير ما فيها. ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها، أقدموا بسم الله».

كذلك بدأ ابن إسحاق روايته عن فتح حصون خيبر بقوله: وكان رسول الله ﷺ حين خرج من المدينة إلى خيبر سلك على عصر، وبنى له فيها مسجداً ثم على الصهباء، ثم أقبل بجيشه حتى نزل بواد يقال له الرجيع، فنزل بينهم وبين غطفان، ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر، كانوا لهم مظاهرين على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبلغنى أن غطفان لما سمعوا بذلك جمعوا ثم خرجوا ليظاهروا اليهود عليه، حتى إذا ساروا منقلة سمعوا خلفهم فى أموالهم وأهليهم حساً، ظنوا أن القوم قد خالفوا إليهم، فرجعوا على أعقابهم، فأقاموا فى أموالهم وأهليهم وخلوا بين رسول الله وبين خيبر.

كما ينقل إلينا ابن إسحاق عديداً من روايات البخارى، وما قيل بشأن فتح

حصون خيبر . . كما يؤكد فى السياق نفسه . . أن آخر حصونهم قد تم فتحها بعد حصار بضع عشرة ليلة.

كذلك من المصادر الإسلامية المهمة، والتى احتفلت كثيرا بحادث خيبر ما ذكره الواقدى. . وهو أحد أعمدة رواة السيرة النبوية، وقد قدم لنا وصفا مهماً لاقتحام المسلمين بقيادة محمد عليه الصلاة والسلام، أحد حصونها المنيعة.

ومما رواه فى هذا الشأن قوله: لما تحولت اليهود من حصن ناعم وحصن الصعب بن معاذ إلى قلعة الزبير، حاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام، فجاء رجل من اليهود يقال له عزال، فقال: ياأبى القاسم تؤمننى على أن أدلك على ما تستريح به من أهل النطاة وتخرج إلى أهل الشق، فإن أهل الشق قد هلكوا رعباً منك؟!

قال: فأمنه رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهله وماله، فقال له اليهودى: إنك لو أقمت شهراً تحاصرهم ما بالوا بك!. . إن لهم تحت الأرض دبولاً (أى جداول) يخرجون بالليل فيشربون منها ثم يرجعون إلى قلعتهم، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع دبولهم، فخرجوا فقاتلوا أشد القتال، وقتل من المسلمين يومئذ نفر وأصيب من اليهود عشرة، وافتتحه رسول الله، وكان آخر حصون النطاة، وتحول إلى الشق، وكان به حصون ذوات عدد، فكان أول حصن بدأ به منها حصن أُبى، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على قلعة يقال لها سموان فقاتل عليها أشد القتال. .

ثم تقدم أبو دجانة فقتل أحد اليهود، فكبر المسلمون ثم تحاملوا على الحصن فدخلوه وأمامهم أبو دجانة، فوجدوا فيه أثاثاً ومتاعاً وغنماً وطعاماً.

وهرب من كان فيه من المقاتلة واقتحموا الجزر وكأنهم الضباب، حتى صاروا إلى حصن البزاة بالشق وتمنعوا أشد الامتناع، فزحف إليهم رسول الله وأصحابه فتراموا ورمى معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده الكريمة، حتى أصاب نبلهم فأخذ كفاً من الحصا فرمى حصنهم بها فرجف بهم حتى ساخ فى الأرض، وأخذهم المسلمون أخذا باليد.

وأضاف الواقدى: ثم تحول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل الأخيبة، والوطيح والسلالم حصنى أبى الحقيق، وتحصنوا أشد التحصن وجاء إليهم كل من كان انهزم من النطاة إلى الشق، فتحصنوا معهم فى القموص وفى الكتيبة، وكانا حصنا منيعا.

وفى الوطيح والسلالم جعلوا لا يطلعون من حصونهم؛ حتى هم الرسول الكريم أن ينصب عليهم المنجنيق، فلما تيقنوا بالهلكة وقد حصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة عشر يوماً، نزل إليه ابن أبى الحقيق فصالحه على حقن دمائهم ويخلون بين رسول الله ﷺ وبين ما كان لهم من الأرض والأموال والصفراء والبيضاء والكراع والحلقة.. فصالحوه على ذلك.

وكذلك كان بن عبد البر فى كتابه «الدرر فى إختصار المغازى والسير» من أهم كُتاب السيرة النبوية الذين أشاروا إلى فتح خيبر وحصونها.. وقد حاول من خلال ما سطره فى هذا الكتاب تقديم شىء جديد عن ذلك الحادث التاريخى العظيم.. ومما ذكره تحديداً بالنسبة للأماكن المشهورة فى خيبر قوله: «فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى خيبر دفع رايته وكانت بيضاء إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه، وأخذ طريق الصهباء. (وهو موضع فى الطريق من المدينة إلى خيبر، على بعد ثمانية أميال منها شمالاً) ثم إلى دارى الرجيع، فنزل بين خيبر وغطفان لئلا يمدوهم».

كما يعدد لنا بن عبد البر حصون خيبر، وقد اتفق فيما رواه مع غيره من المؤرخين القدامى أو المحدثين.. ولكن مما أضافه فى هذا السياق قوله: «ثم حصنا يدعى «القموص» وهو حصن بنى أبى الحقيق، ومن سبايا ذلك الحصن كانت صفية بنت حُيى بن أخطب، وكانت تحت كنانة بن الربيع بن أبى حقيق - أصابها رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنتى عم لها - فوهب صفية لدحية بن خليفة الكلبى، ثم ابتاعها منه بسبعة أرؤس، ثم أردفها خلفه وألقى عليها رداءه، فعلم أصحابه أنه اصطفاها لنفسه، وجعلها عند أم سليم حتى اعتدت وأسلمت، ثم أعتقها وتزوجها، وجعل عتقها صداقها.

كما أكد بن عبد البر فى الكتاب ذاته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فتح بعد خيبر فدك.. ثم وادى القرى وهى من بلاد اليهود أيضا.

* * *

ولقد رأينا حتى تكتمل الفائدة.. ونعرف تفاصيل أكثر عن أهم الأماكن المشهورة فى خيبر.. ضرورة الوقوف على هذه الأماكن بتحديد مكانى وجغرافى دقيق، وفق ما سطره بعض مؤرخى العصر الحديث.. حيث قدم مؤرخاً مثل محمد رضا هذه الأماكن مقسمة تقسيما جغرافيا، على جانب كبير من التحديد المكانى المتعارف عليه.

ليس هذا فقط.. بل واهتم كذلك بتحديد تاريخ غزوة خيبر، ونعرف ذلك كدأبه دائما فى كل ما قدمه من معلومات عن السيرة النبوية الشريفة..

ومما ذكره فى هذا السياق: أن هذه الغزوة قد وقعت فى شهر المحرم عام ٧هـ الموافق أغسطس عام ٦٢٨م.

وأما بالنسبة للتفاصيل الجغرافية عن خيبر.. فقد ذكر: أن خيبر واحة كبيرة على مسافة ٩٦ ميلاً.. وسكانها من اليهود، وهى ذات حصون ومزارع ونخل كثير.. وقد بلغ عدد هذه الحصون تسعة حصون صغيرة مقسمة إلى ثلاثة حصون كبيرة، هى: حصون النطاة وعددها أربعة، هى: الناعم ـ الصعب ـ الكتيبة ـ بقلة.. وحصون الشق وعددها اثنان، حصن أُبى وحصن البرى ـ ثم حصون الكتيبة وعددها ثلاثة وهى: حصن القموص والوطيح والسلالم.

* * *

ولم يكن ليكتمل الحديث عن خيبر وما كان بها من أماكن مشهورة فى حياة محمد عليه الصلاة والسلام.من دون الحديث عن زواجه عليه السلام من صفية إحدى سبايا خيبر..

ولقد اكتشفنا أن أكثر المصادر المروية من حيث الدقة فى هذا السياق ما ذكرته

الدكتورة عائشة عبد الرحمن فى كتابها «نساء النبى»؛ حيث جمعت فى هذا الكتاب من مصادر موثوق بها كل ما يتعلق بنساء النبى عليه الصلاة والسلام، حتى بات من أهم المصادر المروية فى هذا الشأن.

وفى سياق حديثها عن زوجة نبينا الكريم ﷺ السيدة صفية.. تطرقت للإشارة إلى بعض المرويات الخاصة بغزوة خيبر، ولم يخرج ما روته فى هذا الشأن عما رويناه نحن من قبل إذ كانت المصادر واحدة تقريباً، مع اختلاف الأسلوب وطريقة التناول..

أما بخصوص السيدة صفية، فقد عرفنا من قبل أن اسمها وفق إجماع المصادر صفية بنت حُيى بن أخطب «التى ينتمى نسبها إلى هارون» أخى موسى عليهما السلام وأمها هى برة بنت شموال أو سموءل القرظية.

ولم تكن صفية قد جاوزت السابعة عشر من عمرها، عندما وقعت أسيرة فى غزوة خيبر.

ورغم صغر سنها فقد تزوجت هذه السيدة مرتين الأولى من فارس قومها وشاعرهم «سلام بن مشكم القرظى».. أحد قواد اليهود، الذين تزعموا حرب خيبر ضد المسلمين، وقد قتل فى هذه الغزوة؛ فتزوجت من بعده «كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق النضرى» صاحب حصن القموص، أقوى حصون خيبر وفق تأكيد كل المصادر التاريخية الإسلامية.

ولما أمر رسولنا الكريم ﷺ بقتل كنانة بن الربيع؛ لتستره على أموال اليهود وكنوزهم وعدم الإبلاغ عنها. سيقت نساء حصن القموص سبايا، وفى مقدمتهن صفية امرأة كنانة وابنة عم لها.

وتؤكد الدكتورة بنت الشاطئ.. أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما شاهد ابنة عم صفية تنوح وتصرخ على قتلى اليهود.. قال لها صلى الله عليه وسلم وهو يشيح بوجهه عنها. «اغربوا عنى هذه الشيطانة»!

أما صفية فقد رأى عليه الصلاة والسلام أنها راغبة فى أكثر من حماية النبى ﷺ الفارس، فألقى عليها نظرة رحمة، وهو يقول لبلال: «أنُزعت يا بلال منك الرحمة حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهما»!

وبخلاف ذلك نقلت الدكتورة بنت الشاطئ ما ردده بن عبد البر فى كتابه.. وسبق ذكره.. من أن رسولنا الكريم صلوات الله عليه وسلم قد أمر بصفية فخرجت خلفه وألق عليها رداءه، فكان ذلك إعلاماً بأنه صلى الله عليه وسلم قد اصطفاها لنفسه.

ثم عرف المسلمون بعد ذلك أن النبى الكريم ﷺ، قد تزوجها.. ففى حديث عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أخذ صفية بنت حُيى قال لها: « هل لك فىّ؟» قالت: يارسول الله.. قد كنت أتمنى ذلك فى الشرك، فكيف إذا أمكننى الله منه فى الإسلام؟ فأعتقها عليه الصلاة والسلام وتزوجها وكان عتقها صداقها. ثم دفعها إلى أم سليم تهيئها له وتعتد عندها.

* * *

وتقترب بنا الدكتورة عائشة عبد الرحمن فيما روته عن السيدة صفية من الحديث عن بعض الأماكن المشهورة فى حياة محمد عليه الصلاة والسلام بخصوص هذا الزواج، الذى تم أيضا فى حضرة خيبر. فقد انتظر رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم بخيبر حتى هدأت المناحة على فراق رجالها، وظن أن الروع قد ذهب أو كاد من صفية فحملها وراءه، وانطلق بها إلى منزل فى أطراف خيبر، وعلى بعد ستة أميال منها.. فمال يريد أن يعرس بها، لكنها تمنعت وأبت عليه أن يفعل، فكتمها صلى الله عليه وسلم فى نفسه، وشق عليه تمنعها ورفضها، ثم استأنف سيره راجعًا بعسكره فى الطريق إلى المدينة، فلما كان بالصهباء بعيداً عن خيبر.[وقد مر علينا من قبل موقع هذا البلد بالنسبة لمدينة رسول الله ﷺ]. نزل هناك ليستريح، فبدا له أن صفية متهيئة للعرس «جهزتها له أم سليم فأهدتها له من الليل».

وفى الصباح أقام رسولنا فى المكان ذاته وليمة العرس، فلما أصبح قال: من كان عنده شيء فليجئ به وبسط رداءً فجعل الرجل يجئ بالتمر وجعل الرجل يجئ بالسمن، فكانت وليمة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهناك خارج القبة التى كان فيها المصطفى وصفية.. بات رجل من الأنصار هو أبو أيوب خالد بن زيد يقظاناً ساهراً، متوشحاً سيفه.. يطوف بالقبة على غير علم رسول الله، فلما أصبح صلى الله عليه وسلم سمع حركته ورأى مكانه.. فسأله: مالك يا أبا أيوب؟! أجاب:

يارسول الله، خفت عليك من هذه المرأة، فقد قتلت أباها وزوجها وقومها، وكانت حديثة عهد بكفر فخفتها عليك..

ويقال: إن رسولنا عليه الصلاة والسلام دعا له قائلاً: «اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظنى»[1].

وتعلق بنت الشاطئ على هذا الموقف بقولها: لم يكن المسلمين قد نسوا بعد تلك الفعلة الآثمة لامرأة من يهود خيبر، هى زينب بنت الحارث، التى أرادت أن تقتل النبى بالسم فى الشاة!!!

١- نساء النبى ـ دكتورة عائشة عبد الرحمن مصدر سابق.

١٠ـ فى تبوك

وفقا للتسلسل التاريخى للمعارك العسكرية، التى خاضها المسلمون من بعد هجرتهم واستقرارهم بالمدينة المنورة. تعتبر غزوة «تبوك» آخر هذه المعارك العسكرية المهمة، التى خاضها المسلمون تحت قيادة محمد عليه الصلاة والسلام كقائد عسكرى عظيم.. أثبت قدرته وجدارته فى فن قيادة المعارك العسكرية؛ بعد نجاحه عليه السلام فى قيادة المسلمين وقت السلم، والدعوة إلى عبادة الله بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة.

كما تعتبر غزوة «تبوك» من العلامات المضيئة فى تاريخ الدعوة الإسلامية وتاريخ العرب والمسلمين بشكل عام.. نظراً لما تحقق فيها من نتائج عظيمة أدت إلى تثبيت الدعوة الإسلامية وتأمينها داخل شبه جزيرة العرب.

وكذلك تعتبر منطقة تبوك وما كان فيها من أماكن مشهورة ـ ارتبطت بهذه المعركة.. وبحياة رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام ـ هى آخر هذه الأماكن فى حياته عليه السلام خارج المدينة؛ إذ تبين لنا وفق الإجماع.. أن رسولنا صلى الله عليه وسلم قد أقام من بعد تبوك بالمدينة المنورة متفرغاً لاستقبال الوفود العربية وغير العربية.. التى آتت لأجل إعلان إسلامها وإسلام أتباعهم، حتى أن بعض هؤلاء المؤرخين، ومنهم الدكتور محمد حسين هيكل، يعتبر الانتصار فى تبوك أكثر أثراً على انتشار الدعوة الإسلامية من فتح مكة أو الانتصار فى حنين أو حصار الطائف!

ونظراً لهذه الأهمية التى أولاها المؤرخون لغزوة «تبوك»، فسوف يكون لنا معها وقفة طويلة ومع تفاصيلها، وبالتالى ستكون فرصة طيبة من جانبنا للوقوف أيضا على الأماكن المشهورة فى هذه المنطقة، وهى التى ارتبطت بسيرة محمد عليه الصلاة والسلام طوال هذه الغزوة ثم من بعدها.

ونحن بهذه الخطوة نؤكد ما سبق وأعلناه من قبل. . أننا نتتبع بكل دقة كل ما قيل بشأن الأماكن المشهورة فى حياة محمد عليه الصلاة والسلام.

وكشأن كل الغزوات التى سجلها التاريخ بأمانة شديدة. . فقد نالت «تبوك» أهمية خاصة من جانب هؤلاء المؤرخين وأصحاب السيرة النبوية، الذين تحدثوا بإسهاب عنها وعن آثارها العظيمة؛ مما كان له أكبر الأثر فى إزاحة بقايا كابوس الشرك من كل أرجاء الجزيرة العربية، وتأكيد قوة وقدرة الإسلام على المنافسة والصمود، سواء فى أمور الدنيا أو الدين.

ولقد شاء الله، جلت قدرته أن يجعل هذه الغزوة ضد جيش الروم. . الذى استعد قواده للزحف داخل شبه جزيرة العرب لضرب الإسلام فى عقر داره. . فما لبث هذا العدو أن وجد أمامه جحافل مقاتلة من جيوش المسلمين، تزحف ناحية أرضه على حدود جزيرة العرب. . فانسحب خاسراً ودون قتال. .

وفى تصورنا أنه بخلاف ما ذكره المؤرخون والمحللون السياسيون عن آثار معركة تبوك فى تدعيم الدعوة الإسلامية. . فإن أسمى معانيها هو تأكيد قوة وقدرة الإسلام فى القضاء على فلول الشرك ليس بالنسبة لكفار قريش فقط، وأتباعهم من قبائل العرب، بل وأيضا تأكيد قوة هذا الدين وقدرته على الوقوف بحسم وعزم أمام زعماء الشرك من الديانات الأخرى، وعلى وجه الخصوص. . ممن كانت تزهو بهم الإمبراطورية الرومانية آنذاك. .

وانتصار الإسلام بقيادة محمد عليه الصلاة والسلام فى تلك الغزوة كان بمثابة تأكيد لهذه القدرة وهذه الهيبة وهذه القوة التى استمر تأثيرها طويلاً. . خاصة على كل قبائل بلاد الشام، التى كانت تحت إمرة وسيطرة الإمبراطورية الرومانية. . بدليل ما أفصح عنه المؤرخون من توافد الوفود إلى المدينة، التى أقام بها الرسول صلى الله عليه وسلم بعدما رجع من تبوك، مروراً بالطائف. . وقضائه على المنافقين وهدم مسجدهم، مسجد الضرار.

وكذلك أشارت هذه الغزوة بوضوح إلى ما سوف يكون عليه ذلك الصراع الأبدى بين قوى الشرك الممثلة فى أصحاب الديانات الأخرى وبين الإسلام.

ولقد أثبت التاريخ منذ هذه الغزوة وحتى اليوم.. أن هذا الصراع قائم على أشده، حيث لاتزال قوى الشرك هذه تحاول جاهدة القضاء على الإسلام فى صور شتى.. وقد بدأ الصراع مع دولة الروم منذ أكثر من ألف عام.. وها هو يتجدد بمعدلات ثابتة فى كل عصر.. وبصور مختلفة، ولا هدف للقائمين به وعليه سوى ضرب الإسلام.

وفى المقابل يزداد الإسلام قوة ومنعة؛ لتمسك أصحابه بالقرآن الكريم وبسنة النبى العظيم، رغم ما يعترى المسلمين بين الحين والحين من حالات ضعف، توهم الآخرين بأن الوقت قد حان للقضاء على الإسلام.. ثم ما يلبثوا أن يكتشفوا زيف ما وصلوا إليه من نتائج، توصلوا إليها من خلال حسابات ضعيفة.

وفى يقينى أن أحداث غزوة تبوك.. سوف تتكرر بعد مرور عدة أزمنة.. حيث يكرر أعداء الإسلام دوماً تهديداتهم.. بل ويبدأون هم بالإعداد للهجوم على أنه النهاية.. ثم تأتى الدائرة عليهم. وحيث يهيئ الله لهذه الأمة رجلاً يحمل فى قلبه نور الإيمان والإسلام.. ليتقدم ويقود جموع المسلمين. كما فعل رسولنا الكريم فى غزوة «تبوك».. عندئذ يرتدع هؤلاء المشركون الجدد.. ويدخلون إلى جحورهم خائبين.. وبالتالى يسود الإسلام وتعود له قوته وهيبته، وربما يكون ذلك مع اقتراب الساعة.. مصداقاً لقوله تعالى «إن الدين عند الله الإسلام».

* * *

وكان علينا من أجل التعرف على مدى الجهد الذى بذله محمد عليه الصلاة والسلام فى غزوة «تبوك» لردع جيوش الروم من قبل مقدمهم داخل الجزيرة العربية، سواء من حيث البعد المكانى أو الطقس، الذى جرى خلاله تجهيز جيش المسلمين.. ضرورة الوقوف على المسافة التى قطعها هذا الجيش فى حر شديد القيظ، حتى سميت فى القرآن الكريم بيوم العسرة!

إذ ذكرت كل كتب السيرة عن موقع تبوك بالنسبة للمدينة المنورة: أنها فى منطقة

تقع بين الحجر وأول الشام على أربع مراحل، نحو نصف طريق الشام، ويقع جبل حسمى إلى الغرب منها وجبل شرورى شرقها. وبها حصن ونخل، وقيل أنها كانت بركة لأبناء سعد من بنى عزرة من قضاعة القحطانية، كما يقال إن أصحاب الأيكة الذين بُعث إليهم شعيب كانوا فيها، ولم يكن شعيب منهم، وإنما كان من مدين، ومدين على بحر القلزم (البحر الأحمر) على ست مراحل من تبوك.

وفى موضع آخر من هذه الكتب جاء عن موقع تبوك أنها منطقة بين وادى القرى والشام، وبينها وبين المدينة من جهة الشام أربع عشرة مرحلة، وبين دمشق إحدى عشرة مرحلة. وإذا ما ترجمنا هذا الموقع الجغرافى بالقياسات الحديثة.. نكتشف أن المسافة الفعلية بين تبوك والمدينة.. تبلغ حوالى ٦٧٥ كيلومتراً مربعاً.

ولنا أن نتصور تلك الفترة الزمنية التى قطعها المسلمون بقيادة محمد عليه الصلاة والسلام، حتى وصلوا إلى مشارف تبوك. إننا نعتقد أنهم ربما قطعوها فى أكثر من أسبوعين.. وسط جو صحراوى شديد الحرارة مع قلة أو ندرة المياه.

وكما اجتهد المؤرخون فى نقل صورة مكانية عن المسافة بين تبوك والمدينة، نقلوا إلينا كذلك صورة لما كان عليه طقس هذه الأيام. فقد ذكر الدكتور محمد حسين هيكل عن تلك الظروف المناخية، التى ارتبطت بهذه الغزوة: أن الصيف لم يكن قد انتهى بعد، والقيظ فى أوائل الخريف يصل إلى درجات تجعله أشد من قيظ الصيف فى هذه الصحارى إرهاقاً وقتلاً!. ثم أن المشقة من المدينة إلى بلاد الشام طويلة.. مشقة تحتاج إلى الجلد، وتحتاج إلى المؤونة وإلى الماء.

وإزاء هذه الظروف الصعبة لم يكن أمام محمد عليه الصلاة والسلام من مفر إلا مخالفة تقاليده الخاصة بشأن غزواته.. إذ كان دائماً يجهز لها فى طى الكتمان خوفاً من نقل أخبارها إلى الأعداء.. إلا فى هذه الغزوة على اتفاق المؤرخين؛ حيث أعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نواياه علانية أمام القبائل للتجهز للمشاركة فى هذه الغزوة.

وإضافة إلى طول المسافة وسوء المناخ، فقد واجه رسولنا الكريم ظروفاً سياسية

أخرى، تجلت فى بعض مواقف المنافقين الذين تقاعسوا عن المشاركة، بل وأخذوا يحثون الناس على التخلف عن القتال.

مما جعل رسولنا يقرر ضرورة أخذ هؤلاء المنافقين بالشدة وتأديبهم؛ وبالتالى كان له أكبر الأثر فى تراجع عدد كبير منهم والإسراع للمشاركة فى جيش المسلمين، جنبا إلى جنب مع أثرياء المسلمين وفقرائهم من الذين أبدوا الاستعداد للانضمام إلى جيش رسول الله ﷺ لمقاتلة الروم، مهما كانت المشقة وطول الطريق.

وبناء على ذلك فقد اجتمع لرسول الله ﷺ ثلاثين ألفاً من الرجال وعشرة آلاف من الخيل ومثلها من الجمال. وكان هذا أكبر جيش غزا الشام فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم.

وخرج المسلمون فى غزوة تبوك الرجلان والثلاثة على بعير واحد، وكان ذلك فى حر قائظ، وقد أصاب المسلمون فى سيرهم عطش شديد، فجعلوا ينحرون إبلهم ويعصرون أكراشها ويشربون ماءها. على حد قول ابن كثير فى كتابه «البداية والنهاية».

ويؤكد المؤرخ الإسلامى د. محمد عزب دسوقى أن هذا الموقف كان بمثابة عسرة فى الماء وعسرة فى الظهر وعسرة فى النفقة، ولذلك سمى بجيش العسرة، مصداقا لقول الله تعالى: «**الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ**»[1] [التوبة الآية ١١٧].

ولما اجتمع جيش المسلمين، وقام أبو بكر يؤم الناس للصلاة فى انتظار عودة محمد عليه الصلاة والسلام من تدبير شئون المدينة أثناء غيابه، وقد استخلف عليها محمد بن مسلمة، وخلَّف على بن أبى طالب على أهله وأمره بالإقامة فيهم.

وأصدر ما أصدر من أوامر، ثم عاد إلى الجيش ليتولى قيادته، وكان عبد الله ابن أبى قد خرج فى جيش من قوم يسير به إلى جانب جيش محمد. ولكن النبى ﷺ رأى أن يظل عبد الله وجيشه بالمدينة، لأنه كان ضعيف الثقة به وبصحة إيمانه.. وأمر فتحرك الجيش، وثار النقع وصهلت الخيول، وارتقت النساء بالمدينة

١- القبائل العربية فى بلاد الشام - د. محمد عزب دسوقى - مصدر سابق.

سقف مبانيها يشهدن فى هذه الزحف، وهو يتوجه مخترقاً الصحراء صوب الشام[1].

ووفق الإجماع فقد بدأ جيش المسلمين هذا الزحف العظيم فى شهر رجب عام تسعة هجرية الموافق سبتمبر ـ أكتوبر عام ٦٣٠م.

* * *

ولقد مر هذا الجيش بأماكن مشهورة وهو فى طريقه إلى تبوك.. حيث توقف فيها رسولنا الكريم ﷺ إما لإقامة الصلاة أو للتزود بالمياه أو للراحة، وكانت من أولى هذه الأماكن حجر ثمود.. والمعروفة الآن بمدائن صالح. وفيها أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه من الجنود وقواد الجيش ألا يتوضئوا من بئر ثمود. ولا يستخدموها فى أمور طعامهم. وهذه البئر هى بئر ناقة صالح عليه السلام.

كما أمرهم ألا يدخلوا بيوت ثمود خشية أن يصيبهم ما أصاب قومها من عذاب، كما نهاهم أن يخرج أحدهم منفرداً.. وقد حدث أن خرج رجلان من بنى ساعدة، كل واحد منهما منفرداً عن صاحبه.. أحدهما يريد الغائط، فخُنق. فأخبروا النبى بذلك، فدعا له فشفى، والآخر خرج فى طلب بعير له فأخذته الريح ورمته فى جبل طئ، فردته بعد ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفى ديار ثمود عطش المسلمون عطشاً شديداً، فدعا رسول الله ربه، فأرسل عليه سحابة إرتوا منها ودوابهم وإبلهم وأخذوا حاجتهم من الماء[2].

كذلك كانت من الأماكن المشهورة فى تاريخ هذه الغزوة.. ذلك المكان الذى ضلت فيه ناقة محمد عليه الصلاة والسلام.. ويحكى المؤرخون عن ذلك قولهم بأن أحد المنافقين وهو فى الغالب زيد بن اللصيت القينقاعى.. وكان منافقاً قال علانية: «محمد يدعى أن خبر السماء يأتيه ولا يدرى أين ناقته»!

١- حياة محمد ـ مصدر سابق.

٢- الدور فى اختصار المغازى والسير ـ مصدر سابق.

فنزل الوحى بما قال هذا القائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدعا أصحابه وأخبرهم أن الله عز وجل قد عرفه بموضع ناقته، وأنها فى موضع كذا وقد تعلق خطامها بشجرة، فابتدروا إلى ذلك المكان الذى وصفه رسول الله فوجدوها هناك[1].

ويؤكد ابن إسحاق فى سيرته أن المنافق المقصود بهذا القول ليس زيد ابن اللصيت بن القينقاعى.. بل هو عُمارة بن حزم وكان عقبياً بدرياً، وهو عم ابن عمرو ابن حزم، وكان فى رحلة زيد بن اللصيت، وكان منافقاً.

* * *

ومما يحكيه الرواة عن هذه الغزوة أيضا وعن أحوال بعض المسلمين من الذين تخلفوا عن ساعة العسرة قولهم: ولما جد الجيش فى السير، جعل بعض الرجال يتخلفون فيقال: يارسول الله تخلف فلان. فيقول: دعوه إن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه.

ولما وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجيش إلى تبوك وسط هذه الظروف المناخية الصعبة، عسكر بها، ولم يجاوزها. وكما جاء فى «فتوح البلدان» للبلاذرى.. فهى أولى منازل بادية الشام من ناحية شبه الجزيرة العربية، وتقع شرق ديار عاملة وبهراء وجزام وبلى.. كما تقع دومة الجندل حيث ديار كلب ابن وبرة إلى الشمال الشرقى قريبا منها، ويليها من ناحية الشمال ديار قضاعة وغسان؛ حيث الكثرة والعدد فى قبائل قحطان الضاربة بالشام.

ويؤكد ابن كثير فى تاريخه أنه ربما لم يشأ النبى صلى الله عليه وسلم أن يتوغل بالجيش أكثر من ذلك؛ حتى يكون ظهره مؤمنا إلى بلاده، فلا يحاط به وهو بين كل هذه القبائل الشامية، ومما يذكر كذلك فى هذا السياق.. أن محمداً عليه الصلاة والسلام لما وصل تبوك.. شاور أصحابه فى التقدم والمسير إلى قلب دمشق فقال له عمر بن الخطاب: إن كنت أُمرت بالسير فسر بنا، فقال عليه الصلاة

١- المصدر السابق.

والسلام: «لو أُمرت به ما استشرتكم». . فقال له أصحابه: يا رسول الله إن للروم جموعاً كثيرة، وليس بها أحد من أهل الإسلام وقد دنوت من الروم حيث ترى وقد أفزعهم دنوك، فلو رجعت هذه السنة حتى ترى أو يحدث الله إليك فى ذلك أمراً. .

ويؤكد الطبرى فى تاريخه أن النبى عليه الصلاة والسلام قد اكتفى بإيفاد بعض السرايات إلى الجهات المجاورة لتبوك.

ويقال أيضا فى هذا السياق أن النبى صلى الله عليه وسلم، عندما وصل إلى تبوك، كتب إليه هرقل ملك الروم رداً على كتابه الذى كان قد أرسل به مع دحية بن خليفة الكلبى.

ويذكر بن كثير مرفوعاً عن سعيد بن أبى راشد أن الأخير التقى بالتنوخى رسول هرقل إلى النبى ﷺ، وهو فى تبوك حينما جاء له برسالة منه، رداً على كتاب بعث به النبى ﷺ إليه وهو بحمص مع دحية بن خليفة، يدعوه إلى الإسلام أو الجزية.

ويذكر التنوخى أنه لما وصل تبوك يحمل رسالة قيصر الروم، أقبل على النبى صلى الله عليه وسلم فناوله كتاب هرقل فوضعه فى حجره. ثم سأله: من أنت؟! فقال: أنا أخو تنوخ، وهى قبيلة عربية من قضاعة القحطانية، أقامت بالشام وعملت فى خدمة الروم. فقال النبى: هل لك فى الإسلام الحنيفية. . ملة أبيكم إبراهيم؟! قال: إنى رسول قوم وعلى دين قوم لا أرجع عنه حتى أرجع إليهم، فضحك النبى ﷺ وقال: ﴿**إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ**﴾ [القصص الآية ٥٦].

* * *

وأثناء وجود محمد عليه الصلاة والسلام فى تبوك. . جاءه كذلك يحنة ابن رؤبة صاحب «أيلة» وقيل يوحنا، وكانت مدينة لليهود على ساحل بحر القلزم؛ مما يلى الشام. . وقيل هى آخر مناطق الحجاز وأول الشام، وسميت على اسم أيلة بنت مدين بن إبراهيم عليه السلام.

وفى هذه المقابلة، تم الصلح بينه وبين المسلمين على أن يدفع الجزية.. وقد كتب رسول الله ليحنه [أو يوحنا] وأهل آيلة. كتاباً بهذا الاتفاق جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم هذه أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله، ليحنة بن رؤبة وأهل آيلة، سفنهم وسياراتهم فى البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبى، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر. فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وأنه طيب لمن أخذه من الناس وأنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقاً يردونه من بر أو بحر»[1].

وأثناء وجود الرسول صلى الله عليه وسلم فى تبوك، جاءه أيضا أهل «جرباء» وهو موضع من أعمال عمان بالبلقان من أرض الشام قرب جبال الشراة من ناحية الحجاز.. كما جاءه أهل «أذرح» وهو بلد فى أطراف الشام من أعمال الشراه فى نواحى البلقاء. فصالح أهلها على مائة دينار، وكذلك أهل جرباء على مثلها وكتب لهم كتاباً جاء فيه: « بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد النبى رسول الله لأهل جرباء وأذرح، إنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد، وأن عليهم مائة دينار فى كل رجب ومائة أوقية طيبة، وأن الله عليهم كفيل بالنصح والإحسان إلى المسلمين ومن لجأ إليهم من المسلمين».

ليس هذا فقط.. بل وكان وجود محمد عليه الصلاة والسلام فى تبوك فرصة لأهالى البلاد التى تحيطها من غير المسلمين.. لعقد اتفاقيات الصلح والمهادنة مع المسلمين، فى وجود هذا النبى الكريم ﷺ القائد المعلم الإنسان.

فقد سارع أهل «مقنا»، وهى بلدة كانت على مقربة من أيلة، وهم يهود.. وصالحوا الرسول الكريم ﷺ وجيش المسلمين على ثلاثمائة دينار وعلى ربع عروكهم [أى الخشب المستخدم فى الصيد] وغزولهم وربع كراعهم [أى خيولهم] وحلقتهم وعلى ربع ثمارهم. وكتب إليهم هذا الكتاب «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى بنى حبيبة وأهل مقنا سلم أنتم فإنه أنزل علىّ أنكم راجعون إلى

١- ابن هشام - السيرة - ابن سعد الطبقات الزرقانى: المواهب اللدنية - على بن برهان الدين: السيرة الحلبية - ابن عساكر: تاريخ دمشق وآخرون.

إلى قريتكم، فإذا جاءكم كتابى هذا فإنكم آمنون ولكم ذمة الله وذمة رسوله، وأن رسول الله قد غفر لكم ذنوبكم، وكل دم اتبعتم به لا شريك لكم فى قريتكم إلا رسول الله أو رسول رسول الله، وأنه لا ظلم عليكم ولا عدوان، وأن رسول الله يجيركم مما يجير به نفسه، وأن لرسول الله بزتكم ورقيقكم والكراع والحلقة إلا ما عفا عنه رسول الله أو رسول رسول الله.. وأن عليكم بعد ذلك ربع ما أخرجت نخيلكم وربع ما صادت عروككم وربع ما اغتزلت نساؤكم، وأنكم قد ثريتم بعد ذلكم ورفعكم رسول الله، عن كل جزية وسخرة، فإن سمعتم وأطعتم فعلى رسول الله أن يكرم كريمكم ويعفو عن مسكينكم.. ومن ائتمر فى بنى حبيبة وأهل مقنا من المسلمين خيراً فهو خير له، ومن أطلعهم بشر فهو شر له.. وليس عليكم أمير إلا أنفسكم أو من أهل بيت رسول الله».

ويؤكد بعض المؤرخين أن خالد بن الوليد فى هذه الغزوة قام بأسر إكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل بناء على تكليف من محمد عليه الصلاة والسلام.. وقد أحضر إلى تبوك أمام النبى الكريم ﷺ فصالحه على الجزية ورده إلى بلده بعد أن تنازل للمسلمين عن ألف بعير وثمانمائة رأس وأربعمائة رمح.

* * *

ولقد مكث محمد عليه الصلاة والسلام بتبوك وفق الإجماع بضع عشرة ليلة لم يجاوزها.. ثم انصرف بعدها عائداً إلى المدينة. وحتى من بعد عودته عليه الصلاة والسلام بالجيش الإسلامى المنتصر. لم يصطدم بالروم أو بأحلافهم من عرب الشام؛ لأن المسلمين ظلوا على مشارفها ولم يوغلوا فى بلاد الشام تأمينا لظهورهم.

من ناحية أخرى لم يحاول جيش الروم ولا حلفاؤهم من القبائل العربية التحرش بجيش المسلمين فى أثناء عودته إلى المدينة؛ نظراً لفخامة هذا الجيش وخروج النبى بنفسه على رأس قيادته. وقد خاف الروم وأحلافهم من أن يسحبهم المسلمون إلى داخل الصحراء، بعيداً عن أوطانهم التى يحتمون بها..

وقد ظلت الأمور معلقة بين العرب وبين الروم على حدود الشام إلى ما بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولم تحسم لصالح المسلمين إلا فى عهد كل من أبى بكر وعمر بن الخطاب.

والسؤال المهم الذى يفرض نفسه فى ختام الحديث عن تبوك وأهم ما بها من أماكن مشهورة ارتبطت بحياة محمد عليه السلام.. وحياة الدعوة الإسلامية قاطبة. هو: ماذا تبقى من هذه الأماكن فى الوقت الحاضر؟!

ولقد رأينا من قبل الإجابة عن السؤال السابق ضرورة إعطاء تعريف بما أصبحت عليه تبوك اليوم فى ظل الدولة السعودية، التى ضمت فى جنباتها كل المدن والأقاليم والقرى الموجودة داخل شبه الجزيرة العربية، حتى حدود الشام ومصر والكويت وبقية دول الخليج العربى.

وتبوك وفقاً للتعريف الجغرافى الحديث.. كما هو مدون بالمصادر الجغرافية حاليا.. تقع فى القطاع الشمالى الغربى للسعودية، وتغطى منطقتها مساحة ١٠٤ ألف كيلومتر مربع.. ويبلغ عدد سكانها ١٤٥ ألف نسمة، وهى تتألف من: تبوك - حاضرة المنطقة - البدع - جفاء - الوجه - أملج - الشرق - شقراء - العيينة - دمج - البديعة - مركز الطلعة والأخضر - القليبة والجبعاوية وتيماء.

ويحد تبوك حالياً من الشمال القصائم وجنوبا جبل رايس والهضيبة، ومن الشرق الأخضر والأثيلى، ومن الغرب مربط المُهرة.

أما بالنسبة لسبب تسميتها بتبوك فى الماضى والحاضر. فيقول علماء التاريخ عن ذلك: إن تاريخ هذا البلد يعود إلى ما قبل الميلاد بخمسمائة سنة، حيث كانت تعرف باسم «طابو» يوم أن كانت هى ومدينة العلا عاصمة للعيانيين.

وهناك من يعتقد أن منطقة تبوك كانت أرض مدين وادان.. كما أن هناك أكثر من سبب فى تسميتها بتبوك، ولكن من الثابت أنها كانت معروفة قبل بعثة النبى عليه الصلاة والسلام.

ويقال كذلك إن أصل هذه التسمية جاء من كلمة «تابو» أو «طابو»، وهى كلمة لاتينية تعنى المكان المنعزل، نظراً لأن تبوك كانت منعزلة عن شبه الجزيرة العربية جنوباً وعن بلاد الشام شمالاً.

أما عن أهم ما تبقى بها من أماكن مشهورة لازالت موجودة إلى الآن، فهى: مسجد التوبة، ويدعى كذلك مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم.. ذلك لأنه قد أدى الصلوات فيه بضع عشرة ليلة خلال غزوة تبوك.

وقد بُنى هذا المسجد من طين فى بادئ الأمر وسقِّف بسعف النخيل، ثم جدده العثمانيون بالحجر فى عام ١٠٦٢هـ، كما جُدد بناؤه بأمر من الملك فيصل لدى زيارته له، وكان البناء الجديد فى مواصفاته قريباً من المسجد الشريف بالمدينة. وكذلك من أهم هذه الأماكن.. قلعة تبوك الأثرية وتدعى كذلك «منزل أصحاب الأيكة»، الذين ورد ذكرهم فى القرآن الكريم. ويقدر عمر هذه القلعة بحوالى ٣ آلاف سنة، وجدد بناؤها عدة مرات على أيدى العثمانيين فى عام ١٠٦٢هـ، ثم عين السكر.. وهى عين ماء قديمة جداً.. وكانت مورداً مهمًا للمياه للعرب أيام الجاهلية.. كما كانت مصدراً وحيداً للماء فى المنطقة.

ويقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد شرب منها أثناء غزوة تبوك، وقد جف ماؤها على ١٣٨٢هـ ١٩٦٢م.

إلى جانب ذلك هناك بعض الآثار الحديثة نوعاً ما مثل محطة سكة حديد الحجاز، التى كانت تمتد من المدينة المنورة إلى دمشق ودمرت فى الحرب العالمية الأولى، ثم الحصون العثمانية التى بنيت على مسافات متقاربة لحماية حجاج بيت الله الحرام.. كما يعتقد أن هناك كثيراً من الآثار الأخرى، التى طمسها الريح على مر السنين.

أهم المراجع

١-القرآن الكريم

٢- الأحاديث النبوية.

٣- دراسات فى القرآن والحديث - د. يوسف خليف.

٤- مختصر سيرة بن هشام -المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

٥-حياة محمد - د. محمد حسين هيكل.

٦- موسوعة التاريخ الإسلامى -ج٣-د. أحمد شلبى.

٧- سيرة ابن إسحاق -لمحمد بن إسحاق بن يسار بن جبار.

٨- سيرة ابن هشام - لمحمد بن عبد الملك بن هشام المعافرى.

٩- السيرة النبوية لابن اسحاق -إصدارات أخبار اليوم.

١٠- كتاب المغازى -للواقدى.

١١- الطبقات الكبرى لابن سعد.

١٢- الروض الأنف -للسهيلى.

١٤- حياة محمد ـ للمؤلف الفرنسى ـ أميل درمنجهم.

١٥-الإسراء والمعراج -للإمام بن عباس.

١٦- السراج الوهاج فى الإسراء والمعراج -تصنيف محمود توفيق عبد الحليم.

١٧- أوجز السير لخير البشر ـ لابن الحسين بن فارس الرازى.

١٨- المعجزة الكبرى -الإسراء والمعراج- محمد متولى الشعراوى.

١٩- بيت المقدس فى الإسلام -د. عبد الحليم محمود.

٢٠- تاريخ القدس -عارف باشا العارف.

٢١- قصص الأنبياء -الإمام الحافظ بن كثير.

٢٢- عرائس المجالس -ابن النيسابورى الثعلبى.

٢٣- تاريخ شبه جزيرة سيناء منذ أقدم العصور حتى ظهور الإسلام ـ د. أحمد فخرى.

٢٤- موسوعة سيناء -الهيئةالعامة للاستعلامات.

٢٥- معجم البلدان -ياقوت الحموى.

٢٦- الروض المعطار فى خبر الأقطار -محمد عبد المنعم الحميرى.

٢٧- دائرة المعارف -قاموس عام لكل فن ومطلب- المعلم بطرس البستانى.

٢٨- مدن إسلامية مقدسة ـ د. أحمد شلبى.

٢٩- تاريخ العرب فى عصر الجاهلية -د. السيد عبد العزيز سالم.

٣٠- محمد صلى الله عليه وسلم -رؤية سياسية معاصرة- د. أمين الساعاتى.

٣١- هذه بلادنا -وزارة الإعلام السعودية.

٣٢- تاريخ الطبرى.

٣٣- تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء-حمزة بن الحسن الأصفهانى.

٣٤- البداية والنهاية -ابن كثير.

٣٥- عبد الله.. أبو النبى -محمد فوزى حمزة.

٣٦- نساء النبى -د. عائشة عبد الرحمن.

٣٧- جبال الأنبياء -حنفى المحلاوى.

٣٨- المنازل والديار -أسامة بن منقذ.

٣٩- نسب الصحابة - ابن جرير الطبرى.

٤٠- محمد رسول الله -صلى الله عليه وسلم -محمد رضا.

٤١- قاموس الحج والعمرة -أحمد عبد الغفار العطار.

٤٢- مساجد فى السيرة النبوية -د. سعاد ماهر.

٤٣- الرحلة الحجازية -البتانونى.

٤٤- القبائل العربية فى بلاد الشام منذ ظهور الإسلام إلى نهاية العصر الأموى د. محمد عزب دسوقى.

٤٥- تاريخ العرب فى عصر الجاهلية -د. السيد عبد العزيز سالم.

٤٦- صفوة السيرة لابن كثير -جزء ثانى.

٤٧- مروج الذهب -المسعودى.

٤٨- آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم-د. خالد مصطفى.

٤٩- البيان المحمدى -د. مصطفى الشكعة.

٥٠- المسجد النبوى بالمدينة المنورة ورسومه فى الفن الإسلامى -د. أحمد رجب محمد.

٥١- دائرة سفير للمعارف الإسلامية.

٥٢- الرسول فى المدينة المنورة -د. عبد العزيز غنيم.

٥٣- أحمد صلى الله عليه وسلم -د. أمين الساعاتى.

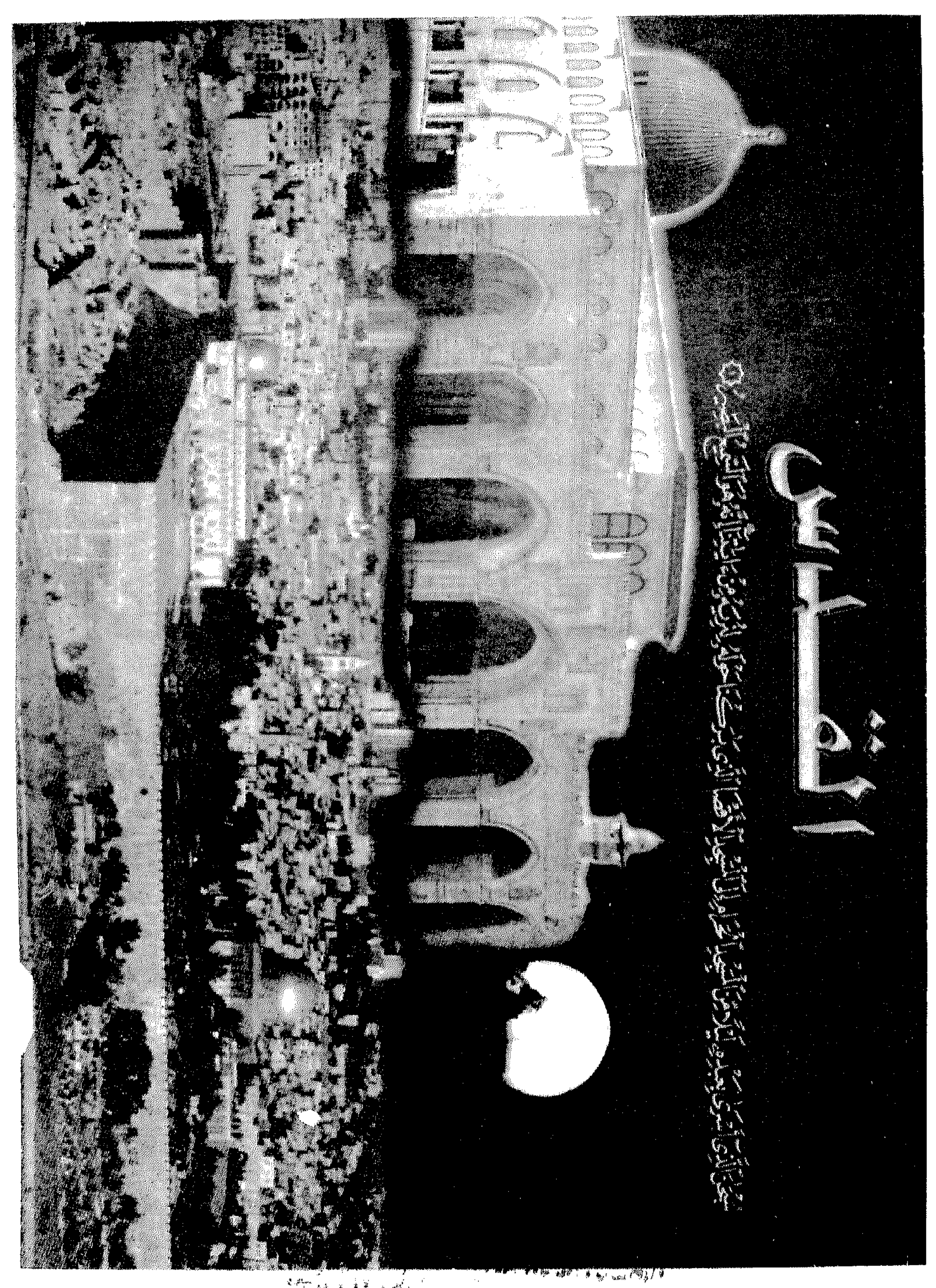
٥٤- معركة أحد -د. محمد فتحى الشاعر.

٥٥- الدرر فى اختصار المغازى والسير -ابن عبد البر

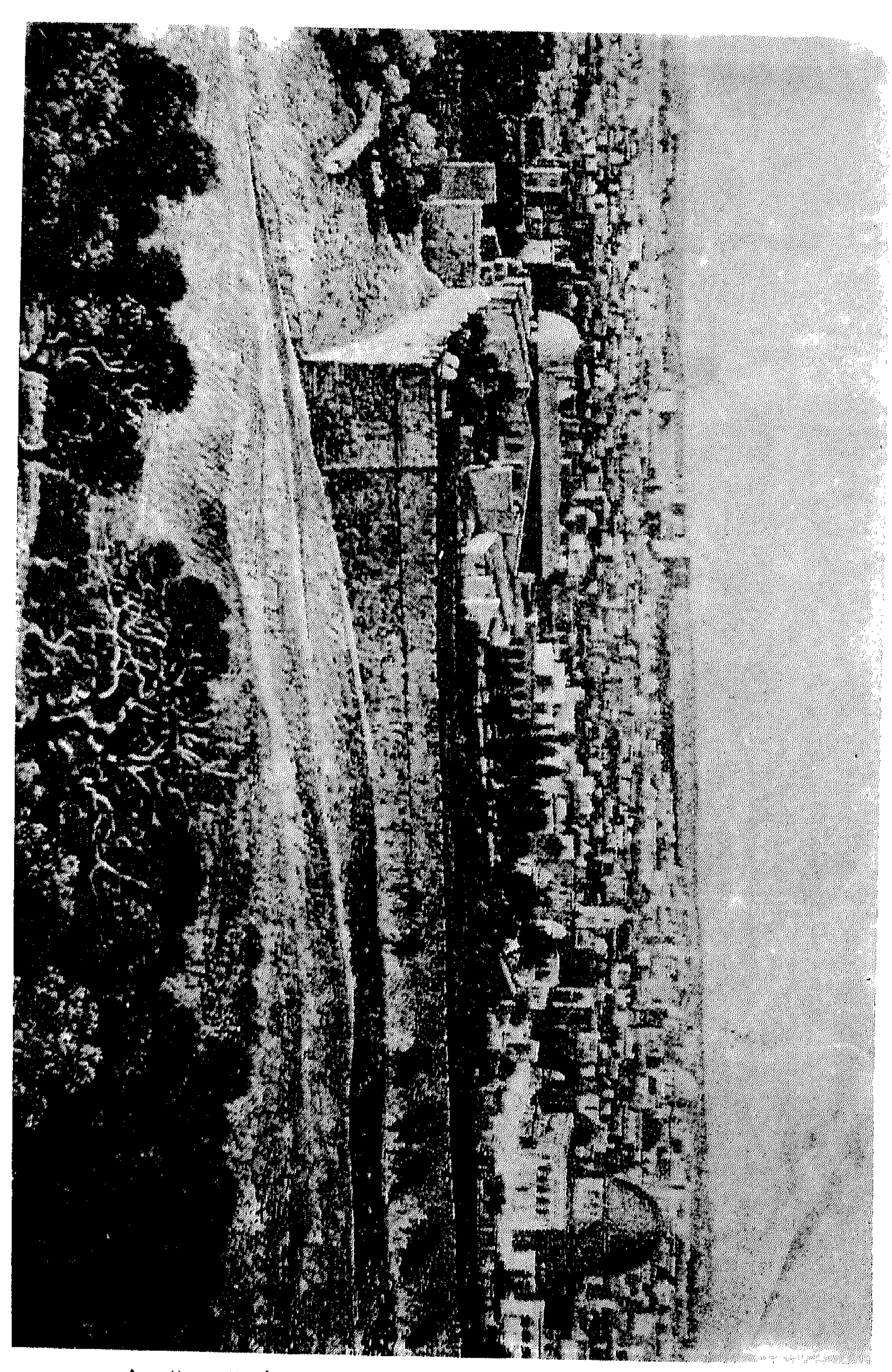
٥٦- فتوح البلدان -البلاذرى.

بلاد العرب
في
حياة محمد

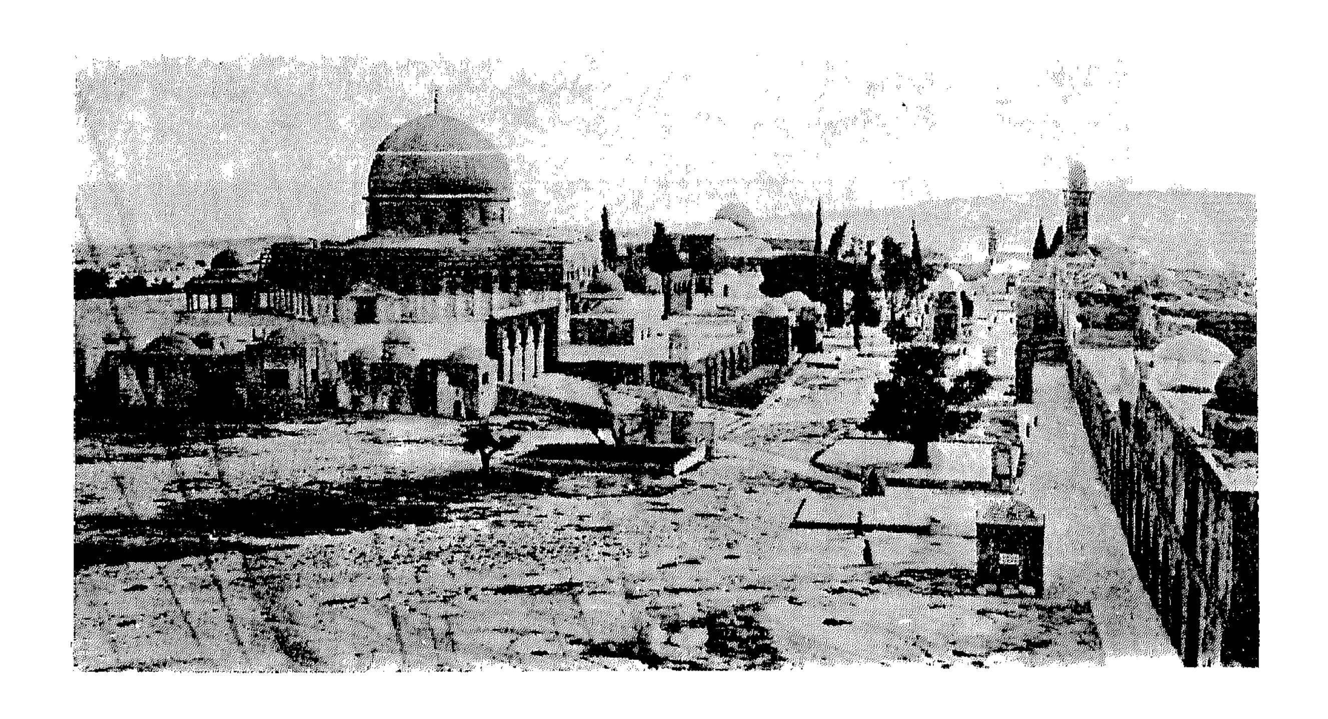

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية



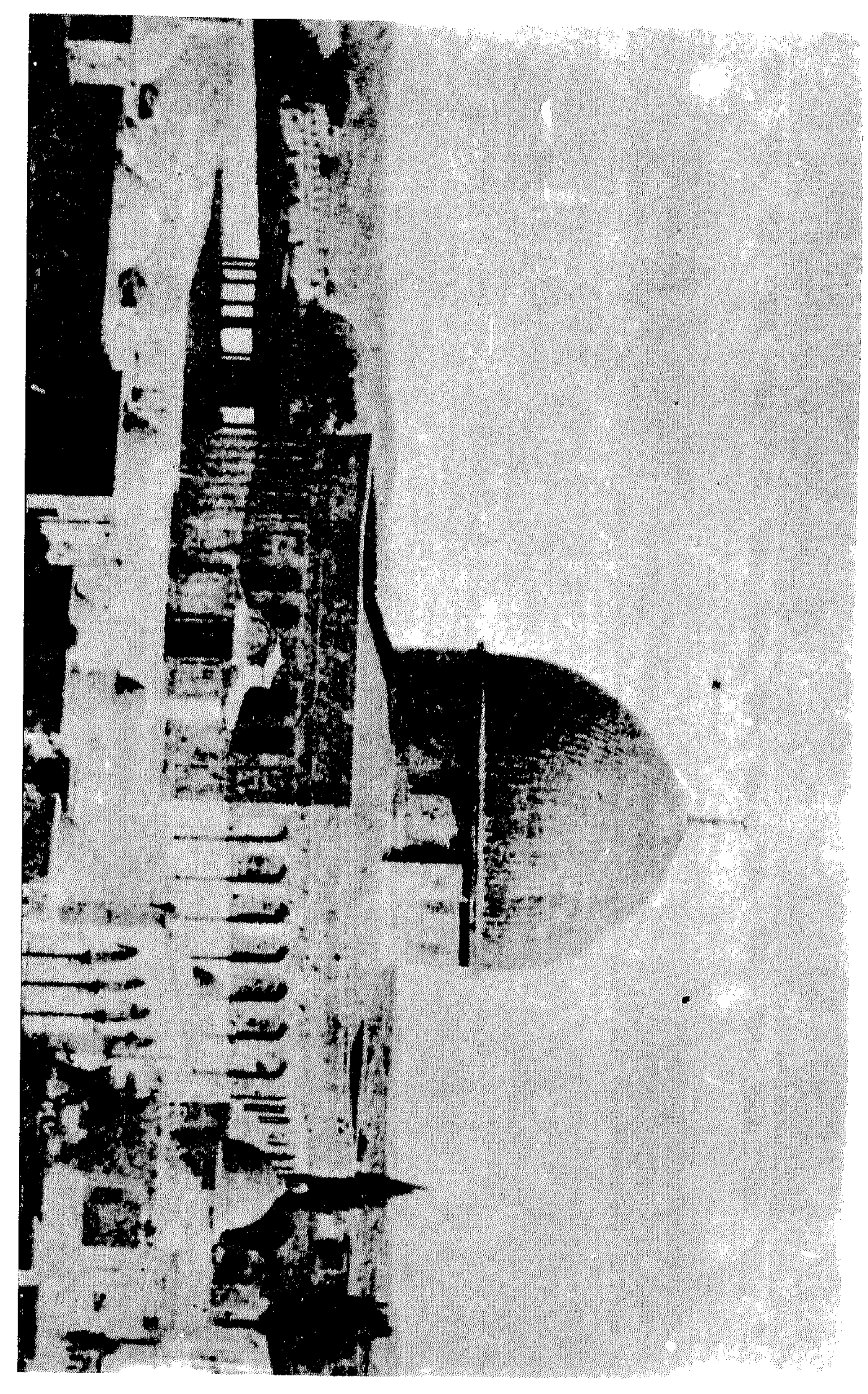
بيت المقدس .. وقبة الصخرة .. رحلةٌ طويلة في أعماق التاريخ..



أول صورة فوتوغرافية لمدينة القدس من قبل تطويرها في العصر الحديث



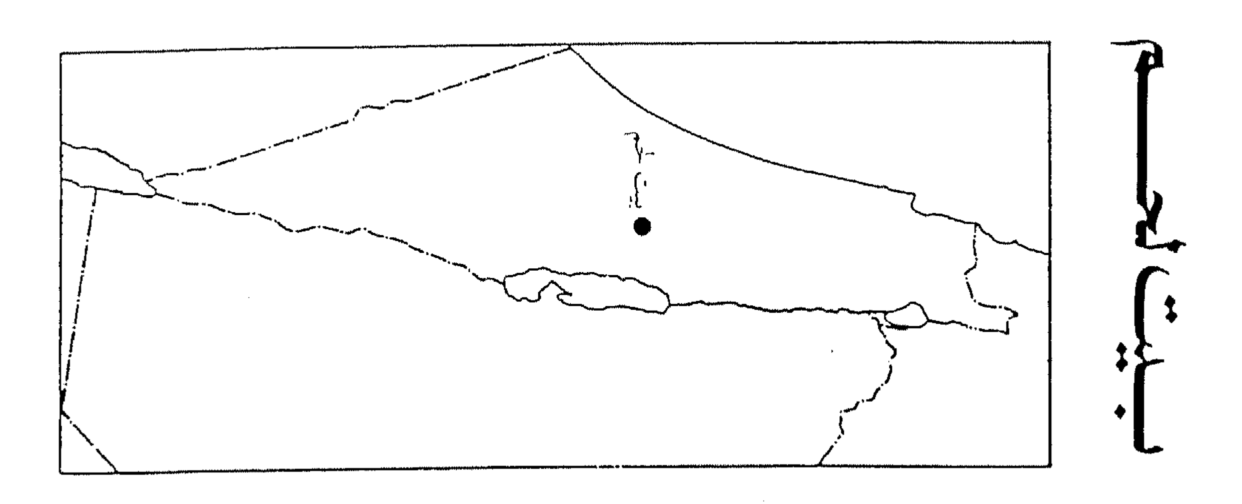
قبة الصخرة بلونها المتميز .. بعد أن إعيد طلاؤها باللون الذهبي في عام ١٨٩٠



وصورة أخري لقبة الصخرة .. التقطت عام ١٨٥٠



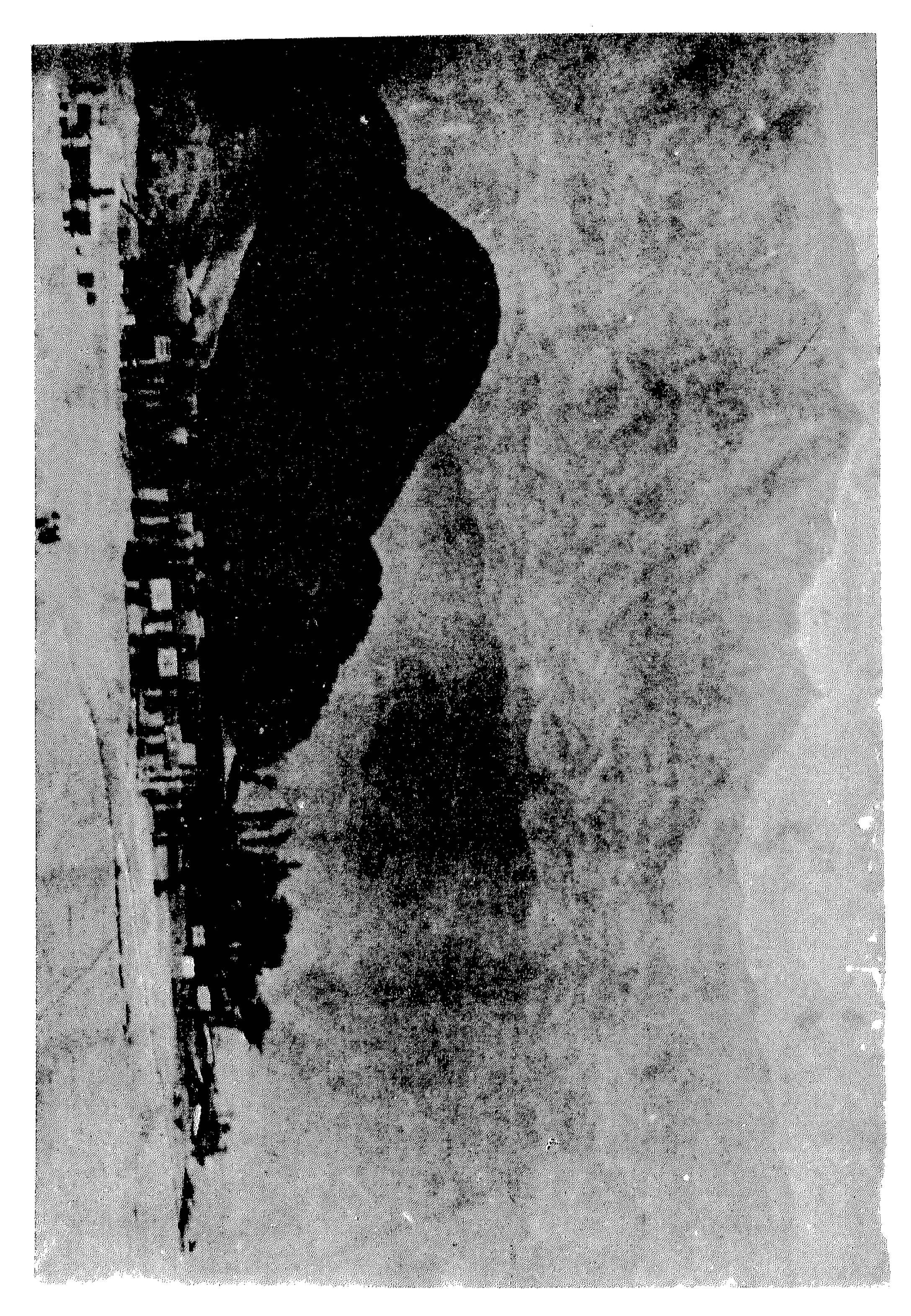
منظر عام



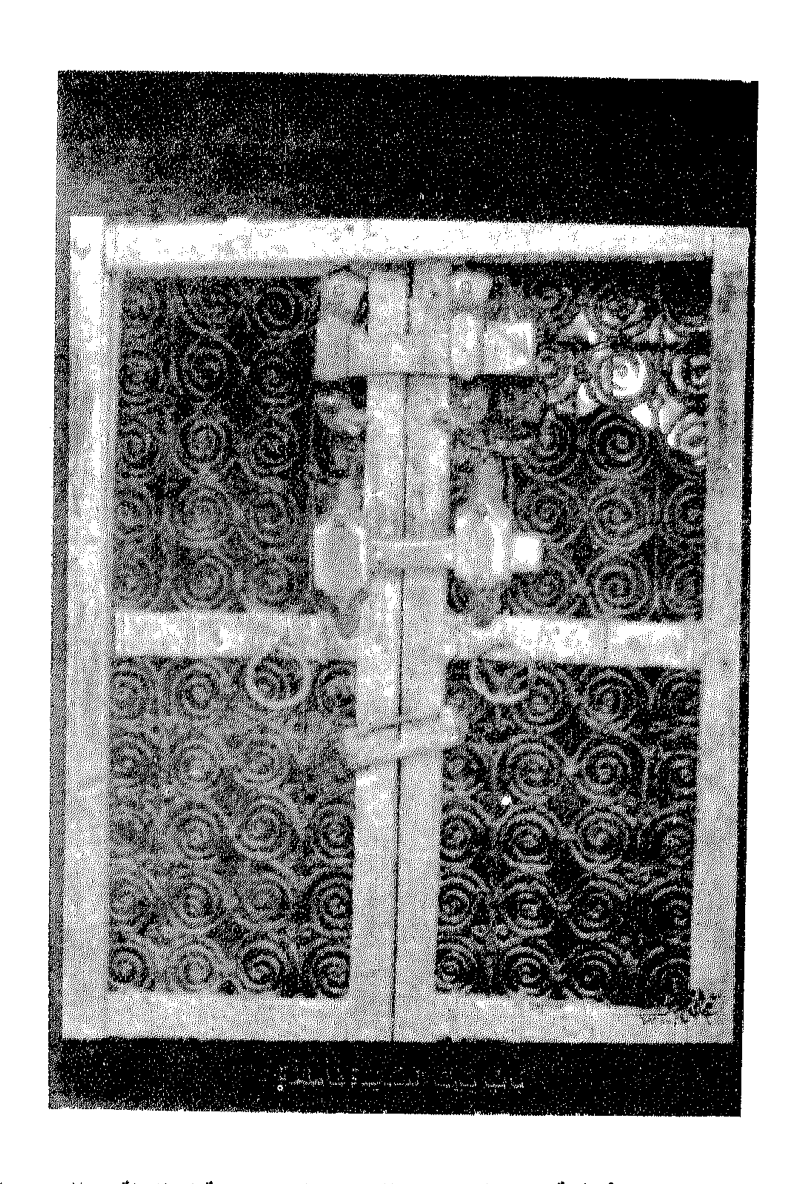
بيت لحم .. صورة وخريطة



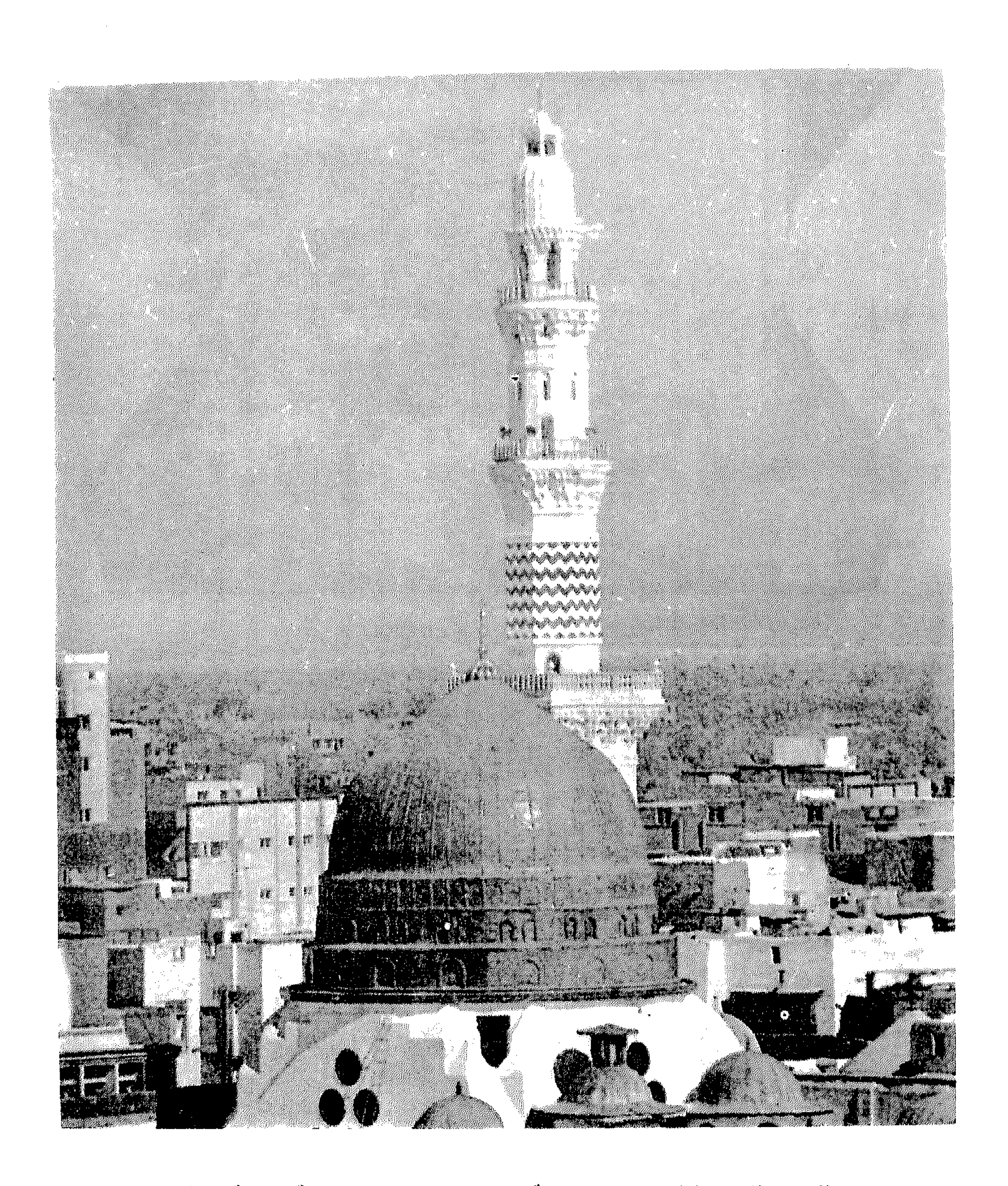
خريطة مصورة تصوير حديث .. لمدينة بيت لحم وما حولها من المدن الفلسطينية



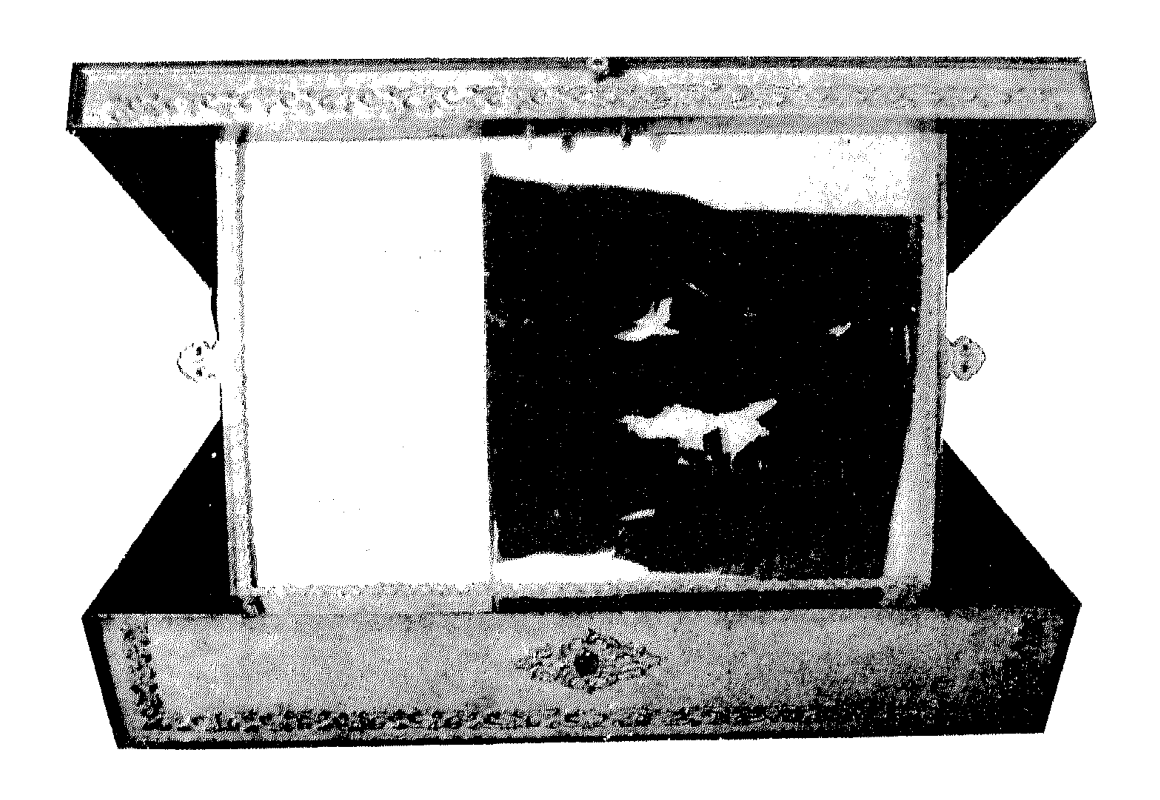
جبال سيناء الشاهقة . وموضع الوادى المقدس طوى

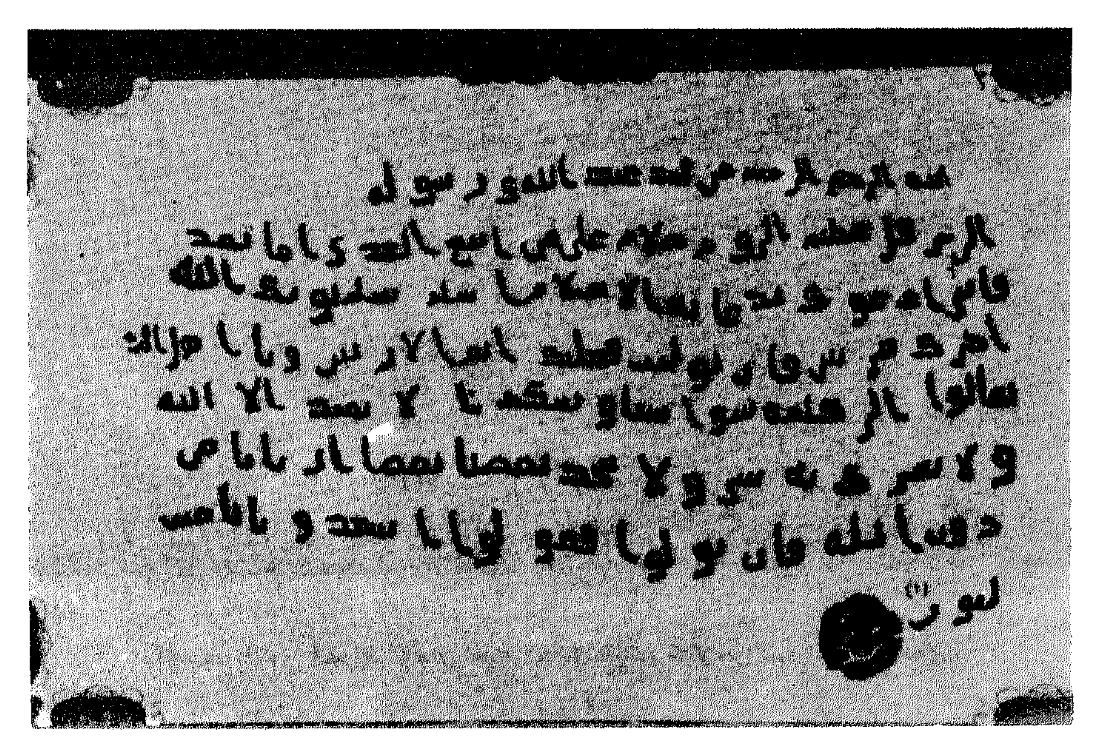


باب منزل السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها .. من قبل إلحاقه بالمسجد النبوى



المسجد النبوى الشريف وتبدو القبة الخضراء التى تعلو الروضة النبوية المطهرة

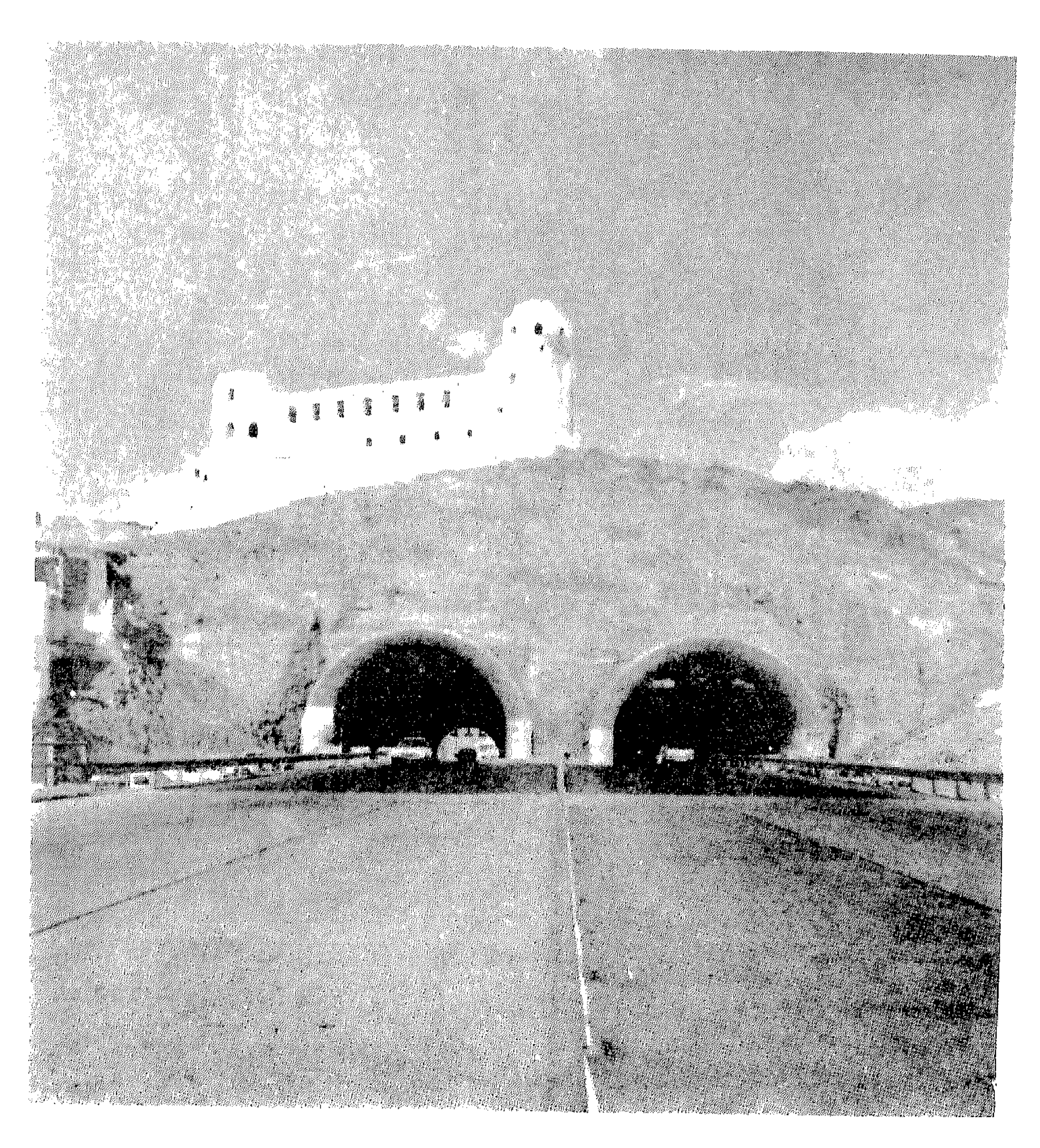




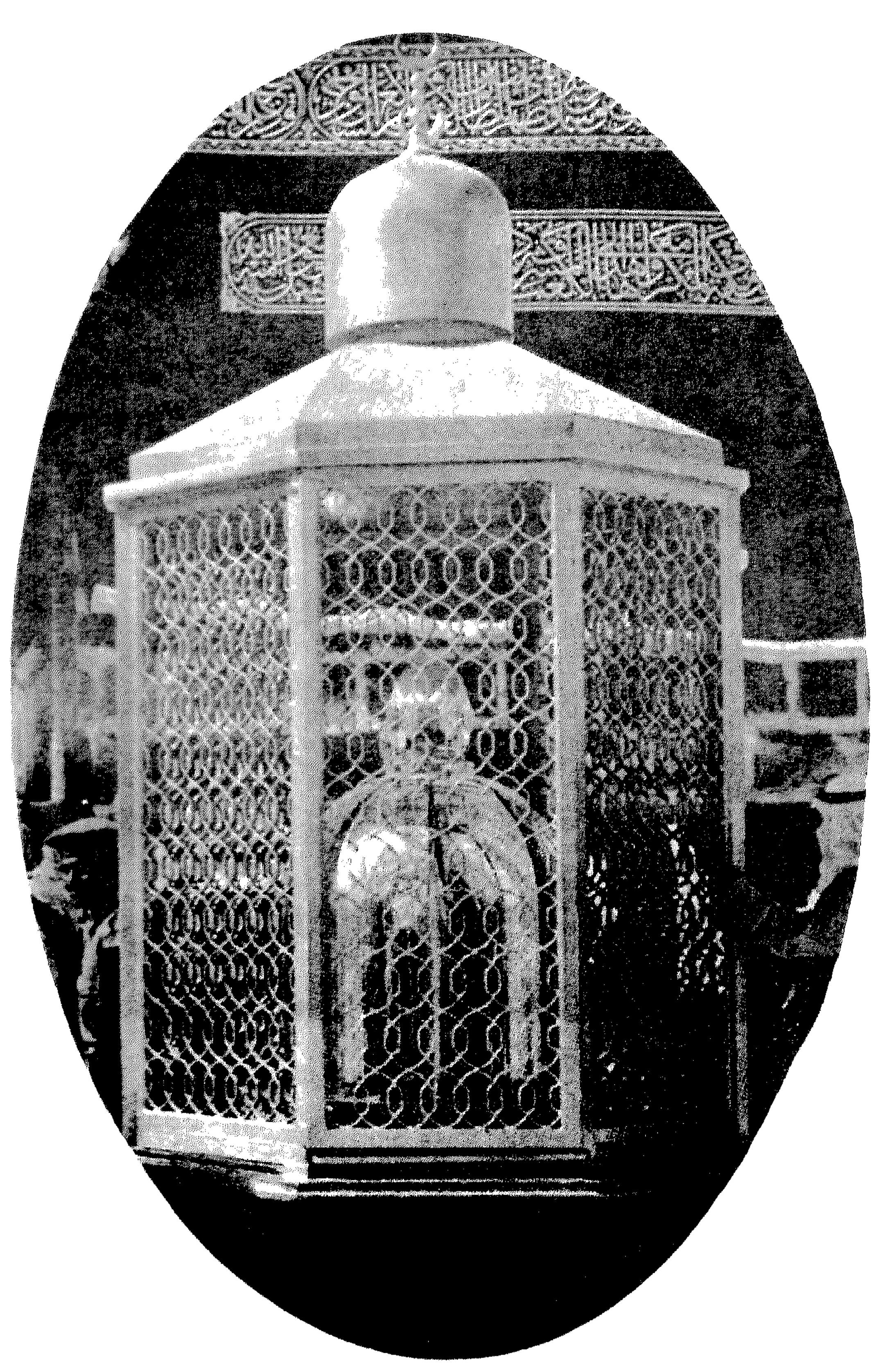
رسالة النبى صلى الله عليه وسلم إلى هرقل عظيم الروم



جبة الرسول صلى الله عليه وسلم



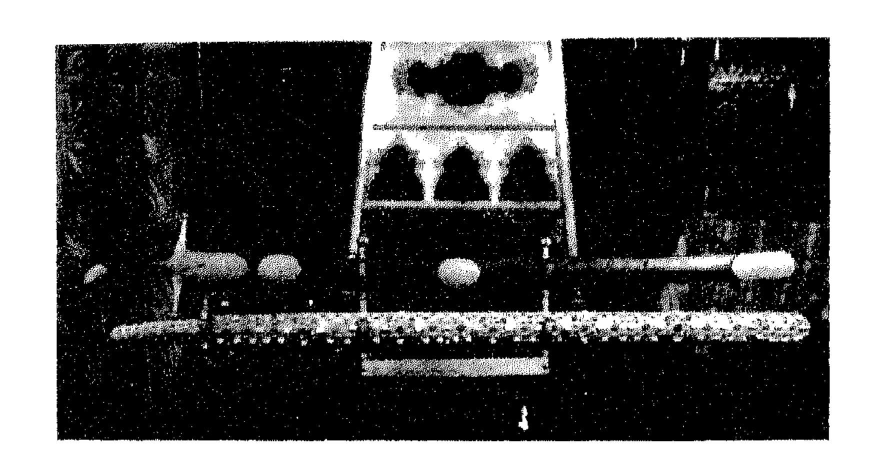
الأنفاق تخترق جبال مكة

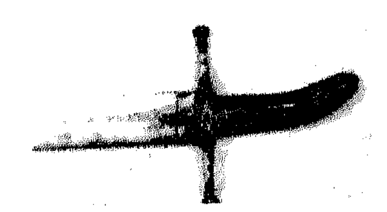


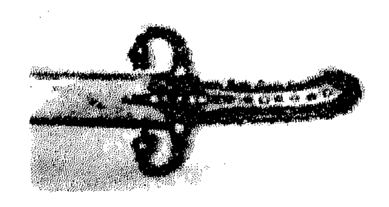
مقام إبراهيم عليه السلام أمام الكعبة



شارع أجياد بمكة المكرمة



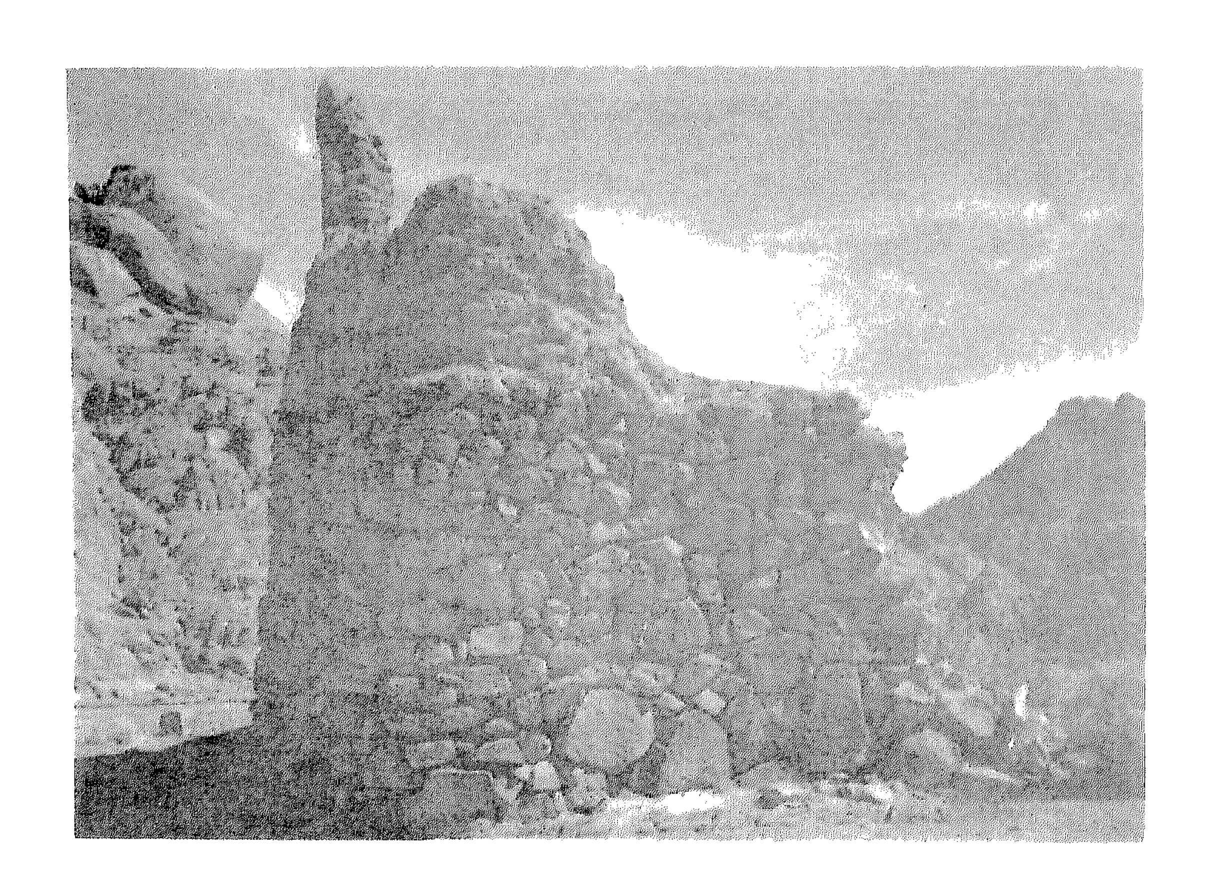




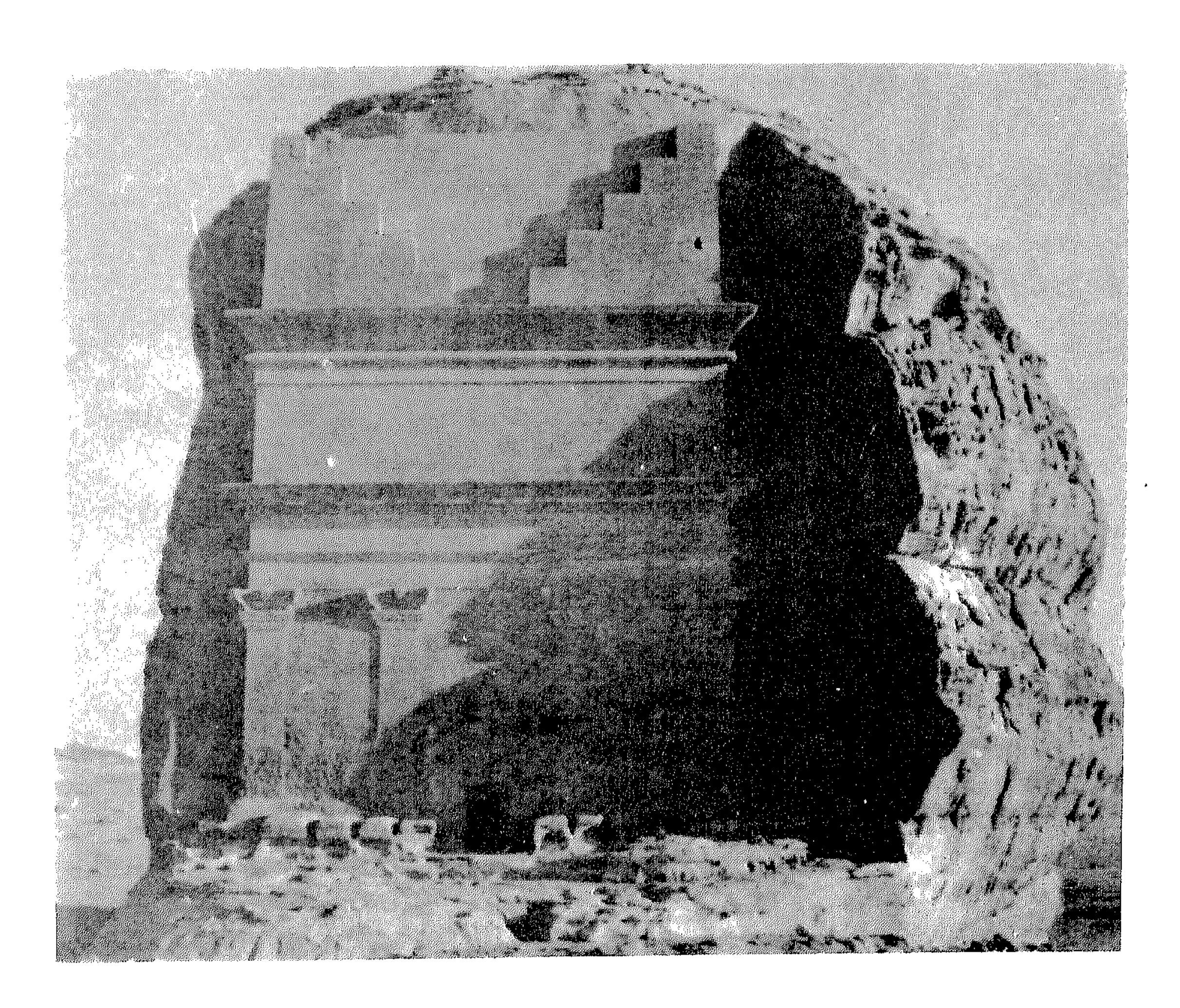
سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم



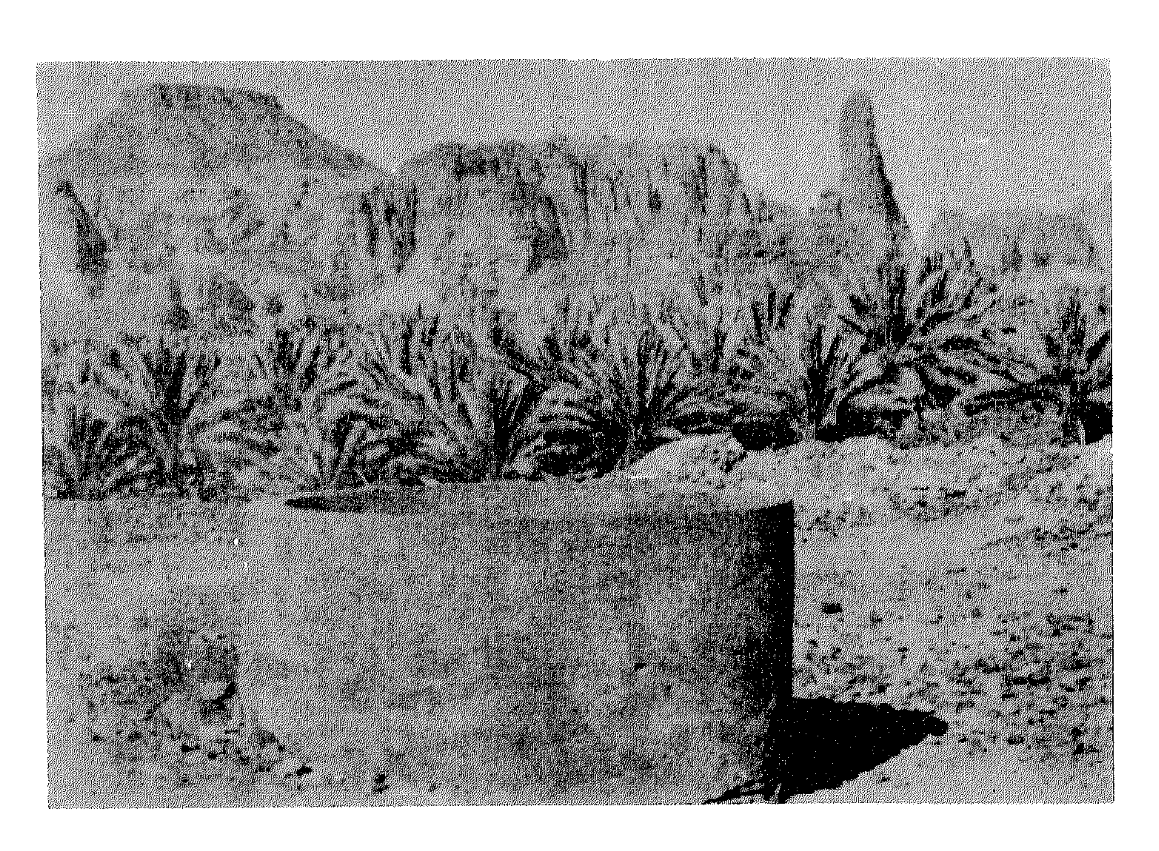
اطلال سوق عكاظ



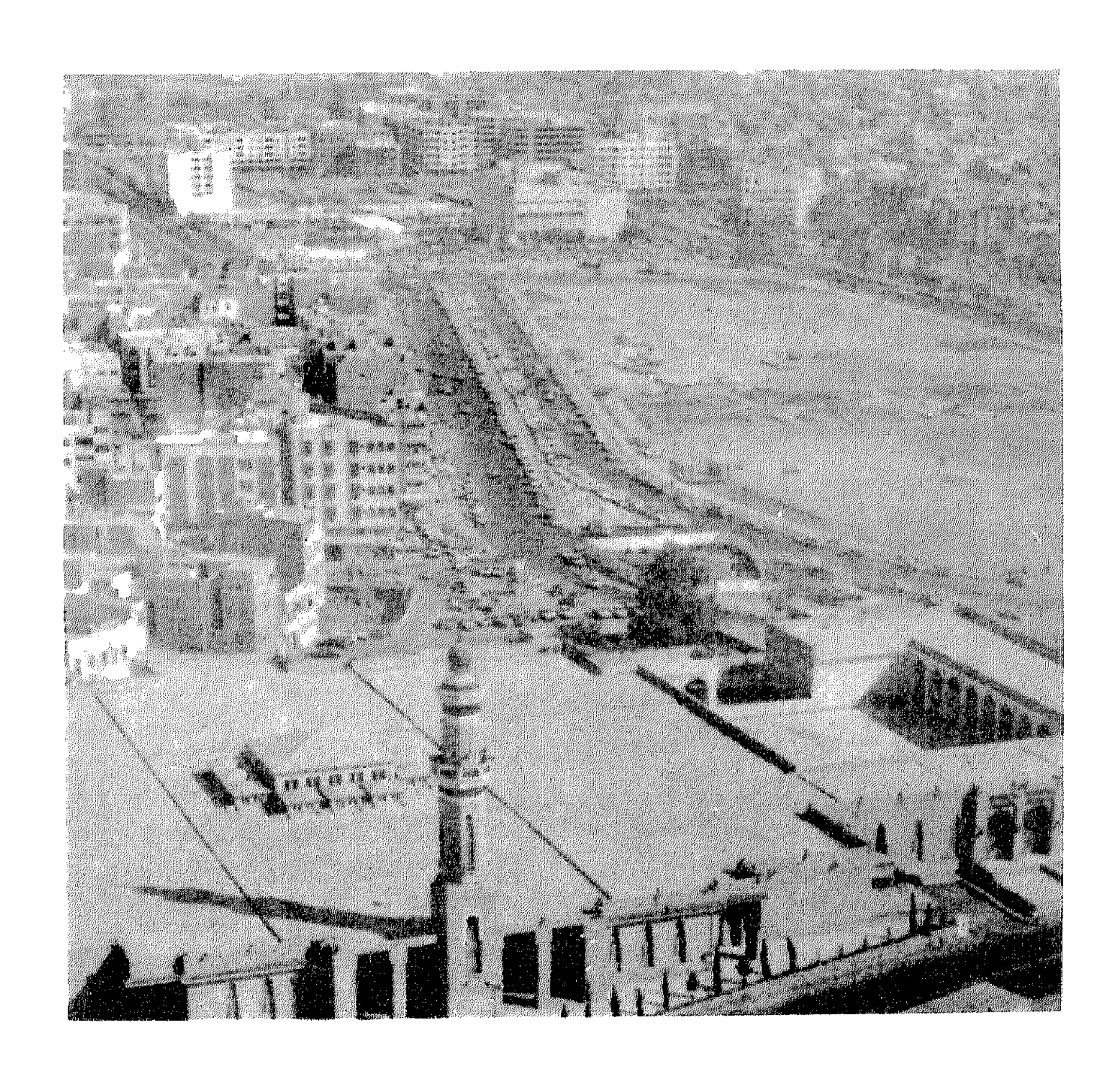
بقايا منزل حاتم الطائى فى قرية سميراء



من أثار مدائن صالح



محلب ناقة صالح عليه السلام



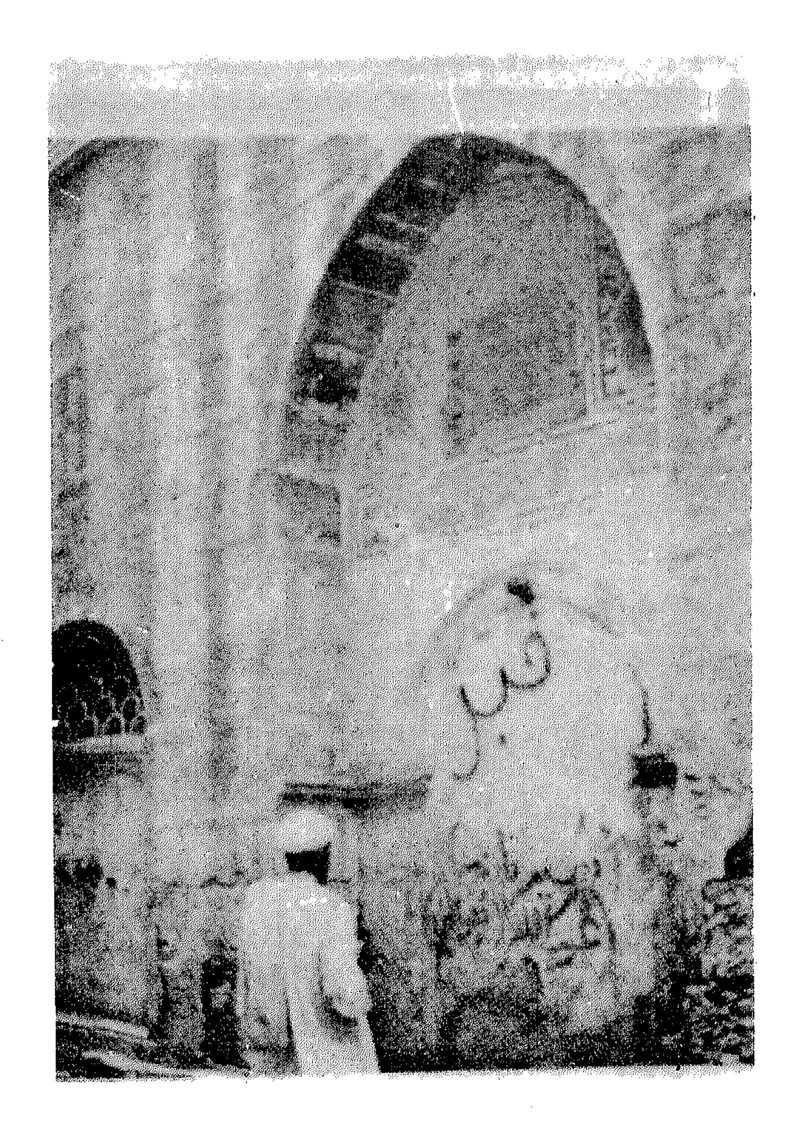
مشهد عام لمدينة الطائف



مقام السيدة آمنة بنت وهب أم النبى صلى الله عليه وسلم



صورة أخرى تبين المقام فوق جبل عال بالأبواء



صورة للدار التى دفن بها سيدنا عبد الله أبو النبى



دار التابعة من بنى النجار وهى الدار التى دفن فيها سيدنا عبد الله أبو النبى